كتابي

حلمي مراد

من لوحات متحف الفن الحديث بالقاهرة
"رقص بلدي" للفنانة "إيمّا كالي عيّاد"

١٠ قروش

كتابى

كتاب شهرى لتلخيص الكتب العالمية

يصدر اول كل شهر

صاحبه ورئيس تحريره : حلمى مراد

شعار الكتاب

مصباح الفكر عند الاغريق

الكتاب الثالث والسبعون (السنة السابعة) : ابريل ١٩٥٨

الاشتراكات ومجموعة الأعداد السابقة : اقرأ التفصيلات بالداخل

الادارة : عمارة الجندول ـ ١٤ شارع ٢٦ يوليو ـ بالقاهرة

تليفون : ٥٩٥٥٦

محتويات العدد

الموضوع — الصفحة

رأيت وسمعت لك فى آسيا . . . . . . للمحرر ٧

قيود الشيطان ! .. قصة مصرية بقلم :
محمد بدر الدين خليل ٣٥

عائشة : المثل الأعلى للمرأة فى جهادها فى ميادين العلم
والسياسة والحرب ! ٥١

شهر العسل المر ! : اروع تحفة قصصية للكاتب
الايطالى المعاصر : « البرتو مورافيا » ٧٣

جسمك ! .. هذا العالم الحافل بالأسرار والمعجزات
للباحث الطبى العالمى : الدكتور « داقيد ديتز » ١١١

جرائم الحب : أطرف وابقى كتب المركيز « دى ساد »
مبتدع مذهب التعذيب فى الحب ١٣٩

المنبوذ ! .. (من خفايا النفوس) : قصة « حالة »
نفسية واقعية ، عالجها الاخصائى النفسانى :
الدكتور « روبرت لندنر » ١٦٥

سر سيدة القصر : دعابة تمثيلية للكاتب الفرنسى الاشهر
« أندريه جيد » ١٨٥

نسخ أنيقة ((مقصـــــوصة الاطراف))

تعد خصيصا للمشتركين فى ((كتابى)) و ((المطبوعات))

◆ اذا اردت الحصول على نسختك من « كتابى » او « مطبوعات كتابى » انيقة نظيفة « مقصوصة » من جميع اطرافها ، فاشترك فى السلسلتين ، او احداهما ، تضمن وصول الأعداد المذكورة اليك فى عقر دارك ، اينما كنت ، بالبريد « المسجل » وفى مظروف مغلق .

ارسل فورا الى الادارة (١٤ شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة) اذن بريد بقيمة الاشتراك الموضحة ادناه ، لأية مدة ترغب فيها .. واذا كنت بعيدا عن مكتب البريد فى هذه الساعة او كان المكتب مغلقا ، وخشيت ان تنسى الموضوع او تهمله لو ارجاته ، فتناول قلما من فورك واكتب الينا « برغبتك » فقط فى الاشتراك ، وسوف نتولى نحن تذكيرك بالأمر بخطاب خاص فى فترات متفاوتة ، لمساعدتك على تنفيذ رغبتك ، حتى تحققها .. فلا ترجىء الكتابة الآن ، واذكر ان الارجاء والتسويف هما الد اعداء الانسان ، فهما يحرمانه من كل فرص السعادة او النجاح .

اسعار الاشتراك ، بما فى ذلك نفقات البريد المسجل

فى القطر المصرى والسودان : ١٠ قروش عن كل عدد (باذن بريد او حضوريا بالادارة) . فى سوريا ولبنان والعراق والأردن والحجاز : شيك او تحويل على احد بنوك القاهرة بما يوازى ١٢ قرشا مصريا عن كل عدد ، او كوبونات دولية بـ ١٣٠ مليما مصريا عن كل عدد . فى بقية بلاد العالم : شيك او تحويل على احد بنوك القاهرة بما يوازى ١٣ قرشا مصريا عن كل عدد . والرجا عدم ارسال نقود داخل الخطابات سواء العادية او المسجلة .

نافذة كتابى تطل على العالم

رأيت وسمعت لك .. فى آسيا

لأحمد

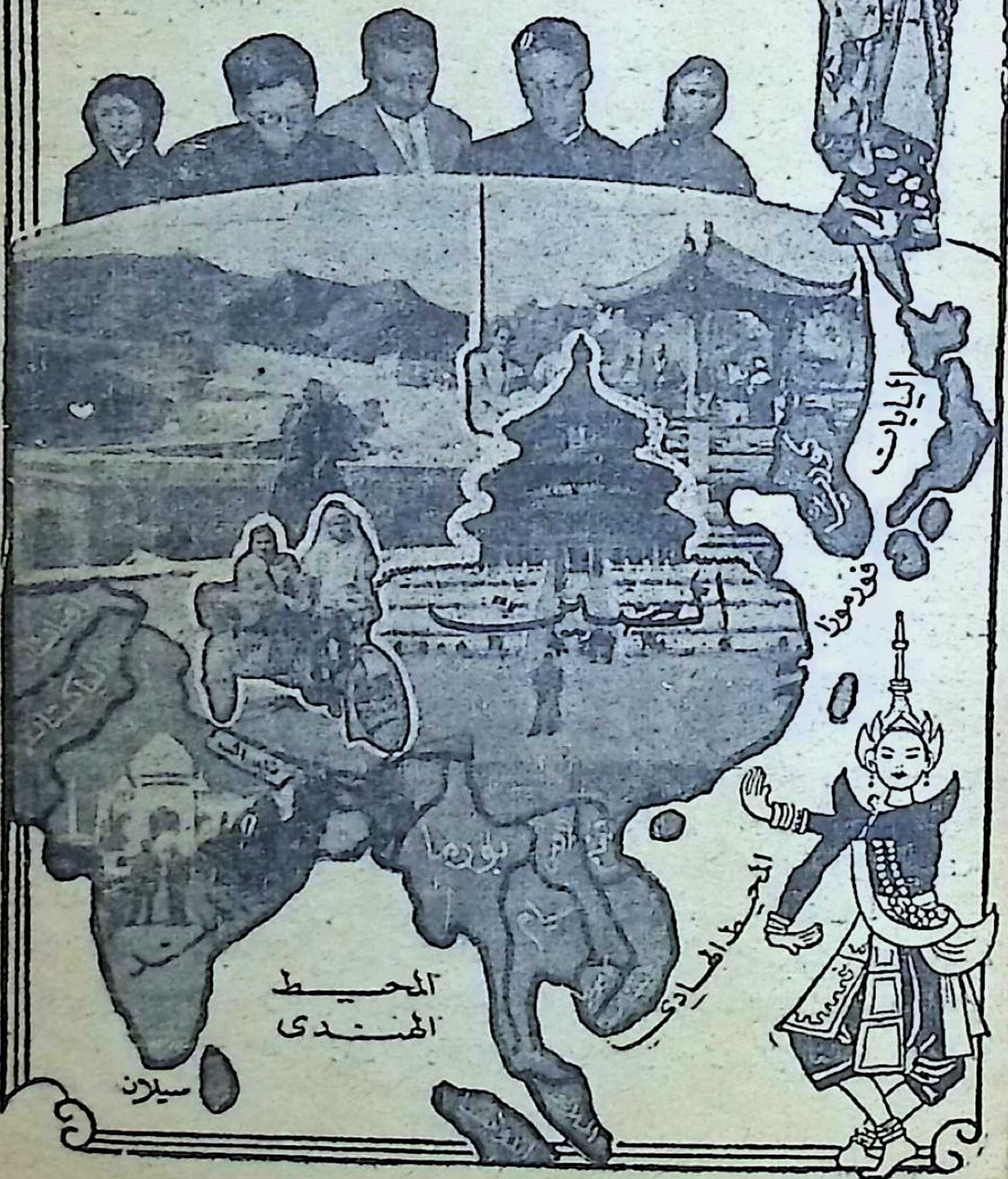

تاريخ .. أمتع من قصة !

عزيزى القارىء ..

قبل ان نواصل رحلتنا معا فى ربوع الصين ، ابدا بازجاء اخلص عبارات الشكر لك على التجاوب الرائع الذى تجلى فى هذا السيل من رسائلك الكريمة الذى أمطرتنى به عقب ظهور العدد السابق ، ردا على الافتتاحية - (بشقيها) - التى حدثتك فيها حديث القلب الى القلب ، من جهة .. ثم للتهنئة بعيد ميلاد « كتابى » ، من الجهة الاخرى ..

وحسبى فى الرد على هذه العواطف النبيلة التى ابديتها نحوى ، بعد ازجاء شكرى العميق الخالص ، أن ألتقى بك من جديد كى نستأنف معا رحلتنا التى توقفت - برغمى - فى العدد السابق

ولكى أصل ما انقطع من حديثى عن حضارة الصين القديمة ، يحسن ان الخص لك الفصلين السابقين ، فى سطور :

١ - منذ اربعة آلاف سنة كانت هناك فى الصين بذور ثقافة ذهنية ، اتخذت مظاهرها الاولى فى معرفة الكتابة وعلم الفلك !

٢ - وقد بلغ الادب فى الصين منذ الفين وستمائة سنة ، مستوى يفوق ما بلغه فى أوربا الى ما قبل ثلاثمائة وخمسين سنة فقط! (على حد تعبير المؤرخ الانجليزى الكبير « فندلى »)

٣ - والفنون التى ازدهرت فى الصين منذ ثلاثة آلاف سنة ، ظلت مجهولة فى أوربا الى ما قبل ثلاثمائة سنة أيضا !

٤ - وقد بدات حضارة الصين فى وديان النهرين الكبيرين : النهر الاصفر ، ونهر « يانجتسى » ، حيث كان الشعب الذى انحدر من مصدر مجهول يتجمع ويتكاثر ، فى عزلة عن بقية العالم .

٥ ــ كان النهر الاصفر ، على مدى العصور ، لعنة الصين وبركتها ــ فى وقت معا ! ــ بفيضاناته المتكررة ، وتحوله عن مجراه !

٦ ــ تعاقب على الصين الحكام الصالحون والفاسدون منذ عام ٢٣٥٦ قبل الميلاد ، وفى عام ٩٣٦ ق.م. شن التتار المنغوليون هجماتهم على البلاد ، ثم ظلت الصين قرونا تمزقها الحروب الاهلية من الداخل، وغارات العدو من الخارج . وفيما هى على تلك الحال من التعاسة ، ولد أعظم من أنجبت أرضها: فيلسوفها الحكيم « كونفوشيوس » ، عام ٥٥١ ق.م.

٧ ــ بدأ كونفوشيوس حياته العملية كمدرس ، فاتجه ــ مثل أفلاطون ــ الى تلقين النشء مبادىء الحكومة الرشيدة والاخلاق الحميدة ، وعكف على البحث عن مخرج لبلاده من متاعبها المستعصية ، التى كان سببها غباء حكامها وأنانيتهم

٨ ــ ولم يكن كونفوشيوس رجل دين ، بل رجل دنيا، فلم يكن يؤمن بحياة أخرى ، وانما كانت رسالته تقويم أخلاق البشر على الارض ، كى تصبح الارض مكانا جديرا بالحياة فيه ..

٩ ــ وفى عام ٤٧٥ ق.م. مات كونفوشيوس عن ٧٦ عاما ، لكنه مات ممرور النفس ، فان الصينيين لم « يكتشفوا » حكمته الا بعد أن غادر الحياة ! وعندئذ فقط أضحى موضع الاعجاب ــ القريب من التقديس ــ الذى استمر يغمر ذكراه طيلة ٢٤ قرنا ، حتى اليوم !

١٠ ــ وفى عام ٢٥٥ ق.م. انهار حكم أسرة « شو » ، ثم تولى العرش الامبراطور « شي هوانج تى » ، الذى يعتبر من أعظم الحكام الذين عرفتهم الصين . وفى عهده اتحدت البلاد كما لم تتحد من قبل ، فتوحدت دويلاتها السبع فى دولة

واحدة ، وتوحدت لغاتها فى لغة واحدة .

١١ ـ وفى عام ٢١٤ ق.م. شرع الامبراطور فى بناء سور الصين العظيم الذى يمتد مسافة الف وخمسمائة ميل وبطن الجبال ، ويعتبر من عجائب الدنيا السبع . وقد كان الغرض من انشائه حماية البلاد من غزو قبائل (الهون) التى كانت خطرا يهدد الصين على الدوام .

١٢ ـ وعند هذا الحد قطعت سردى لتاريخ الصين ، كى نزور معا هذا السور العجيب .

والآن ، تستطيع ان تتابع القراءة .. ولنمض على هذا النحو فى تركيز حديثنا عن حضارة الصين القديمة :

١٣ ـ وتحت حكم الامبراطور المذكور بلغت الامبراطورية اقصى حدودها المعروفة اليوم باسم (الصين) .. كما تمت اصلاحات داخلية كثيرة ، فقد اهتم الامبراطور بشق القنوات وانشاء الطرق فى انحاء البلاد ، وامر بتشييد عدد كبير من المبانى والمنشآت العامة

١٤ ـ وبعد وفاته فى عام ٢١٠ ق.م. بدا حكم اسرة (هان)، التى كان عهدها عهد رخاء عام ونشاط ادبى فى البلاد .. وخلال حكم هذه الاسرة تضاءل خطر قبائل (الهون) على الصين ، فقد غير هؤلاء الاعداء سياستهم فأداروا اعينهم من الشرق الى الغرب ، الامر الذى كان نذير شؤم لاوروبا ، فى هذه المرة!

١٥ ـ وقبل مولد المسيح ، اى منذ نحو الفى عام ، بلغت الصين المستوى الذى عرفها عليه العالم المعاصر فى اواخر القرن التاسع عشر ، اى منذ ستين عاما فقط ! .. ففى ذلك التاريخ القديم كان التعليم والثقافة فى ايدى فئة الـ MANDARINS الذين كانوا بمثابة قادة الفكر والراى فى البلاد ، ولو ان ثقافتهم كانت قاصرة على الادب الكلاسيكى لبلادهم ، بحيث كانوا

« الجلاد » ينفذ فى احد « العبيد » احدى وسائل التعذيب التى كانت شائعة فى الصين القديمة .

يعتقدون ان ليست هناك معارف أخرى عداه يمكن اكتسابها ! ..
ومن ثم كان طبيعيا ان يتجه نفوذهم دائما الى محاربة كل تطور او تقدم ، سيما وأن تعلم اللغة الصينية المعقدة كان يستنفد من أعمارهم سنوات طويلة ، بحيث كانوا لا يتقنون اللغة ويملكون ناصيتها فى نهاية الامر الا وقد بلغوا من العمر أوسطه ، وهى المرحلة التى ينفر فيها الانسان من كل فكرة تنحو نحو التغيير والتطور ! ..

والواقع أن تعقيد اللغة الصينية هو السبب المباشر الذى تعزى اليه الطبيعة المحافظة فى عقلية الشعب الصينى على وجه العموم ! .. ذلك ان البلاد التى تتكلم لغة لها أبجدية سهلة تتألف من ثلاثين حرفا أو نحو ذلك ، تستطيع نقل أفكارها بسهولة عن طريق الكتابة ، لان الصبى الصغير فيها يتعلم القراءة والكتابة فى سن مبكرة .. اما اللغة الصينية فليست فيها حروف أبجدية ، او وحدة تتكرر بين الكلمات المختلفة ، وانما ترسم فيها كل كلمة بطريقة خاصة ، بحيث يتعين على الشخص كى يقرأ ويكتب ان يحفظ طريقة رسم نحو الفى كلمة مستقلة على الاقل ، الامر الذى كان يستغرق من الشخص نحو نصف حياته ! وتبعا لذلك كانت القراءة والكتابة فى الصين عملية شاقة لم يكن يقدم عليها غير تلك الفئة من المشتغلين بالادب .. وفيما عداهم كانت بقية طبقات الشعب غارقة فى الأمية !

فضل الصين والعرب على ثقافة العالم !

١٦ ــ على انه بقدر تاخر الصينيين فى وسيلة تبادل الافكار ، كانوا ــ على العكس ــ متقدمين فى وسائل الانتاج . فمن الصين اخذ العالم صناعة الورق ، التي نتج عنها أكبر

انقلاب بل ثورة فى وسائل نشر الثقافة وتحرير الفكر ! .. فالى ما قبل صناعة الورق ، لم تكن هناك مادة يكتب عليها سوى اوراق البردى ، التى كانت وسيلة بدائية ومحدودة .. اما فى الصين ، فقد بدات صناعة الورق منذ القرن الثانى بعد الميلاد .. لكنها لم تصل الى علم الاوربيين الا فى اوائل القرن الثامن ، حين وقفوا على سرها من العرب ، الذين أخذوه من الصينيين عن طريق آسيا الوسطى . **وقد كانت دمشق وقتئذ – تحت حكم العرب – المركز الرئيسى لصناعته ، ومنها انتقل هذا الفن الى المغاربة فى اسبانيا ، بعد أن قطع الفتح العربى لمصر المورد الرئيسى الذى كانت تحصل منه أوربا على ورق البردى ، فكان لا بد من الاستعاضة عنه ببديل آخر .** وهكذا حل الورق محل البردى ، وعندئذ أمكن انتاج الكتب ، ولكن بكميات ضئيلة ، فان الطباعة لم تكن قد عرفت بعد .. لم تعرف الا فى القرن الخامس عشر ، ومنذ ذلك الوقت صارت الكتب جزءا هاما من حياة الانسان اليومية !

كيف انتقلت صناعة الحرير الى أوربا !

١٧ – وقد بدأ اول اباطرة اسرة (هان) حكمه للصين بالغاء جميع القوانين الرجعية التى فرضها سلفه ، فيما عدا القانون الذى كان يقضى باعدام جميع الكتب ، فقد ظل ذلك القانون ساريا حتى رفع هذا « الحظر » الثقافى فى عهد الامبراطور الذى خلفه ، فازدهر الادب وحظى بتشجيع الدولة . واعيد نشر الكتب التى كانت ممنوعة ، وبذلك بدات مرحلة نشاط ثقافى واسع النطاق

١٨ – وزادت هذه المرحلة التقدمية من الرخاء العام فى البلاد .. وساد السلام على أثر الهزائم المتوالية التى منيت بها قبائل (الهون) كلما حاولت عبور الحدود ، وهى الهزائم

التى جعلتها تولى وجهها غربا نحو التركستان وشواطىء بحر قزوين . وعلى اثر ذلك أرسل الامبراطور الى حكام تلك البلا سفيرا يفاوضهم فى شأن تأليف محالفة ضد اولئك المعتدين لكنه لم ينجح فى محاولته — ولو انه نجح فى مهمة أخرى غير مقصودة ، فقد كان يحمل معه بعض ديدان القز ، فترتب على ذلك ادخال صناعة الحرير الى أوربا !

ادخال « البوذية » الى الصين

١٩ — ورغم خلاص الصين من تهديد (الهون) ، فانها لم تنج من الخلافات الداخلية ، التى لم تلبث ان اطاحت باسر (هان) ، ليتولى السلطة بعدها فى بداية العصر المسيحى امبراطور جديد ، حكم ١٤ عاما ثم خلع عن العرش . وكان مصير خلفه اسوأ من مصيره ، اذ قتله جنوده ! .. ثم بدأ عهد اسرة (هان الشرقية) ، التى اقترن اسمها بعدد من اهم الاحداث فى تاريخ الصين ، اهمها ادخال الديانة « البوذية » الى البلاد فى عام ٦٥

٢٠ — على ان هذه الاسرة الجديدة لم تعمر اكثر من سابقاتها فلم تنقض مائتا عام حتى أطاح بها ثلاثة من الطامعين فى العرش كانوا متساوين فى القوة ، فانتهى بهم الامر الى اقتسام المملكة فيما بينهم الى ثلاث ممالك ! .. وبعد اعوام من الخلافات والحروب برز من صفوف الجيش قائد قوى الشكيمة نصب نفسه امبراطورا — (فى عام ٢٦٥) — وبذلك بدأ عهد اسرة « تشين الغربية »

بدء الاتصال مع اوربا

٢١ — ولأول مرة فى تاريخ الصين نلمس فى هذه المرحلة صلة بينها وبين اوربا ، ففى عام ٣٨٤ وصل الى العاصمة الصينية سفراء من القسطنطينية ، من قبل الامبراطور

احد مراكز تربية دود القز لصناعة الحرير ، في جهة (هو - شيو) بالصين

الرومانى « تيودوسيوس » ، يسيطر عليهم الفضول الى معرفة المزيد من هذه البلاد التى لم يكن قد خرج منها احد الى اوربا أو دخل اليها اوربى من قبل ! .. ومع ذلك ، فان الالف سنة التالية لم تشهد سوى صلات ضئيلة بين اوربا والصين

٢٢ ـ ثم انهارت اسرة « تشين الشرقية » ، ووقعت البلاد فى براثن فوضى واضطرابات استمرت نحو مائتى سنة ، حتى خلصتها منها اسرة « سوى » التى تولت السلطة فى عام ٥٩٠ فقامت بكثير من الاصلاحات ، وبدأ بذلك عهد جديد ساد فيه حكم القانون وازدهرت الثقافة ، (حتى بلغ عدد الكتب التى احتوت عليها المكتبة الامبراطورية يومئذ نحو ٥٤ ألف مجلد)

اول كنيسة شيدت فى الصين !

٢٣ ـ ثم تلت ذلك سنوات شهدت فيها الصين حروبا فى الخارج ، واسرافا فى الداخل ، أثقلا كاهل ميزانية الدولة .. فلما عاد الامبراطور من حملة عسكرية ناجحة ضد (كوريا) ، وجد شعبه ثائرا ، وتطورت الثورة الى اغتيال الامبراطور ، واستيلاء قائد الثوار على العرش (فى عام ٦١٧) ، وكانت تلك بداية حكم اسرة « تانج » . **وعلى أثر استتباب الامور اعاد الامبراطور الجديد « غزو » المناطق التى انسلخت عن الصين خلال عهود الفوضى والضعف ، ثم مد حدود البلاد من ناحية الغرب الى بلاد الفرس وبحر قزوين ، فلم يحل عام ٦٤٣ حتى كان مركز الصين قد بلغ من القوة درجة أغرت الفرس بانشاء علاقات دبلوماسية معها فأوفدت سفيرا الى عاصمتها ..** وفى تلك الآونة سمح الامبراطور لكاهن مسيحى من (نستوريا) بتشييد أول كنيسة فى الصين، كى يمارس فيها هو ومن ضمهم الى الدين الجديد شعائر المسيحية .

٢٤ ـ ومنذ القرن السادس ، كان شراب الشاى قد

« تفشى » فى إنحاء الصين باسرها ، وأضحى عادة قومية ـ ما تزال « طابعا » تقليديا لتلك البلاد ـ بل انه صار «المكيف» الرئيسى لمزاج فنانيها .. وكانت الصين قد بلغت شأوا بعيدا فى مضمار الفنون على اختلاف انواعها ، حتى ليمكن القول أن فن المعمار بلغ هناك منذ الفى عام نفس المستوى الذى تعرف به تلك البلاد اليوم !.. وفى القرن الرابع ظهر الرسام الاشهر « كو كاى شى » الذى ماتزال الصين تفخر برسومه فى اليوم، على أن فن الرسم هناك اتخذ اتجاها مخالفا لاتجاهه فى أوربافى عصر النهضة : فبينما كان ميدانه البارزفى أوربا ،رسم اللوحات بالالوان الزيتية ، نراه فى الصين قد تركز فى اتجاه آخر ، هو الرسم بالالوان المائية .. وبينما كان الموضوع الغالب للوحات عصر النهضة هو صور الاشخاص ، تميز الفن الصينى بالميل الى رسم مناظر الطبيعة والخلاء

والى جانب الرسم وفن المعمار ، نبغ الصينيون منذ ذلك العهد البعيد فى فنون اخرى مايزال لواء التفوق فيها معقودا لهم حتى اليوم ، ومن هذه الفنون : فنون الخزف ، والنحاس، والزخرفة .. الخ .

. العرب يحملون رسالة الاسلام الى الصين

٢٥ ـ وفى عام ٦٢٨ وصل الى (كانتون) ـ ميناء الصين الجنوبى ـ رسل عرب يحملون الى أمبراطور الصين رسالة الاسلام .. فى نفس الوقت الذى ارسلت فيه رسالات مشابهة الى « هرقل » فى القسطنطينية، والى امبراطور الفرس . وقد انتقل أولئك الرسل من بلاد العرب الى الصين على ظهر سفينة « تجارية » ، الامر الذى يقطع بوجود صلات تجارية بين الشرق والغرب فى ذلك العهد .

الرحلة التى استغرقت ١٦ عاما !

٢٦ ـ وكأنما أغرت هـذه الرحلة المغامرين ذوى القـلوب الجسورة بارتياد ميدان الرحلات ، فلم يمض عام حتى انطلق شاب « بوذى » يدعى « يوان شوانج » للقيام بأطول رحلة عرفت فى ذلك العصر ـ وقد تغيب بسببها عن الصين ستة عشر عاما ! ـ فبدأ بعبور صحراء (جوبى) متجها الى الهند، عبر ممر (خيبر) . وبعد أن تجول فى أنحاء الهند لمدة أربعة عشر عاما ، عاد الى وطنه عن طريق (افغانستان) ، ثم عكف على وضع كتاب عن رحلته ضمنه مغامراته ـ والكتاب يعتبر الآن من عيون الادب الصينى الكلاسيكى ـ وقد قوبل الرحالة عند عودته استقبالا عظيما ، وقضى بقية حياته فى أحد الاديرة يترجم الادب البوذى الى اللغة الصينية .

أول امرأة حكمت الصين !

٢٧ ـ وبعد وفاة الامبراطور « تاى تسـونج » مؤسس أسرة « تانج » ، فى عام ٦٤٩ ، خلفه آخر من نفس الاسرة ، لكن الاخير كان ضعيفا ، وكانت زوجته «وو هاو» على العكس منه ، فلم تلبث أن نحته جانبا واستأثرت بالسلطة الفعلية ـ فى حياته ! ـ فلما مات خلفته على العرش ، (الامر الذى كان مستغربا فى عصر كانت النساء فيه فى مرتبة العبيد !) . والامر الادعى للدهشة ان هذه المراة حكمت الصين ـ حكما صالحـا رشيدا ـ طوال خمسة وخمسين عاما كاملة ! .. وحين ماتت خلفتها زوجة ابنها ، وكان الابن قد حرم من العرش بوصية من أمه ، لكن زوجته لم تكتف بذلك بل عمدت الى قتله بالسم ثم ولت ابنها على العرش وحكمت هى نيابة عنه !

٢٨ ـ ويتلخص تاريخ القرنين التاليين فى حروب أهلية فى الداخل ، واشتباكات مع أهل التبت ومع العرب على الحدود

لوحة قديمة تمثل بعض السفن الراسية فى مياه نهر اللؤلؤ بمدينة كانتون

.. نتيجة لضعف الحكومات ، والمؤامرات ، والاضطهاد ، والعصيان .. الخ .. بحيث اضطر الامبراطور « وو تسونج » فى آخر الامر الى اغلاق جميع المعابد واديرة البوذيين ، وطرد جميع الكهنة الاجانب والمرسلين من البلاد .. لكن هذه الاضطهادات انتهت بانتهاء حياته ، فلما أزال خلفه آثارها ، انتعشت البوذية من جديد

والواقع أن الاضطهاد الدينى لم يكن يوما من صفات الصينيين كما أن العدوان على جيرانهم خارج الحدود لم يعرف عنهم فى أى عهد ، رغم أنهم يملكون وسيلة هذا العدوان بحكم كثرة عددهم . واذا كانوا يثابرون على معاداة من يبدأونهم بالعدوان، ويحسنون اللجاجة فى كراهيتهم ، فانهم فى المناسبات الاخرى يؤثرون اتباع تعاليم حكمائهم الاخلاقيين ـ مثل « كونفوشيوس » و « لاوتزى » ـ الذين يوصون بمقابلة الشر بالعدل والرفق والتسامح .. **ولقد غزا الصين غزاة كثيرون ، لكنها « ابتلعتهم » جميعا ، وبينما تلاشت حضاراتهم وعفى عليها الزمن ، بقيت حضارتها هى شامخة كالعهد بها ، شأنها فى ذلك شأن دولتين أخريين محبتين للسلام ، ولهما حضارة عريقة وتاريخ مجيد ، وهاتان الدولتان هما : مصر والهند !**

وهكذا ، بينما كانت الفوضى الداخلية هى الطابع السائد فى جميع عصور تاريخ الصين ، فان الحقيقة الباقية على مر الزمن مع ذلك هى أن الملايين من ابناء هذا الشعب ، من طبقة الفلاحين الكادحين المؤدبين الصابرين ، قد عاشوا يزرعون الارز ليعولوا عائلاتهم بما لا يكاد يسد رمقها ، وهى تتأرجح على حافة المجاعة ! .. لقد كانوا دائما شعبا من البسطاء ، المحبين للسلام ، الذين تسير حياتهم على وتيرة واحدة ، لا تتغير عاما بعد عام ، بل قرنا فى اثر قرن !

على هذه الوتيرة عاشت الغالبية الساحقة من الشعب الصينى، حتى أوائل القرن الثالث عشر ..

عند ما اجتاح المغول الصين ، بقيادة ((جنكيز خان !))

٢٩ - فى تلك الاثناء ، كان المغول - الذين جبلوا من نفس معدن (الهون) - قد بدأوا يستأثرون بالسلطة فى شرق آسيا . وكانت لهم طبيعة مزدوجة متناقضة : فهم فى بيوتهم وبين عشيرتهم غاية فى اللطف والود والدماثة ، بقدر ما هم قساة متوحشون بالنسبة للغرباء! .. **وقد استفحلت قوتهم وخطرهم تحت زعامة قائدهم الجهنمى ((جنكيز خان)) . وفى عام ١٢١٢ أفلحوا فى غزو الصين ، اذ اقتحموا حدودها من الشمال الغربى ، ثم تقدموا زاحفين نحو الجنوب لا يلوون على شىء ، مكتسحين فى طريقهم كل عقبة، مدمرين كل مايعترض سبيلهم، حتى محوا من الوجود نحو تسعين مدينة فى مقاطعات (هونان) و (شان تونج) و (شى لى) .. الخ**

واستمرت الحرب مستعرة عاما بعد عام ، وفى هذه الاثناء سقطت فى أيديهم (بكين) ، ثم تبعتها مدن كثيرة كبرى ، الواحدة بعد الأخرى ، رغم استماتة الصينيين البواسل فى الدفاع عن وطنهم ضد غارات أولئك البرابرة الوحوش ! .. وهكذا عاشت الصين سنوات سوداء ، كانت مدنها تحاصر خلالها ، ثم تدمر .. ورجالها ونساؤها وأطفالها يبادون ابادة كاملة ، دون رحمة! .. **ومع ذلك فقد ظلت مدينة ((جونج فو)) تقاوم حتى ذبح آخر حيوان كان يمكن ان يقتات أهل المدينة من لحمه ، وقتل كل شخص عاجز عن القتال ، كى يوفر طعامه لمن هو أقدر منه ! .. فلما اكتسح الغزاة فى النهاية أسوار المدينة الباسلة ، أحرق الامبراطور نفسه داخل جدران قصره !** .. وبذلك انتهى عهد تلك الاسرة الحاكمة التى كان ينتمى اليها . وانقضت اربعمائة سنة قبل أن تأتى أسرة

« مانشو » لتطالب بالعرش كوريثة للبطل الباسل الذى دافع عن « جوننج فو » ذلك الدفاع الجبار

يستنجد بسلطان مصر من خطر المغول !

٣٠ — والآن ، نقلب هذه الصفحات من تاريخ الصين كما نظرنا اليه من وجهة نظر الصينيين انفسهم ، لننظر اليه من وجهة نظر العالم الخارجى :

ففى عام ١٢٢٨ احس الامبراطور الرومانى « فردريك الثانى » — قائد الحملة الصليبية السادسة — بالخطر الذى يهدد أوربا والشرق الاوسط من جراء استفحال قوة المغول ، الذين باتوا يطرقون ابواب أوربا ، ويهددون مدينتى كييف والقسطنطينية! .. **ومن ثم هرع الامبراطور الى لقاء ((صديقه)) سلطان مصر — وكان الامبراطور يتقن اللغة العربية قراءة وكتابة ، الى جانب خمس لغات أخرى ! — وفى ذلك الاجتماع التاريخى ، بدلا من أن يكون الصراع بين الصليبيين والمسلمين هو موضوع الساعة ، كان هم الامبراطور الرومانى دراسة وسائل مقاومة زحف المغول نحو الغرب !**

واذا نظرنا الى خريطة العالم فى ذلك العصر ، من حافةاوربا غربا ، الى حافة الصين شرقا ، الفينا اسبانيا مقسمة — مناصفة — بين المسلمين والمسيحيين .. وفرنسا ، نصفها تحت حكم الانجليز ، ونصفها باق للفرنسيين ! .. والمانيا ، تحكم من بحر الشمال الى صقلية جنوبا .. والى الشمال منها بروسيا ، على شواطىء البلطيق ، والى الجنوب منها مباشرة بولندا ، ثم هنغاريا .. وفى أقصى الجنوب الامبراطورية اليونانية الشرقية . اما انجلترا ، واسكتلندة ، وايرلندا ، والسويد ، والنرويج ، فقد كانت يومئذ مثلما هى اليوم ، فيما عدا أن السويد كانت تحكم فنلندا . وكانت روسيا تحتل نفس

رسم رائع يمثل (تاى وانج كو) أو قلعة «البرج الاصفر» المطلة على نهر اللؤلؤ ، بكانتون

الرقعة التى تشغلها اليوم ، رغم انها كانت منقسمة الى عدة مناطق نفوذ . والى الشمال من بحر قزوين كان هناك التتار، والى الشرق من جبال الاورال فى سيبيريا كانت جحافل جنكيزخان !

اما فى أقصى الشرق فكانت الصين قد انقسمت الى ثلاث امبراطوريات : امبراطورية « هسيا » ، وأمبراطورية « كين »، وأمبراطورية « سونج » . والى الجنوب من سيبريا كانت بلاد التبت ، ثم الهند ــ وكانت الاخيرة مقسمة الى عدة ممالك ــ أما الرقعة من جبال الهملايا الى بلاد الفرس ، التى تعانق شمال الهند وافغانستان ، فكانت خاضعة لحكم امبراطورها التركى .. بينما كانت سوريا وفلسطين ومصر قد قسمت بين ابناء صلاح الدين .. والخلفاء يحكمون العراق .. والى الجنوب شبه جزيرة العرب ، يعمرها اهلها

الامبراطور الذى قتل رسل جنكيز خان !

٣١ ــ ولنعد الى المغول وزعيمهم جنكيزخان . كان قد استهل نجاحه بعقد محالفة مع التتار، مدت نفوذه الى شواطىء البحر الاسود .. ثم غزا الصين ، فامتد نفوذه الى المحيط الهادى .. ولكن كانت ماتزال أمامه فى الجنوب والغرب بلاد غنية بخيراتها ، يتحلب لها لعابه !

وهكذا ، فى عام ١٢١٧ ، أرسل جنكيزخان رسله الى الامبراطور التركى فى (سمرقند) ، يخطب وده ! .. **فما كان من الاخير الا أن قتل الرسل المغول ، كى يظهر لجنكيزخان انه يعتبره لصا ، خارجا على القانون ، بحيث لا يليق به أن ينشىء معه صلات دبلوماسية !**

وكان رد اللص الخارج على القانون ، سريعا ، رهيبا ! .. فقد أرسل من فوره قوات ضخمة من فرسانه المسلحين

بالبنادق والمدافع - وكانوا قد عرفوا استعمال البارود من الصينيين - فاجتاحوا مدن الامبراطورية مدينة بعد مدينة ، حتى سقطت العاصمة (سمرقند) فى أيديهم !

ثم واصلوا زحفهم غربا ، عبر بحر قزوين ، وجنوبا نحو الهند .. وعند (كييف) التقوا بقوة من الروس ، هزموها شر هزيمة ، واخذوا « غراندوق » المدينة أسيرا ! .. وهكذا بلغ المغول الآن شواطىء البحر الاسود ، فاجتاح الذعر اهل القسطنطينية . وفى تلك الاثناء كانت جحافلهم فى الشرق تغزو مناطق جديدة من أرض الصين !

ولكن ، فى قمة نجاحه ومجده ، مات جنكيزخان - عام ١٢٢٧ - فلحق بضحاياه فى العالم الآخر (وكان عدد هؤلاء الضحايا قد بلغ ستة ملايين !) مات تاركا امبراطورية مغولية مترامية تمتد غربا الى البحر الاسود ، وشرقا عبر افغانستان الى (لاهور) بالهند ، ثم تتاخم السفوح الشمالية لجبال الهملايا ، ومنها تطاول (بكين) فى الصين !

خطر المغول يهدد بغزو العالم !

٣٢ - واسلم زمام هذه الامبراطورية الشاسعة الى يد سياسي واداري فذ ، هو « يلوى شوتساى » ، الذى ساس امورها باعتدال وحكمة ، وزهد فى المال الحرام ، وانقذ الكثير من المدن والكنوز الفنية من الدمار .. لكنه - لسوء الحظ - عجز عن السيطرة على الجيش ، ولم يلبث أن مات فقيرا .. وعلى اثر ذلك انتخب ابن جنكيز خان « اوجداى » خلفا له ، وكان فى مثل قسوة ووحشية ابيه ، فجعل هدفه أن يكمل غزو العالم ! .. وهكذا لم يلبث المغول أن تدفقوا على ارض روسيا - فى عام ١٢٣٥ - فاستولوا على (كييف) ودمروها ، وسيطروا علي أكثر الاجزاء الباقية من الدولة .. ثم اجتاحوا

بولندا .. وهزموا جيشا متحالفا من البولنديين والالمان فى سيليزيا الجنوبية ! .. وكانت انتصاراتهم راجعة الى براعتهم الستراتيجية اكثر منها الى كثرتهم العددية ! .. بل يقرر المؤرخون — الاوربيون ! — « ان تحركاتهم العسكرية كانت تتم بمثل دقة الساعة ، الأمر الذى كان يعجز عنه اى جيش اوربى فى تلك الأيام ! .. كما كانت اجهزة المخابرات والجاسوسية عندهم رائعة للغاية ، تعلم كل شىء عن خطط أعدائهم ، فى الوقت الذى يجهل فيه الاعداء كل شىء عن خططهم هم ! »

وهكذا لم يكن فى اوربا قائد عسكرى يقف أمام ((أوجداى)) ، الذى كان فى وسعه أن يجتاح أوربا كلها لو أراد .. ولا يدرى احد ماذا كان يحل باوربا لو لم يدهمه الموت فى عام ١٢٤١ — فى سن السادسة والخمسين ، بعد ان حكم ١٣ عاما — مات بينما كانت جحافله تنحدر جنوبا عبر هنغاريا ، فتنتشر المذابح والموت اينما حلت !

وخلف « اوجداى » آخرون ، على التوالى ، اتموا غزو الصين .. والتبت .. ثم فارس .. وسوريا .. والعراق . وفى عام ١٢٥٩ آلت دولة المغول الى « كوبلاى خان » ، الذى استمر يحكمها خمسة وثلاثين عاما ، ونصب نفسه امبراطورا على الصين ، فازدهرت البلاد فى عهده وقويت شوكتها ، وامتدت حدودها من المحيط المتجمد الشمالى الى سنغافورة ، ومن المحيط الهادى الى بحر قزوين !

أول جيش هزم المغول .. هو الجيش المصرى !

٣٣ — واتخذ « كوبلاى » مدينة (بكين) عاصمة لملكه ، حيث تفرغ لتدبير امور الصين ، تاركا اخاه « هولاجو » يحكم فارس وسوريا والعراق وآسيا الصغرى . وفيما هو فى طريقه الى مصر ، التقى بالجيش المصرى فى فلسطين ، فهزمه

لوحة تاريخية لأحد شوارع مدينة كانتون كما كان يبدو قديما وترى احد الاثرياء محمولا فى عربته على اكتاف عبيده

الأخير شر هزيمة ـ عام ١٢٦٠ ـ وبذلك فقد المغول هيبتهم فى الشرق الأوسط !

ثم انفصل المغول فى روسيا وسيبيريا عن أخوانهم فى الشرق، وألفوا دولا جديدة .. فلما مات « كوبلاى » فى عام ١٢٩٤، لم يعين « خان » آخر عظيم بدلا منه ، بل تحللت الامبراطورية التى كانت يوما رهيبة مفزعة ، تاركة منغوليا والصين تحت الحكم المغولى الذى كان مركزه (بكين) ، بينما نشأت امبراطوريات وممالك مغولية مستقلة ، فى روسيا ، وفارس ، وسيبيريا ، وتركستان .. الخ

وهكذا توقف التغلغل المغولى وتلاشى خطره بالنسبة لأوربا والشرق الأوسط ، لكنه لم يلفظ انفاسه ، فقد غزا بعد ذلك شمال الهند ، حيث اقام مملكة استمرت نحو قرن كامل ، حتى اسقطها الأفغان ..

اما فى الصين ، فقد استمر حكم المغول حتى أطاح به اباطرة اسرة « مينج » الذين استولوا على العرش عام ١٣٦٨ ، واحتفظوا به نحو ثلاثمائة عام ، حتى انتزعته منهم اسرة « مانشو » ، التى حكمت الصين حوالى ثلاثمائة عام اخرى ، انتهت بتنازل الامبراطور الاخير عن العرش فى سنة ١٩١٢ واعلان « الجمهورية » الصينية !

جناية المغول على اقتصاد العراق !

٣٤ ـ وقد كان يمكن ان يظهر المغول ثم يختفون او يتلاشون فى شعوب اخرى دون ان يخلفوا ضررا كبيرا باقيا على مر العصور .. فالمنازل يمكن ان تدمر ثم يعاد بناؤها .. **لكن اولئك الهمج ضيعوا معالم مشروع هندسى عظيم لم يعوض حتى الآن ، الأمر الذى الحق بالعالم خسارة اقتصادية دائمة وجسيمة !**

ذلك ان المغول أتلفوا نظام الرى العجيب فى العراق ، وهو النظام الذى انشأه «السومريون» قبل ذلك التاريخ بنحو خمسة آلاف سنة ، فجعل من تلك البلاد « جنة » خصبة ، بحيث اختارتها أساطيرهم مكانا لجنة عدن !

هناك ، فى مهد الحضارة ، أتلف المغول ـ عامدين متعمدين ـ ذلك المشروع الهندسى العجيب الذى أضاف ثروة زراعية ضخمة الى العالم . وكان الحصاد السخى المبارك قد تتابع ـ طيلة خمسة آلاف سنة بغير انقطاع ـ فى تلك المناطق الخصبة التى عاش فيها عدد ضخم من السكان ونشأت فيها مدن كبرى عديدة لها مكانتها فى التاريخ ، من بينها : بابل ، نينوه ، أور ، نيبور ، بغداد .. الخ

ولا شك ان ماتدين به البشرية للحضارة الباكرة التى نشأت فى تلك المناطق الخصبة ، لا يدركه غير القليلين .. كما أن فقدان تلك البقاع كان مأساة أخرى من المآسى العديدة التى قاستها الانسانية ، نتيجة للجهل والغباء ! .. والجهل والغباء فى هذه المرة يقع وزرهما على تلك الحفنة من البرابرة الذين احتقروا جميع صور الحياة المتمدينة ، ونظروا الى المتمدينين الذين يعيشون بين جدران بيوت أو يرتزقون من الزراعة ، نظرة تنطوى على الحقد والكراهية . ومنذ ذلك التاريخ حرم العراق من غزارة وخصوبة المحاصيل التى كان قد ألفها فى الماضى ، قبل أن يرتكب المغول جنايتهم الفظيعة . وبعد ان كان بلدا ماهولا بتعداد ضخم من السكان ، أصبح أشبه بصحراء جرداء تتناثر فى أرجائها بعض القبائل ! .. وحلت المستنقعات الآسنة مكان الحقول الغنية التى تدر أوفر البركات .. وتكاثر البعوض فى الامكنة التى كانت تغطيها سنابل القمح .. وصارت مياه نهرين عظيمين ـ هما « دجلة » و « الفرات » ـ تصب

فى البحر دون أن تعود على البشرية بأية فائدة أو نفع !

ومن حسن الحظ ، أن انتصار الجيش المصرى على المغول فى فلسطين - عام ١٢٦٠ - حمى وادى النيل ووقاه من ان يصيبه نفس المصير الذى أصاب وادى دجلة والفرات، وحفظ للمصريين الرخاء الكبير الذى تدره عليهم مياه النيل .

والمأمول أن يسترد العراق رخاءه القديم فى المستقبل ، ولكن بثمن غال، هو بناء السدود والخزانات ، وحفر الترع والمصارف ، ومد الانابيب ، حتى يعود ذلك « البحر من الخضرة » - كما وصفه المؤرخ القديم « هيرودوت » - الى سابق مجده وازدهاره ..

اهرامات .. من الجماجم !

٣٥ - وبعد أن اصيب المغول بتلك النكسة ، وخفت حدة انتصاراتهم السابقة ، عادوا بالتدريج الى حياتهم الاولى، حياة العزلة وعدم الاختلاط بشعوب البلاد التى يدخلونها .. وهى الحياة التى كانوا يحيونها فى البداية ، قبل أن يحولهم زعيمهم جنكيز خان الى جيش ارهابى منظم ! .. وهكذا نراهم قد عادوا يعيشون فى شبه جماعات صغيرة مستقلة احداها عن الاخرى ، يرأس كل جماعة منها « خان » صغير ! .. وماتزال سلالاتهم تجوب حتى اليوم بقاع آسيا الوسطى والغربية ، والشرق الاوسط .. وما تزال كراهيتهم لحياة الاستقرار تطبع تصرفاتهم وأخلاقهم بطابعها التقليدى الى يومنا الحاضر، دون ان يطرأ عليها اى نقص او تغيير !

على أن ذلك « الطاعون » الذى طالما هدد حياة الآمنين من بنى الانسان فى كل مكان ، والذى تضاءل وباؤه لفترة ما ، لم تلبث جذوته أن اشتعلت فى انتفاضة أخيرة قبل أن تخبو نهائيا . وكان ذلك فى عام ١٣٦٩ ، حين تولى « تيمورلين » - سليل

جنكيز خان ـ قيادة « عصاباتهم » .. فنشر ظله الاسود الوحشى على شمال الهند ، وأفغانستان ، وتركستان ، وبلاد فارس ، والعراق ، وارمينيا ، وجزء من آسيا الصغرى .. فراح يزرع الموت والدمار أينما حل .. وفى مكان البيوت والدور الآمنة التى هدمها ، اقام اهرامات من جماجم قتلاه!.. كان قد أطلق على نفسه لقب « خان العظيم » ، العظيم فى الذبح والتقتيل ، واحراق المدن ، وافناء الاهلين ، والقسوة الجهنمية ، والمذابح الوحشية .. الخ

ولقد حاول ذلك الشيطان الرجيم أن يعيد الى الوجود مجد الامبراطورية المغولية القديمة ، لكنه فشل فى بلوغ غايته ! .. **وحين أدركته الوفاة ـ عام ١٤٠٥ ـ لم تكن قد بقيت منه ، لتدمغ فترة حكمه ، سوى ذكرى ملطخة مشئومة ، واسم محمل بابشع اللعنات ، وباوزار الفواجع التى لا حصر لها التى انزلها بضحاياه !**

وانقضى ذلك الخطر بدوره ..
وبقيت الانسانية من بعده ..
ونجت الحضارة .. مما أريد بها !

« ماركوبولو » يسبح بحمد المغول !

٣٦ ـ كنا قد تركنا الصين تحت حكم « كوبلاى » ، خليفة جنكيز خان . وفى عهده زار الرحالة المشهور « ماركوبولو » الصين ، ثم عاد الى ايطاليا ليروى أعجب القصص عن عظمة « كوبلاى خان » ، وقوته ، وأمجاده ، بحيث شك الكثيرون فى صدق اقواله ! .. والواقع انه رغم ما حققه هذا الحاكم للصين من خدمات عامة ، ورغم رعايته للادب ، وتخفيفه لضائقة الشعب .. فانه لم يظفر يوما بالحب أو الاعجاب ، ومات غير ماسوف عليه ، لان أحدا من رعاياه لم يستطع أن ينسى انه

كان فى الاصل همجيا ، بربريا !

ثم خلفه فى حكم الصين ((خانات)) آخرون ، أضعف منه انتاجا ، وأقل نفعا للشعب .. وهكذا أخذ نجم أسرة المغول فى الافول تدريجا فى اعتبار الشعب ، خلال السنوات الثلاثين التالية لوفاته . صار كل حكم يزداد اضطرابا عن سابقه ، وتزايدت بوادر التمرد والثورات ، حتى غدت أكثر خطورة وجدية ... حتى اضطر آخر الحكام المغول — وأسواهم ! — الى أن يلوذ بالفرار ، فى عام ١٣٥٥ ، كى ينجو من انتقام قائد الثوار « شو يوين شانج » ، الذى كان ينحدر من صميم الشعب ، والذى لم تصطدم قواته الزاحفة على العاصمة يومئذ بمقاومة تذكر ..

اخضاع الامبراطورية يكلفه ١٣ عاما من الكفاح !

٣٧ — ولم يكد « قاهر المغول » ينفض يده من احتلال العاصمة (نانكنج) ، حتى عكف على « اخضاع » الامبراطورية ، فلما انتهى من هذه المهمة — بعد ثلاثة عشر عاما ! — نصب نفسه أمبراطورا على الصين ، واتخذ اسم « هونج — وو » . وسرعان ما ظفر بمحبة الشعب ، بفضل عدة عوامل : أهمها اهتمامه برخاء رعاياه ، وكرمه نحو أعدائه .. فلما انتهى عهده كان المغول قد فقدوا كل انتصاراتهم القديمة ، وآن لاسرة مالكة صينية جديدة — هى اسرة « مينج » المشهورة — أن تتسلم مقاليد الامور .. فعلى أثر وفاة الامبراطور السابق ، فى عام ١٣٩٨ ، نشب — كالعادة — صراع بين المتنافسين على العرش ، انتهى فى عام ١٤٠٣ بتفوق المدعو ((يونج لو)) ، الذى نجح فى شق طريقه الى حيث ألقيت على كتفيه العباءة الامبراطورية الصفراء ، التى تعتبر فى الصين رمز السلطة والصولجان !

فى ذلك العصر كانت تتنازع الصين ديانتان ، هما «البوذية»

و « التاوية » ، فلما تولى الامبراطور الجديد مقاليد الامور ، وكان يعتنق ثانيتهما ، ارتفعت أسهم الديانة « التاوية » فى الدولة ، على حساب « البوذية » ، التى انخفضت أسهمها وعانت شيئا من الاضطهاد ..

اليابان تطل برأسها .. و « نلسون » الصين يهزمها !

٣٨ ــ وتلت ذلك مائة عام ساد خلالها السلام ، والحكم الصالح من جانب الاباطرة .. لكن حربا أهلية لم تلبث أن أنهت تلك الحقبة السعيدة ، بل وجرت على البلاد كوارث أخرى ، اذ شجعت بلدا مجاورا على أن ينتهز الفرصة التى ظنها مواتية فيبذل محاولة لغزو الصين . **ولم يكن ذلك البلد المجاور سوى .. اليابان ! .. ففى عام ١٥٤٢ ظهر أسطول يابانى يحوم عند الشاطىء ! لكن تلك المحاولة باءت بالفشل .. فلم يكررها اليابانيون الا بعد خمسين عاما ، حين غزوا اقليم (كوريا) ــ فى عام ١٥٩٢ ــ واجتاحوه اجتياحا مدمرا .** وبينما كان أمبراطور اليابان على وشك المناداة بنفسه أمبراطورا « للمستعمرة » الجديدة ، انزل المدافعون عن كوريا باليابانيين هزيمة بحرية ساحقة ، وفرضوا عليهم حصارا ساحليا مريرا ، اضطرهم الى التسليم ، لانقاذ انفسهم من الموت جوعا . وقد فقدت اليابان فى تلك المعركة ربع مليون مقاتل ، مابين قتيل وأسير . وكان ذلك النصر بفضل عبقرية أعظم بحار مقاتل عرفه الشرق ، وهو « يي سون سين » ، الذى يعتبره المؤرخون اليوم « نلسون » الشرق الاقصى .. فقد حول سفينة خشبية عادية الى سفينة حربية مصفحة ، بأن كسا جوانبها بصفائح من الحديد ، وأدخل على معداتها تعديلات « جهنمية » أدت الى اغراق كل سفينة يابانية كانت تقترب منها !

وفى العدد القادم نختتم باذن الله حديثنا عن حضارة الصين .. تمهيدا لزيارة مدنها الكبرى ، على التوالى ..

قنبلة الموسم الأدبي!
مطبوعات كتابي
تفاجئك، بعد أيام، بأروع وأقوى أعدادها..
وأضخم مشروع أقدمت عليه حتى اليوم.. إذ تنقل إليك
عن الأصل اليوناني مباشرة - لأول مرة -
الترجمة الكاملة الأمينة للتراث الثقافي الجبار
الإلياذة!
ملحمة "هوميروس" الخالدة
التي يجب أن يفخر باقتنائها كل بيت
عدد خاص فوق العادة - الثمن ١٢ قرشا

قصة مصرية

بقلم

محمد بدر الدين خليل

- المال ؟ ! .. اوه يا صديقى ! .. انك لا تفهمنى ! .. ان لدي من المال ما يجعلنى أزهد فى مزيد . ولكن .. انك تغضبنى اذ تظن اننى أطلب - ثمنا لحبى - ذلك المال الذى تعتز به !

- واذن ، فماذا تتقاضين ثمنا لحبك ؟ .. او لا يدفعون لك نقودا ؟

- مالك واياهم ؟ .. انك لست كغيرك .. ان الثمن الذى اطلبه منك فادح ، عسير عليك أداؤه !

- واهمة ! .. لن يعجزنى شىء فى سبيل ساعة اقضيها معك فى غيبوبة لن نود ان نفيق منها .. ساعة نغيب فيها عن هذا العالم ، ليحملنا ملاك الحب الطيب ، على اجنحته الرقيقة ، الى جنة من الأحلام والمنى !

- هل افهم من هذا ، انك مستعد للتضحية ؟

- وأية تضحية ! .. اذكرى الثمن ، اقدمه لك مهما يكلفنى !

- ليس ثمة غير ثمن واحد لن ارضى عنه بديلا

- اذكريه ، فقد نفد منى الصبر !

- حسنا .. اذا شئت ان اكون لك ، فلا بد من ان تكون لى .. ان تكون لى تماما ، بكل كيانك ، ووجودك ، ومشاعرك

قال فى حرارة ولهفة : ((**أو لست لك الآن ؟ !**))

- لن يكفينى هذا .. انه لا يرضى الرغبة الجامحة التى تطغى فى أعماقى .. اريدك على ان تكون ملكى بكل ما للكلمة من معنى .. تعيش من اجلى ، ولا تفكر فى غيرى ، ولا تعرف فى الحياة سواى ! .. اريدك على ان تقتطع نفسك من العالم ، لتعيش فى دنياى أنا .. الدنيا التى انسجها لك من عاطفة لن ينعم بها مخلوق فى الكون سواك

ـ الا تريننى اقتطع نفسى من اجلك الآن ؟

ـ بل اريد ان يكون هذا دائما .. والى نهاية العمر ! .. لن يرضينى سوى ان تنسى العـالم بكل معـانى النسيان .. تنساه بكل معالمه ، وتنساه بكل أهله ، وتنساه بكل الروابط والعلاقات التى تربطك بهؤلاء الأهل وبتلك المعالم !

وبهت لقولها .. والجمت الحيرة عقله ، فوجد عنـاء فى ان يفقه قولها .. واخيرا ، انفجر : « مجنـونة انت !.. ما هـذا الذى ترسمين ؟.. انه جبروت .. تعسف !» .. فهزت كتفيها ، وقالت : « ان الجبروت والتعسف لا يكونان الا حيث يوجد القسر والاجبار .. وانا لا اجبرك على شىء ! »

ـ بل تجبريننى .. بجمالك الذى سلبنى كل ارادة

ـ اذا كنت تشتهيه ، فقد عرفت الطريق للظفر به ..اننى اطلب من سواك نقودا وهدايا ، أما انت ، فلست اطلب منك سوى .. نفسك !.. لاننى .. احبك !

واستبدت الحيرة والانفعـالات بالشـاب ، بينمـا ازدادت الراقصة الفاتنة « سميرة رفعت » اضطجاعا فى جلستها التى كانت أقرب الى الاستلقاء .. وانسبلت جفنيها على عينيها ، بينما اخذ الشاب يحدجها بنظرات عجيبة ، اختلط فيها الوله والاشتهاء ، بالغيظ والتمرد ، بالحيرة والتشتت ، بالاستعداد للين والرضوخ !.. أمواج متلاطمة من الانفعالات !

كان قد رآها للمرة الاولى منذ اسابيع ،فسباه منها جمالها ورشاقتها .. والقت عليه شباكا من سحرها قيـدته بقيود قاسية لم تلبث ان اخذت تتمكن منه ـ كلما حاول منها افلاتاـ حتى دفعته الى أن يسعى الى التقرب منها !

ومهدت له السبيل مكانته كأحد الشبان ذوى الثروةوالجاه بين ابناء الطبقةالراقية ، فوفق الى انيجلس اليها مرة ـ تلتها مرات ـ يتشـاطران بعض كؤوس الشراب ، التى كان الزبد الاشقر ينحدر منها ، فيروى شجرة علاقاتهمـا حتى تنمـو

وتترعرع .. ولكن الزبد الأشقر فجر عيونا عاتية ،لم تلبث ا
غدت تيارا جائحا ، أخذ يجرف الوجيه الشاب «عثمان رفقى
عبر كل الحواجز والسدود .. وأوشك ان ينسى زوجته
وطفله ، ليسلم الى الساحرة قياد قلبه المفعم بحرارة الشباب
ومشاعره الملتهبة .

وراح السبيل يدفعه قدما يوما بعد آخر ، ومضى الشيطان
يراوده ويزخرف له الايحاء الفاسد ، لكى يملك زمامه.. فكا
يثير فى أعماقه عواطف خفية متقدة .. عواطف سوء تدفع بالر
الى ان يلقى بنفسه فى أحضان المرأة لعله يجد من فيض عاطفت
ما يطفىء تلك النيران التى راحت تلهب جوانب قلبه، وترسل
لسعات ألسنتها الى حنايا الصدر من جسده الفتى .. ولكن
عثمان راح يقاوم ويقاوم ، وهو يذكر واجبه كزوج ، ويستمد
من رابطة الأبوة ـ التى تفيض بها نفسه ـ عونا يشد ازره
كفاحه . بيد أن معاول الشيطان كانت صلبة قوية ، تنزل
عنف وشدة فتدك حصون المقاومة وتهدم قلاع القوة منه !

حاول ان لا يراها .. ان يبتعد عن طريقها حتى لا يتعرض
لاغرائها . ولكن صورتها كانت تلوح له فى كل صحيفة يقرأها،
كل مجلة تقع عليها عيناه ، فتذكى شعلة اللهب .. ولا يلبث
ان يجد نفسه بالرغم منه منساقا نحو « الصالة » التى تعمل
ضمن راقصاتها !

حاول ان يوحي الى نفسه بازدرائها ، وان يقنع العاطفة
الجامحة بان الفتاة عابثة تلهو بالقلوب ، ولا تحفل بغير المال
.. ولكن الشيطان راح يهمس فى اذنيه اناشيد تصهر القلب
وتذيب الارادة ، وتسلمه الى اغفاءة عذبة ، يتلاشى خلالها من
اذنيه صوت العقل !

آية مفاتن تلك التى كانت تتبدى له فى تقاطيع جسم
وهى تتلوى على خشبة المسرح ، تكاد تنطلق صارخة بنداء
الغواية .. كانت جميلة ، رشيقة القوام ، ذات عينين ترسلان

اشعة كلها سحر ، وكلها جاذبية ، ما ان تصل الى القلب حتى توقظ فى الاعماق رغبة تجعله يتـوق الى ان يطـوق خصرها باحدى ذراعيه ، ويغطى عينيها براحة يد الذراع الاخرى ، حتى يأمن سحر سهامهما .. لقد ذهب فى ضعفه واستخذائه الى درجة ان قنع من التمنى بان يقبع عند قدميها ، ليقضى العمر رافعا عينيه متطلعا اليها ، كسادن مخلص يركع عند قدمى صنمه المعبود — فى أحد المعابد الوثنية — يسبح بحمده وآلائه ويحرق البخور ليتصاعد دخانه حاملا شذى عاطرا تخالطه رائحة الروح التى تحترق تفانيا فى العبادة !

وحاول ان ينثر النقود فى طريقها كى يبهر نظرها، ويسترعى منها الانتباه ولكن .. المرة الاولى عجز المال عن ان ينيله مأربا يصبو اليه . وركلت الغانية المال ، لانها كانت تطمع فيه هو .. لا ليكون حبيبا ، وانما .. ليكون عبدا رقيقا !

* * *

ومد يده يحاول ان يمسك بذراعها ، فتـراجعت فى تمنع ودلال، واذا بها تصطدم بالاريكة خلفها ، فتهـالكت عليهـا فى حركة اثارت عواطفه ، فخيل اليه ان يرتمى عند قدميها قانعا بأن يتحسس جلدهما الرقيق البض ، بينمـا كانت الغانيـة ترقب — خلسـة — ما يتوالى على أسارير وجهه من صور وانفعالات . وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة انتصار ..

ثم تحولت اليه ، وكانها لم تنتبه لنظراته التى كانت تغمر

جسمها فى اشتهاء ورغبة الا اذ ذاك فقط ، فاسرعت تصلح من ثوبها ، وتسدله على فخذيها فى خجل زائف ، وغضب مصطنع ، وهى تقول : « وقح ! .. الا تستحيى من اختلاس النظر الى جسمى فى غفلة منى ؟ .. »

ــ ومتى يا حبيبة كان جسمك كعبة محرمة ترتد عنها الابصار خاشعة ؟!

وغاظها ان يكلمها بهذه اللهجة ، وكانه يحتقرها ، فشرعت تقسو عليه :

ــ أوه اتظننى آبه للهجتك؟.. فليكن جسمى موطأ لكل فرد مهما حقر شانه ، ولكنك ــ مع ذلك ــ لن تناله مهما تدفع !

وتحركت كبرياؤه بعد طول نوم،فنفضت عنها التكاسل.. كانت الفتاة تتحدى بجمالها كبرياءه ورجولته !.. لقد غرها الحاحه من أجل ساعة هنيئة يقضيها فى احضانها !.. لخير له ان يبدى الجفاء حتى يدب الى نفسها الخوف من ان يفلت من شباكها ، فتسعى ثانية الى ارضائه .. ان المراة يغرها التهافت عليها ، ويذلها الاهمال !

ــ ماذا ؟!.. وهل تظنين ان العاطفة قد بلغت بى الحد الذى اسمح لك فيه بان تلوعينى بالحرمان ؟.. لشد ما تغترين بهذا الجسد الفانى !... لخير لى ان أدعه لأولئك الحقراء الذين تفخرين بأنك تنيلينهم من نفسك اكثر مما تنيليننى !.

ــ مغرور ! .. لا تحاول عبثا ان تبدى عدم اكتراثك ، فانا اعلم انك اسيرى !

ــ كذبت !.. فمن انت حتى تخالى لنفسك السيطرة على ؟.. اننى استطيع بمالى أن اشتريك !

ــ مرة اخرى تخطىء الظن يا صاحبى .. قد يستطيع هذا غيرك ، ولو كان هذا الغير اقل منك مالا وثروة .. لقد تمتع بى الكثيرون ــ ولعل بينهم خدما لك ــ فضموا هذا الجسد عاريا، واطفاوا جذوة نار فى أوصالهم ، لقاء دراهم معدودات . اما

انت ... فستظل محروما ، مهما تقدم !

وصمتت برهة ، وقد راح صدرها يعلو وينخفض فى ثورة مكتومة ، ثم قالت تغيظه : « لشد مايسرنى انإراك محروما ، تنظر الى الثمرة التى منعت عنك ، وعينـاك تنطقـان بالذلة والاشتهاء !.. لكم يثير هذا فى نفسى انفعالات شتى من الكبرياء والاعتداد .. اننى أعرف سر جمالى !»

وثارت الدماء فى شرايينه غاضبة ، اذ غاظه ان تتحداه فتاة من فتيات الهوى ، فقبض على ذراعها فى قسوة ، كما لو كان يهم بضربها انتقاما لكرامته المجروحة . بيد انها انتزعت ذراعها فى عنف وصاحت تذكى جذوة غيظه :

ـ دعنى ، فلن تستطيع بقوتك أن ترهبنى .. انك لن ترفع يدك ، لأنك ضـعيف .. ما دمت تشتهينى ، فلن تجرؤ على أن تقسو على !

والقت نظرة فيها دلال مثير ثم قالت : « لا تحاول الانكار!»

وتكسرت سورة الغضب ، تحت لفحات الاثارة المدلله .. وعاد الشوق يتقد . ومن جديد راحت العاطفة الشريرة تلذعه بالسنة حامية ، وهو لا يستطيع حراكا .. فقد اثقلته قيود الشيطان ! ..

وقال فى ضراعة : « **الا نتفاهم ؟ !** »

فقالت متضاحكة فى سخرية : « لا مساومة ، فالثمن عندى محدد .. اننى لا اضطرك على امر أنت فى حرية من قبوله او رفضه .. فكر يا فتاى فى روية وهدوء ، فاذا رايت حبى أهلا لأن تضحى من أجله ، فتعال !.. ولسوف تجدنى فى انتظارك .. واذ ذاك ..! »

وتوقفت لحظة ، وقد تهدج صوتها ، وراح صدرها يعـلو ويهبط فى انفعال ، كموجة قطعت اميالا فى طريقها من شاطىء الى آخر ، فى محيط واسع . ثم رجعت تقول :

— .. واذ ذاك ، فسوف أكون لك بكلى انا الاخرى ، وساعوضك عمن تضحى بهم من أجلى .. ساغمرك بحنانى ، وسأكشف لك عن كل فتنتى ، فأريك من الوان الحب وصور الغرام ، ما لم يواتك يوما فى منام !

ولم يجب المسكين اذ كان نهبا لصراع هائل مروع ، بين كل ما كان نقيا وساميا فى قلبه يوما ، والعواطف المفتونة التى اعمتها الشهوة ، وملكها الجنون .

ووقف الشيطان عن كثب ، يرقب المعركة ، وقد اعد القيود القاسية ، ليكبل بها الفتى فى الوقت المناسب ، فيكسب سجينا جديدا لن يلبث ان يروضه فيجعله عبدا من المتهجدين فى محرابه !

* * *

وتحول الرجل — اخيرا — ثم انصرف وهو واجم ، مشتت الحواس لا يستطيع ملاحقة الاسئلة التى تدفقت فى راسه كسيل طال احتباسه !

اى غموض هذا الذى اكتنف تلك الغانية ؟ ! .. غموض استعصى على كل ما أوتى الشاب الحائر من ذكاء ومواهب !

وهى ؟! .. لكم غمرها الأسى بعد انصرافه !

لقد كانت تحبه ، فى الواقع .. لا حبا عابرا ، كذلك الذى اعتادت ان تغدقه على الرجال ، وانما .. حب قوى مستبد ، من نوع لا قبل لها به .. حب المرأة التى تنشد رجلا فيه من الاين ما يجعلها تسخره لارضاء نزوات انوثتها المدلله ، وفيه من الفحولة ما يجعله أهلا لان يسيطر على جسدها ويستبد به .. كانت تريد عبدا وسيدا فى آن واحد .. لقد سئمت ان تكون وسادة لكل الرجال ، يستأجرونها بالمال ، وأصبحت تتوق الى ان يكون لها رجلها .. رجل اصطفته لرجولته ، وليس لماله !

ولقد وجدت فى « عثمان رفقى » هذا الرجل ، ولكن ..

ولكنها اهتدت اليه فى الوقت الذى كانت كرامتها قد استيقظت فيه ، وهبت تريد ان تنتقم للذلة الطويلة والهوان المزرى ! .. ومن ثم فقد لذ لها ان تطلق لانانيتها العنان ، فتسعى الى ان يكون الرجل لها وحدها .. وان تذيقه صنوف اللوعة والضنى ، قبل ان تسلمه نفسها وتسعد به !

هكذا كان حبها . . انانية عمياء ، واثرة عنيدة لا تلين !

* * *

ومضت ايام لم تر فيها صاحبها ، فبرح بها الوجد الذى كانت تجهد فى تكتمه ..

اما هو ، فقد راح — خلال تلك الأيام — يقاوم ، ويقاوم .. ثم فترت قواه ، وتداعت عزيمته ، فلم يبق له غير الاستسلام !

واستقبلته « سميرة » وقد انبعثت من اعماقها ابتسامة اضاءت محياها ، وان جاهدت كى تمحو من ضوئها وميض الشماتة .. شماتة المنتصر .. وساءلته فى عتب رقيق : « ترى اية فرصة سعيدة تلك التى حملتك على ان تذكرنى ، فتولينى شرف الزيارة ؟! »

فاجاب فى وجوم المغلوب على امره : « لقد قبلت ما طلبت ! »

ولم تك فى حاجة الى ان يعلن اليها القبول ، فقد ادركت عيناها — عينا حواء اللتان لاتخطئان قراءة قلب آدم — ادركت لأول نظرة القتها عليه ، ان حليفها الشيطان قد فرض سلطانه على قلب الوجيه الشاب فصاحت : « يا فتاى الحبيب .. لقد كنت واثقة ! »

وطوقت بذراعيها عنقه ، وطبعت على ثغره قبلة سرت فى جسده حرارتها ، فبعثت فيه الاشتهاء المكبوت .. واقتادته الى حجرة قصية من المنزل ، بدت لعينى الشاب كما لو كانت معدة لتكون معبدا للغرام .. فقد حمله جوها — فجاة — الى عالم آخر زاخر بالعواطف ، فراح قلبه يخفق فى دقات متوالية ،

عنيفة .. حتى اذا عادت ـ وكانت قد تركته لنفسه برهة ـ وفى اثرها زجاجات الشراب وكؤوسه ، زاغت نظراته وتولاه ذهول . اذ ابدتها الغلالة الرقيقة ـ التى استبدلت بها ملابسها ـ وكأنها حورية من عالم الأساطير ، تتوهج مفاتن جسدها ، فتشعل النار فى قلب الشاب ، وفى جسمه ، و .. فى كل شىء !

وجلست بجواره وراحا يشربان ، وقد سادهما جو حالم ، وان لم يتغلب الشاب سريعاً على الاضطراب الذى كان يسرى فى جوانحه ، فمضى يرقبها صامتا وهو لا يأتى امرا ..

كان جسدها يرتعش فى رغبة جارفة ، وهى تسرف فى الشراب دون حساب ، وكأنما بلغ الجنون بها مبلغه ، وان لم تك هى نفسها تدرى : أكان جنون الانتصار ام كان جنون العاطفة المستعرة بين جوانحها ؟ ! .. كانت تحبه حقا ، ولكم ودت ـ من قبل ـ أن تهبه نفسها ، ولكنها كانت قد ضجرت اكاذيب الشهوات ، وسئمت الساعات المتعاقبة المتشابهة الجو ، والحياة الرتيبة التى اعتادت فيها ان تبذل نفسها لكل راغب .. وودت ـ وقد عثرت على رجلها الذى كانت تحلم به ـ لو يملأ هذا الرجل حياتها بالمخاطرات والتضحية ، وان يطغى غرامه بها على كل شىء ، فيدفع لها الثمن الذى كان يعذبه وينهك فكره .. تمنت لو انها تراه يتعذب ويضحى من اجلها ! .. وها هو ذا قد تعذب وضحى .. ضحى بأعز من له فى الوجود ! .. بزوجته وابنه !

وهاهى ذى قد اشبعت الرغبة الشديدة ، فى أن تراه يفعل كل هذا من اجلها ..

وشربت وسقته .. ونفد الشراب ، فطلبا مزيدا ، حتى ثملا .. وعاد الحب الذى كان يكمن فى قلبها يشتعل على لهب الشهوة المستعرة فى اعماقها ، فراحت تداعب فتاها ، تارة ، وتترامى على قدميه ترفع اليه صلاتها طورا .. صلاة الحب المشبوب الأوار .. ثم تعانقه عناقا لذيذا ساحرا .. وهو مأخوذ مفتون ، وهى ترتل على مسامعه آيات غرامها وتسكب

فى اذنيه رحيقا من احلى نتاج الحب .. وتهديه روحها البكر التى كانت تخفيها فى غلاف صلب من شغاف قلبها كى لا يدنسها الوسط الذى كانت تحيا فيه !

وتفانت فيه ، وتفانى هو فى خدمة الشيطان !

ومرت الايام والسعادة تطفى عليه وعليها .. كان يستهويهما ذلك الجو الذى راحا يعيشان فيه ، فى منأى عن العالم ، لاهيين عن كل شىء !

* * *

وتركت سميرة عملها فى الصالة ، كما ترك عثمان زوجته وابنه ، فراح كل يحيا للآخر ، لا يشعر لغيره بوجود ، ولا يرضى عنه بديلا .. جو من الهناءة العذبة ما كان احدهما ليحلم به يوما ، من قبل . ولكنها كانت تكن له أكثر مما يكن لها ، فقد احبت فيه الروح والجسد معا ، فكانت تشعر بالسعادة ، تحملها امواجها فى رفق ودعة ، حين تفكر فى كم هو جميل محبوب ذلك الرجل الذى نبذ زوجه وولده ودنياه وفضلها على العالمين!

أما هو فكان يحب الجسد فقط .. لذلك فقد ظلت ثمة بقية من الروح متشبثة بسلطانها ، تفرضه احيانا فتبعث فى أعماق الرجل نداء شاكيا ، فتغيم عليه سحابة من الألم ، اذ يذكره نداء الروح بالزوجة التى كانت تتفانى فى اسعاده ، والابن الذى كان بمثابة اشراقة القدر فى يوم مكفهر مظلم ! وتعود ان يصم اذنيه كلما سمع نداء الروح ، ليغرق نفسه فى سيل من الشراب ، ثم ليدفن نفسه فى احضان عاشقته الفاتنة ، فينسى كل شىء ، ويطرد كل ذكرى !

وتوالت الايام وهما فى حياتهما الحالمة العابثة ، عبدان للشيطان ، يتفانيان فى رفع فروض الطاعة والولاء الى اعتاب عرشه القائم فى اعماق عالم الظلام .. فيرضى عنهما ، ويسبغ عليهما من عطفه ما ينسيهما تنغيص الضمير وفورة الذكريات

.. ويتجلى اهما من وراء اعرافه ، ليلقى اليهمـا بتشجيعه ، كى يواصلا السعى حتى يصلا اليه، فيخلدهما فى الجحيم الذى أعده لعباده وزينه لهم أشهى من النعيم !

ولكن «عثمان» لم يلبث أن أشبع عواطفه، وروى ظمأشهوته، وأطفأ جذوة تلك النيران التى كانت تتقد فى اعماقه .. فماذا بقى من رغباته ؟! .. لقد نال ما كان يصبوا اليه ، فبدأ شعور من الملل والسأم يساوره كلما انفرد بنفسه ، وفاتنته فى غيبة قصيرة عنـه !

اما هى ، فانها لم تكن قد ظفرت بعد بما كانت ترجوه منه .. لم تحظ بالحب الذى كانت اليه تصبو وتتوق !

ولم يخف عليها ذلك الشعور الذى كان يتسلل الى حبيبها ويوشك ان يستولى عليه .. فخشيت ان يفلت الحبيب من يدها ، ومن ثم فقد حاولت ان تشدد من قبضتها عليه ، وهى مشفقة على نفسها .. وكأنها كانت غريقا امسك بعود رأى فيه أملا يحمله الى شاطىء النجاة ، فهو يخشى ان يفلت منه العود فلا يستطيع له استرجاعا !

وخيل الى «عثمان» انه سأم حقيقى ذلك الذى اخذ يعتريه ويتملكه .. وتناوبه حنين الى زوجته وابنه ، فراح يحلم بهما على الرغم منه ، وأخذ فكره يتجه اليهما فى كثير من الاحيان دون ارادة ودون وعى !

عاد خيال الزوجة يداعبه .. ترى ما مدى جزعها لهذا الغياب منه ؟.. وما الذى داخل نفسها ازاء تحوله ؟.. قط ماحاولت المسكينة ان تحتج لهـذا الهجر منه كلما حدثها فى (التليفون) ليطمئن على دورة عجلة الحياة فى بيته .. وقط لم تطلب المزيد من الايضاح ، عندما كانت تسأله – فى هذه الأحاديث التليفونية – عن سر غيابه ، أو عن مقره ، فيروغ من الاجابة .. لشد ما هى وفية هذه الزوجة ، ولشد ما بدأت ثقتها فيـه تعذب نفسه ، وتثير الضمير الذى طال رقاده !

وابنه ؟ ! .. لقد كانت الدموع تطفر من عينيه كلما ذكر الصغير الذى كان يملأ عليه الحياة بهجة وحبورا ، فيكتسحه شعور من الحزن الأليم ، وهو يتصوره باكى العينين دامعهما .. يسال والدته اين ذهب ابوه ؟ !

* * *

وجاءت ليلة اعتراه فيها الأرق ، وتخلى عنه النوم ، ليسلمه الى بحر ثائر من الافكار .. وتراءى له الطفل المسكين ـ ابنه ـ يبكي ويطلبه .. وتراءت له الزوجة البائسة ـ زوجته ـ تطمئن الطفل باعذار تعلم انها أوهى من نسيج العنكبوت ، ثم تصطنع ابتسامة تظهرها فى مظهر المرحة ، وتغصب نفسها على مداعبته .. وتغنى له ، حتى اذا ما حمله صوتها الحنون الى سنة من النوم الهادىء ، وقفت بجوار فراشه ترنو اليه فى عطف . ثم تطغى عليها نوبة من الاسى اذ تذكر اباه الذى هجره وهجرها معه ، فتغرورق عيناها ، ولا تلبث الدموع ان تشق اخاديد على وجنتيها .. وترفع راسها الى السماء ، فتبدو غصة تعترض حلقها الذى شف عنه عنق بض جميل .. ويتزايد سيل الدموع ويشتد فيضانه ، وهى تدعو الله وتناديه هو .. « عثمان » .. الزوج الغادر !

وعاش « عثمان » مع خياله ساعة ، موزع البال ، مقطع نياط القلب ، وقد اعتراه الحلم القاسى الحزين .. حتى اذا افاق الى نفسه ، تلفت حوله ، فاذا سميرة بجواره غارقة فى نوم عميق ، وقد راح صدرها الجميل المغرى يتهدج فى تعاقب ، كأنه قافية رائعة من الشعر الجزل الحنون !

وعاد يفكر فى حاله ، فلم يفطن الى نفسه الا وقد بدأ الظلام ينحسر ، ليكشف عن النهار المقبل .. وهنا استقر « عثمان » على قرار اخير ! ..

وفى سكون ـ خشية ان تستيقظ سميرة ـ انسل من

الفراش ، وارتدى ملابسه ، ثم .. غادر المنزل خلسة ، وهو حذر خائف يتلفت . واتخذ طريقه صوب بيته !

وقوبل بعاصفة من الدهشة والحنان ، واللوعة والبكاء ، تخالطها عوامل أخرى مضطربة ، خلفها غيابه الطويل .. وانهالت عليه الاسئلة : اين كان ، وكيف و..و.. ؟.. ولكنه لم يجب ، بل اسرع الى حجرته ، مدعيا المرض . وهناك .. استلقى على فراشه يسعى وراء النوم وهدوء البال . ولكنه سرعان ما وجد فيض الافكار يغمره ، فاستسلم له — وهو يغمض عينيه متظاهرا بالنوم ، كلما احس بزوجته تدخل الغرفة ثم تنحنى عليه فى حنو ، وكأنها تريد ان تستوثق من انه هو .. هو بعينه .. عثمان ، زوجها ! .. ووخزه الفارق بين هذا الوفاء الذى كان يلقاه من زوجته ، وبين ذلك الجحود ، الذى تمثل فى انصرافه الى التفكير فى المرأة الاخرى .. الغاوية!

وازعجه ان شعر بانه لم يتحرر بعد من قيود الشيطان ، ولم يستطع ان يتناسى الراقصة العابثة التى استطاعت ان تملك زمامه . عبثا حاول أن يطرد ذكراها ، وان ينهر الشيطان وهو يهمس فى اذنه ، فان كل محاولة لم تكن تزيد الذكريات الا اقبالا ولم تكن تزيد الشيطان الا الحاحا ودأبا على وسوسته!

وطرأت على ذهنه فكرة خيل اليه انه يجد فيها دِواء :

وفى اليوم التالى طلب الى زوجته وابنه ان يستعدا ليصحبهما الى (الفيلا) القابعة فى طرف الصحراء ، قريبا من البحر — حيث اعتادوا ان يقضوا الصيف من كل عام — عسى ان يجد هناك راحة لأعصابه المرهقة ! .. ودلف القطار البطىء ، الذى انساب بهم بين تلك الكثبان الرملية فى الصحراء ، الى المحطة الصغيرة الجاثمة فى الخلاء ، وقد ارخى عليها الليل سدوله ، فلم يقو المصباح الزيتى الضئيل — المعلق امام بنائها — على مغالبة سوادها !

وهبطت الاسرة الصغيرة من القطار ، فتلقاها الحارس الذى

يقوم على حراسة المسكن الصحراوى، فحمل الحقائب .. وسار يتبع الزوجين والطفل ، وقد أدهشه صمت واجم سيطر على الافراد الثلاثة ، الذين لم يعهدهم الا مرحين ابدا . ولكنه آثر الصمت مثلهم، وراح يشاطرهم وجومهم !

* * *

وبدد شمل السكون ـ الذى سيطر على ليل الصحراء ـ نداء الخفراء ينبه كل منهم الآخرين الى انتصاف الليل . وراح « عثمان » يتقلب فى فراشه وقد نأى عنه الكرى .. حتى اذا أعياه التحايل ، غادر الفراش ، فالقى على كتفيه رداء خفيفا ، وخرج الى (الفيراندا) فاتخذ لنفسه فيها مجلسا ، ثم استسلم للمشاعر التى كانت تثور متضاربة فى اعماقه !

وشاءت الطبيعة ان تشاطره اساه فساد الصحراء سكون موحش وصمت رهيب ، ولم تلبث ان هبت ريح الخريف ، فأثارت الرمال الراقدة ، وراحت تصفع بها النخيلات ـ التى كانت تقوم فى حديقة « الفيلا » كأشباح حارسة ـ وكأنها تنبهها الى بؤس الساكن الذى ما عهدته الا ضاحكا سعيدا ، لايعرف لهموم الحياة مذاقا ، ولا تعرف الهموم الى قلبه منفذا !

وتنبهت النخيلات فتقاربت سعفاتها فى حفيف ، وكأنها كانت تتهامس فيما بينها ، تتساءل عن سبب أسى السيد الحبيب .. ثم لم تلبث ان مالت نحوه ، وكأنها تحنو عليه مشفقة تواسيه .. اما هو ، فكان راسه قد سقط على صدره فى اعياء ، وقد ارهقه التفكير ، وترفق به النعاس فراح فى سبات عميق !!..

الخالدات

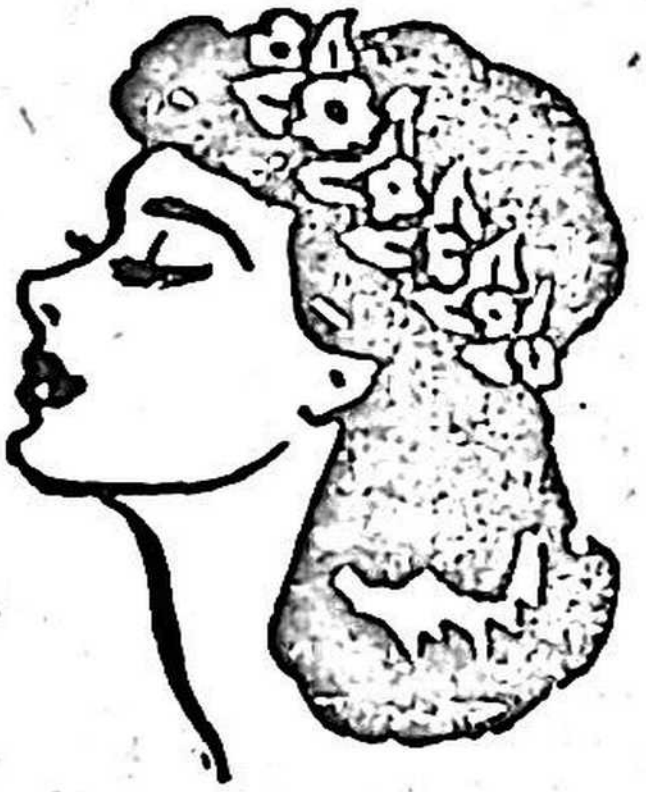

شهيرات النساء

عزيزى القارىء ..

فى أعداد سـابقة قدمنا لك فى هذا الباب من قصص حياة شهيرات النساء ، هذه السير :

- فلورنس نايتنجيل
- مدام كورى
- ساره برنار
- بيرينيس
- كليوباترا
- مدام دى ديفان ، وجوليا دى لسبيناس
- كريستين .. ملكة السويد
- راشيل
- مارى باشكرتسيف
- كاترين مانسفيلد
- كاترين .. الكبرى
- رابعة العدوية
- سوسان أنتونى
- أسباسيا

واليـوم نقـدم لك احب زوجات رسول الله الى قلبه .. السيدة عائشة

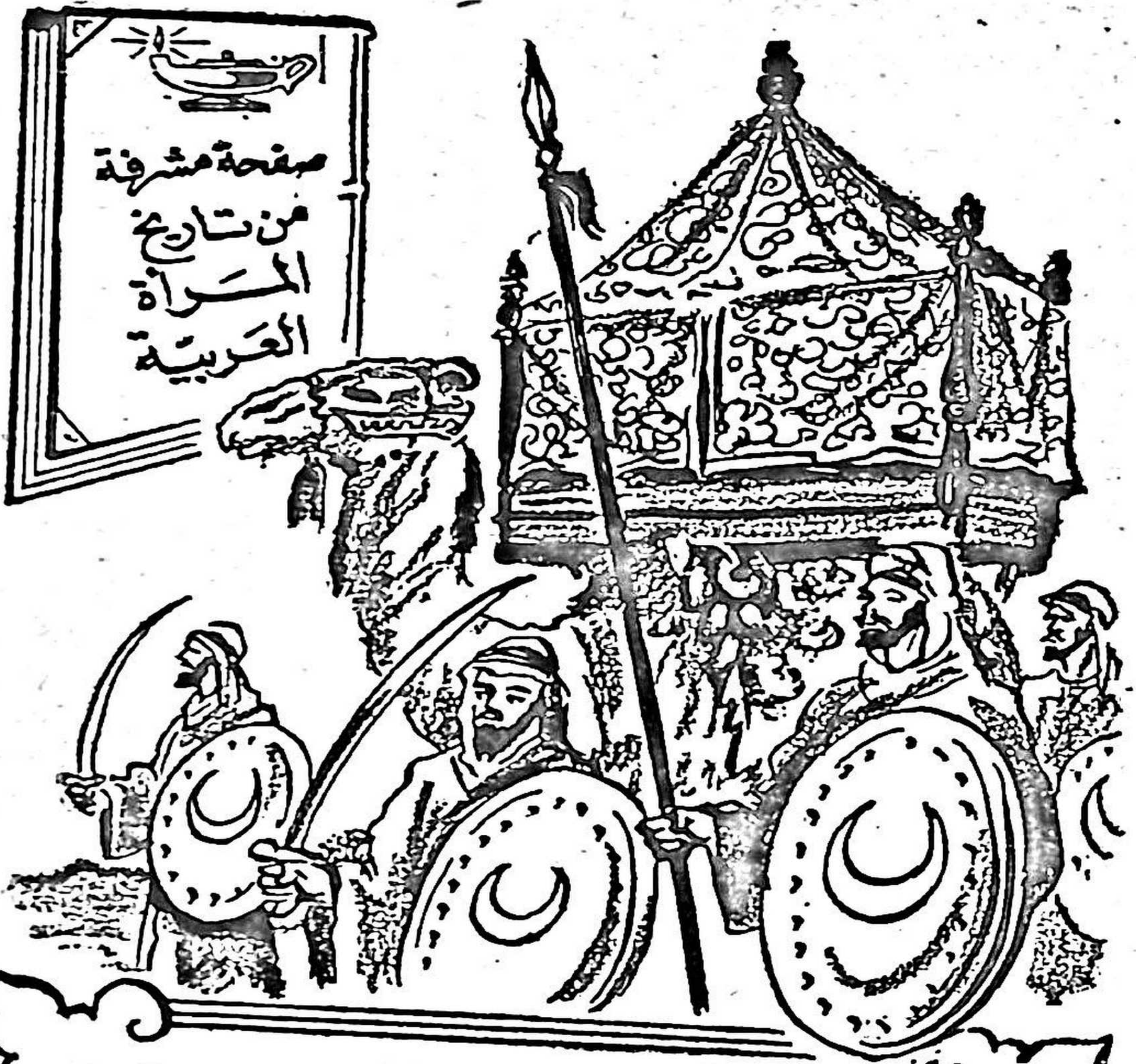

عائشة!

المثل الأعلى للمرأة فى جهادها فى ميادين
العلم والسياسة والحرب!

صورة صادقة .. لحياة السيدة عائشة

◆ ان المراة العربية ، وهي تتقدم اليوم بخطوات ثابتة فى ميدان الحياةالعامة، لتؤدى دورها الطبيعى كعضو عامل فى الحياة الاجتماعية وفى الحياة السياسية ، لخليقة بأن تتطلع الى مثل أعلى من عين بيئتها .. ولن تجد هذه المثل فى شخصية ما ، قدر ما تجده فى شخصية « أم المؤمنين » ، السيدة « عائشة » زوجة الرسول محمد ، صلى الله عليه وسلم ، وابنة صديقه ونجيه وخليفته ، « ابو بكر الصديق »

وقد عهد « كتابى » الى الزميل « بدر الدين » أن يرسم لك صورة صادقة للسيدة «عائشة» ،فأعد لك الصورة التالية التىاخذ خطوطها من أهم المصادر التاريخية ، وحرص خلالها على ان يحلل الاحداث والمواقف ، فى لمحات سريعة

فتعال نستمتع بالتعرف على هذه الشخصية العظيمة ، من زوايا جديدة

مداعبة لينة لجرح دقيق !

◆ اطرق النبى محمد — صلى الله عليه وسلم — والكلمات تتردد فى سمعه : « اى رسول الله ، الا تزوج ؟ » .. كانما كانت هذه الكلمات سنانا داعبت جرحا باقيا فى نفسه ، ولكنها مداعبة بعيدة عن القسوة والعنف ، بل لعلها كانت أقرب الى اللين الناعم ، الذى تستنيم تحت لمساته الأوجاع .. فلقد كان الرسول حزينا على زوجه « خديجة » .. الزوج التى كانت أول من علم بسر رسالته فناصرته وشدت من أزره ، وشجعته على تحمل ما كان يجده من عنت قومه ومن قسوتهم .. الزوج التى بنى بها وهو فى الثالثة والعشرين من عمره ، فى شرخ الصبا وريعان الفتوة وجمال الخلقة وكمال الرجولة ، فظلت شريكته الوحيدة فى الحياة ثمانية وعشرين عاما !

اجل ، كان الرسول حزينا ، يشعر بوحشة لغياب تلك الوفية الحبيبة .. وكان محزونا اذ اشتد عداء قومه وصدوفهم

عن دعوة الحق التى راح يدعوهم اليها ، فكان يتطلع الى شريكة تواسيه وتسرى عنه الأحزان ، وتخفف عنه المتاعب . ولقد لمس فيه المقربون اليه هذه الحاجة ، ولكن احدا لم يجرؤ على ان يكاشفه الأمر ، حتى ألهم الله « خولة بنت حكيم » ان تفاتحه !

خطيبة فى السابعة من عمرها

• وأقلقها طول صمت الرسول ، فعادت تقول : « أفلا تزوجت يا رسول الله ، لتسلو بعض حزنك وتؤنس وحشتك بعد خديجة ؟ » .. وفى هذه المرة سألها الرسول : «من ؟ » .. فبادرت بالجواب الذى نم عن انها فكرت طويلا ، ودبرت مطمئنة : « ان شئت بكرا .. وان شئت ثيبا ! » .

ولم يكن النبى قد بنى ببكر من قبل ، اذ كانت خديجة ارملة حين تزوج منها ، وكانت تكبره فى السن .. لذلك ، تحول يسأل خولة : « فمن البكر ؟ » ..وكان جوابها : «بنت احب الناس اليك .. عائشة بنت أبى بكر ! »

وخفق قلب الرسول لذكر « ابى بكر » ، صديقه ونجيه وحبيبه .. ولعله تمثل « عائشة » — فى تلك اللحظة — وهى بعد طفلة فى السابعة من عمرها ، تلعب مع لداتها ، فأشفق ان يتزوج طفلة .. ولكنه سرعان ما تذكر انها كانت وافية النمو ، أوتيت — على صغر سنها — سمات الأنوثة المبكرة ، حتى ان « جبير بن مطعم » كان يلح على «أبى بكر» ان يزوجه اياها . وما حال دون زواجها سوى ان « ابا بكر » تردد فى الأمر ، اذ كان « جبير » ممن أبوا دعوة الرسول الى الاسلام .

ولعل النبى رأى — اذ ذاك — ان يصبر عليها قليلا ، ريثما تستكمل نموها الى حد مقبول ، اذ تحول الى خولة متسائلا : « فمن الثيب ؟ » ..وكان جوابها : « سودة بنت زمعة ، فقد آمنت بك واتبعتك ! »

وكان كل من الاقتراحين موفقا اعظم توفيق ..

وبنى النبى بسودة بنت زمعة ، كما خطب «عائشة» وآثر ان لا يبنى بها الا بعد عامين . . وكانت قد تجاوزت السابعة حين خطبها !

أب وزوج ومعلم

• وما ان استقر بالنبى المقام فى (المدينة) ـ بعد هجرته ـ وآخى بين المهاجرين والانصار ، حتى أتم زواجه من عائشة .. وكانت قد اصبحت فتاة رقيقة ، جميلة ، تخطو دراكا من الطفولة الى الصبا ولا تزال ـ رغم نموها الذى كان يسبق سنها ـ ذات ولع باللعب والمرح . **فوجدت من الرسول بر الأب العطوف ، ورفق الزوج المحب ، حتى انه لم يأب عليها أن تدعو صويحباتها الى دارها ليلعبن معها فى غيابه ..وحتى انها كانت ترفع صوتها امامه وتجادله . فاذا نهرها ابوها ، وحاول ان يؤدبها ، رده النبى فى لطف وهو يقول : « دعها .. فليس أحب الى من تدليلها ! »**

وبين حنان الأبوة ، وحلم الزوج الرفيق ، ترعرعت عائشة وتفتح جمالها وذكاؤها ، فأقبلت تحفظ القرآن ـ وقد تعلمت القراءة دون الكتابة ـ وعكفت على التفقه فى الدين ، وحضور مجالس الرسول ، واستيعاب احاديثه ، حتى لقد بلغ عدد ما روته عنه من أحاديث ـ بعد وفاته ـ ٢٢١٠ أحاديث .. وحتى لقد كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يفتأ يقول : « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » !

وفى الوقت الذى كان محمد يقوم فيه بأشق المهام ، اذ راح يواصل نشر رسالته على أوسع نطاق ، وانهمك فى انشاء الدولة الاسلامية .. فى ذلك الوقت ، جهدت الزوجة الصبية فى اعداد نفسها لتكون خير تلميذة وشريكة، لخير استاذ وزوج، حتى غدت أهلا لأن تتولى تثقيف بنات جنسها من النساء ،

وافاضة علمها على الرجال !

غيرة زوجات النبى من عائشة

• وقدر لمحمد ان تتعدد زوجاته ، فقد كانت الدعوة الى رسالته تتطلب ان يرتبط ببعض العشائر تأليفا للقلوب .. كما ان من النساء من تزوجهن ليقيهن الحاجة ، أو ليكرمهن لقاء ما تحملن وبذلن فى سبيل ايمانهن ، أو ليضرب المثل للمؤمنين حتى يتزوجوا من كن على شاكلتهن ! ... **على أن عائشة كانت الوحيدة التى بنى بها بكرا ، وكانت اصغرهن سنا وأجدرهن بالرفق والعطف .. وكانت احبهن اليه ، لما كانت تبديه من ذكاء ، ولما حدث من ان الوحى كان يأتيه معها دونهن !**

ومع انه كان حريصا على ان يعدل بين زوجاته جميعا ، الا ان فؤاده لم يكن يملك العدل فى حبه.. وكانت ضرائرها يلاحظن ذلك ، فلا يتمالكن أن يغرن منها . وحدث أن دفع سمو الخلق « سودة بنت زمعة » الى ان تنزل لعائشة عن دورها من زيارات النبى ، اذ كان — صلى الله عليه وسلم — يخص كلا منهن بيوم وليلة ، على التوالى .. ولكن بقية الزوجات أسأن فهم هذا الايثار النبيل ، وظننه لونا من مجانبة العدل ، من الرسول . **وعصفت بهن الغيرة ، حتى لقد اوفدن اليه — صلى الله عليه وسلم — زينب بنت جحش ، وهو عند عائشة ، ذات يوم ، فشكت من انه — لحبه لعائشة — يظلمهن . واشتطت زينب فى حديثها ، فانبرت لها عائشة حتى افحمتها !**

وبلغت منازعات امهات المؤمنين — بسبب الغيرة — حدا كبيرا . ثم تآمرن مجتمعات بالنبى ، ليوسع الانفاق عليهن ، مما انتهى به الى ان ينقطع عنهن جميعا شهرا كاملا ، على ان يسرحهن سراحا جميلا، اذا هن لم يثبن الى رشادهن. واشتد قلق « أبى بكر » و « عمر بن الخطاب » وغيرهما من أصهار النبى ، لاسيما حين سرى بين المسلمين التهامس بأن النبى

قد طلق زوجاته . فلما اتم الشهر ــ فى اعتزاله هذا ــ الح عمر فى الاستئذان عليه ، وما زال به حتى سرى عنه الغضب . ثم فاتحه فيما كان يتهامس به القوم ، فأكد له النبى انه لم يطلق زوجاته. وأذن له بأن يفضى بذلك للمقيمين بالمسجد ينتظرون، فنادى فيهم عمر : « لم يطلق الرسول نساءه ! »

وكان القلق الذى داخل امهات المؤمنين خلال هذا الشهر، والندم الذى انتابهن لما سببن للنبى من ألم ، درسا ردهن الى رشادهن ، فتبن عما اغضبه منهن

الغيرة تعصف بقلب طفل !

• **واذا** كانت عائشة قد أثارت غيرة ضرائرها ، فانها ــ هى الأخرى ــ لم تكن بمنجى من الشعور بالغيرة .. وكانت اولى اللذعات التى استشعرتها منها ، هى تلك التى كانت تمضها كلما سمعت محمدا يذكر اولى زوجاته وأحبهن ــ السيدة خديجة ــ فكانت تقول : **((ما غرت من امرأة كما غرت من خديجة ، لما كنت أسمعه يذكرها !))**

وحدث ان استشعرت أم سلمة ــ هند بنت ابى امية ــ غيرة فاقت ما كان لدى غيرها من زوجات الرسول ، فحرص محمد على ان يذهب عنها هذا الشعور بالتردد عليها وبرها . وتصادف ان أبطأ عندها ذات ليلة ، فلما وافى « عائشة » ، وعلمت انه كان عندها ، لم تتمالك ان قالت : « أما تشبع من أم سلمة ؟ » .. ولم يغضب النبى ، بل ترفق بها ، فلم يزدها ترفقه الا مضيا فى عتابها ، قائلة : **((انا لست كأحد من نسائك يا رسول الله .. كل امرأة منهن كانت عند رجل، سواى))**

وضحك محمد من اعتدادها بأنها زفت اليه بكرا ، فى حين كانت زوجاته الاخريات بين ارملة ومطلقة .. بينما راحت هى تفثأ حزنها وغيرتها دموعا !

هكذا كانت عائشة برغم ذكائها وعلمها .. فقد ظلت طفلة

القلب ، فى حبها لزوجها !

((ام المؤمنين)) التى لم تنجب ولدا

• ولعل اقسى مصادر الغيرة عند عائشة ، هو ذلك المصدر الذى اتحد فيه حبها لزوجها ، بشوقها الى الولد وحسرتها على انها لم تنجب له طفلا .. واللهفة الى الأمومة من اعتى ما تعاني اية زوجة ، لا سيما اذا كانت تحب زوجها وكان هو يحبها ! .. فمـا بالك اذا كانت هذه الزوجة صغيرة السن ، وكانت بين ضرائر منهن من سبق لهـا أن انجبت من غير الرسول ، فروت عاطفة الامومة ، واستمتعت بما لها من زهو؟

وقد قـدر للنبى ان ينجب من ((مارية)) القبطية ولدا ، هو ((ابراهيم)) ، فكان فرحه به عظيما ، حتى انه كان يمـر بدارها فى كل يوم، لكى يراه ويانس بابتسامته البريئة . ودبت الغيرة فى قلوب الزوجات الأخريات ، ولكن ((عائشة)) كانت اعتاهن غيرة . وقد حدث يوما ان حمـل النبى وليـده الى عائشة ، وهو متهلل الوجـه ، فيـاض بالبشر ، فسـالها : ((انظرى يا عائشة .. اليس ابراهيم شبيها بى ؟))

ونظرت عائشة الى الطفل وهى متململة ، واجابته — فى ضيق — بان لا شبه هناك .. ولمس النبى اساها وتلهفهـا ، فلم ينكر عليها ان تبتئس لحرمانها من أعز ما تتوق اليه كل انثى ، واشفق عليها ان تقسو على نفسها ، فقال يسرى عنها: ((يا عائشة .. انت ام المؤمنين))

وكانت هذه الكنية خير هدية سرت عن عائشة ، وملأت فؤادها عزاء وسعادة ، فانصرفت الى السـعى الدائب لتجعل من نفسها أما للمؤمنين حقا .. فكانت ابر الأمهات بهم !.. كانت تروى لهم احاديث الرسول ، وتبصرهم بهديه ،وتحرر الارقاء والجوارى ما سنحت لها الفرصـة ، وتنفق ما كان

يأتيهـا من مال ـ من أرض وهبها أبوها اياها ـ فى معونة المحتـاجين

يفوتها الركب بسبب عقد !

◆ **وكأنما** اراد الله أن يبلو « عائشة » ، ليجزيها بعد ذلك أعظم جزاء .. ليثبت براءتها فى القرآن ، وليوحى الى رسوله بمبدأ قضائى فى محاسبة اصحاب التقولات والشائعات ، الذين يخوضون فى الناس بالافك !.. وبقدر ما كان الجزاء كريما ، كانت التجربة اليمة على عائشة التى لم تكن قد تجاوزت السادسة عشرة من عمرها اذ ذاك .

فلقد قدر لعائشة أن تخرج مع النبى فى غزوة بنى المصطلق .. ولحق الليل العسكر قبل ان يبلغوا (المدينة) فى عودتهم، فنزلوا مكانا قريبا منها ، ليبيتوا فيه بعض ليلتهم . وتصادف ان كانت « عائشة » قد خرجت لبعض حاجتها ، عندما اذن فى الناس بالرحيل . وكان المعتـاد ان يوضع الهودج امام خيمتها ، ثم يبتعد الرجال ريثما تنفذ الى جوفه . **فلما هم الركب بالمسير ، حملوا الهودج وشدوه الى ظهر البعير، وهم يظنونها بداخله ، لفرط ما كانت عليه من نحافة وخفة وزن!**

وكانت المصادفة الثانية ، ان افتقدت عائشة عقدا كانت تعتز به ، وهى عائدة الى المعسكر ، فارتدت ادراجها تبحث عنه . حتى اذا رجعت ، كان القوم قد ساروا وابتعدوا . فخشيت أن هى سارت ـ املا فى اللحاق بهم ـ ان تضل طريقها فى الصحراء ،ومن ثم فانها آثرت ان تلتف فى جلبابها، وان تضطجع فى مكانها ، موقنة من ان القوم لن يلبثوا ان يفتقدوها فيرجعوا بحثا عنها .

وفيما هى كذلك ، مر بها « صفوان بن المعطل السلمى » وكان قد تخلف عن الركب ، فدهش لمرآها وسألها: «ماخلفك رحمك الله؟» . ولكنها لم تجبه . فقرب بعيره، واستأخر هو،

ودعاها لركوب بعيره ، ثم انطلق يبغى اللحاق بالقوم . ولكنه لم يدركهم .

ودخل (المدينة) فى وضح النهار ، على مرأى من الناس ، وعائشة على ظهر بعيره .. وكان ممن راوها شرذمة من قالة السوء والأفاكين ، فراحوا يتهامسون عن تاخرها عن الركب، ووصولها مع صفوان - على بعيره - وهو شاب وسيم !

زوج حائر بين الشك والثقة

• ومن عجب ان حديث الأفك وجد لسانا يردده بين أهل رسول الله .. فقد كانت لزينب بنت جحش - وهى احدى زوجات الرسول - أخت نفست على عائشة حظوتها دون أختها - لدى الرسول - فانطلقت تذيع ما تهامس به الناس ، كما وجد الحديث سميعا فى على بن أبى طالب - ابن عم الرسول - وفى حسان بن ثابت ، شاعر الرسول ، والصحابى المقرب اليه .. واشتد اللغط ، وانقسم الناس فريقين ، اذ انبرى جماعة «الأوس» للدفاع عن عائشة، فكادت تحدث فتنة!

وما ان بلغت الانباء الرسول ، حتى اضطرب .. ولعله ساءل نفسه : أتخونه عائشة ؟ .. وكان له الحق ، اذ كانت صبية حسناء ، يافعة ، فى حين انه كان قد تجاوز الخامسة والخمسين .. ثم ان العقد لم يكن من القيمة بحيث تذهب فتفتقده فى جوف الليل ! .. بيد ان يقين النبى من طهر زوجته ، وثقته فى حبها اياه ، كانا قويين .. ومن ثم فقد اضنته الحيرة . ولكنه أمسك عن مصارحة عائشة ، كما أن أحدا لم يجرؤ على نقل الحديث اليها ، اذ كان قد دهمها مرض اشتد بها ، حتى أن أمها اقبلت تمرضها وتسهر عليها!

على أن عائشة احست بأن ثمة ما صرف زوجها عنها ، اذ لاحظت انه كان اذا دخل عليها ، لم يزد على ان يسأل امها: « كيف تيكم ؟ » وهو جفاء لم تعهده منه ، ولا هى كانت

تتوقعه . على انها ـ لبراءة نفسها ـ عزت الفتور الى انالنبى شغل عنها باحدى زوجاته . فسالته يوما أن يسمح لها بالانتقال الى دار ابويها ، لتكون فى رعاية أمها اثناء مرضها ، وشد ما كانت دهشتها ـ واساها وصدمتها كذلك ـ حين اذن لها الرسول ببساطة خيل اليها انها تفريط منه فيها !

صاعقة انقضت على عائشة !

• ومكثت عائشة فى دار أبويها بضعة وعشرين يوما ، معلولة .. ولم تدر من حديث الافك شيئا . فى حين قام الرسول يوما ، يخطب الناس قائلا : « ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى ، ويقولون عليهم غير الحق ؟!.. والله ما علمت منهم الا خيرا .. ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه الا خيرا ، وما يدخل بيتا من بيوتى الا معى !»

واشتدت الضجة حتى كانت خليقة بان تؤدى الى فتنة بين المسلمين ، لولا حكمة الرسول . وكان لابد للخبر ان ينتهى الى عائشة ـ وهى فى دور النقاهة ـ فكأنما انقضت عليها صاعقة ! .. وكاد يغشى عليها من هول الأمر ولم تجد سلاحا سوى ان تنخرط فى البكاء، حتى كادت كبدها تتصدع. واذ تمالكت نفسها ، قالت لأمها والهم يكاد يقتلها : « يغفرالله لك يا أماه !.. تحدث الناس بما تحدثوا ، ولا تذكرين لى من ذلك شيئا ؟!»

وادركت أمها سر همها وحزنها .. ادركت ان حديث الافك بلغها ، فقالت تهون عليها : «أى بنية !.. خففى عليك الشأن ، فوالله لقلما كانت امراة حسناء عند رجل يحبها، ولها ضرائر، الا كثرن وكثر الناس عليها !» . وحاولت ان توحى اليها بان الغيرة من شانها ان تثير اقاويل السوء ، ولكن عائشة لم تتعز ، بل بدأت عيناها تتفتحان على مالم يكن ليخطر لها يوما ببال .. بدات تفهم سر جفاء النبى وانصرافه عنها !..

وهالها ان يكون زوجها ـ وهو نبى ، وصاحب خلق وحكمة فوق مستوى البشر ـ قد استراب فى أمرها ، لمجرد تقولات ظالمة ! .. وفاتها أن زوجها ـ لانه نبى وفوق البشر خلقا وحكمة ـ قد تريث وتأنى فى أمرها ، فلم يتعجل الحكم ، بل انه ـ حين استغلق عليه الأمر ـ قنع بأن ينتظر امر الله .

وساءلت نفسها ، وهى ملتاعة ، محروقة الكبد ، موجوعة القلب : اتفاتحه فى الأمر ، وتقسم انها بريئة ؟.. ولكنهابذلك تعرض نفسها للشبهات ، فان المريب يكاد يقول خذونى !.. اذن ، فهل تقابل أعراض زوجها باعراض ،وجفاءه بجفاء؟..

انه ـ بالنسبة اليها ـ رجلها وزوجها ، أما النبوة ، فلها مقامها على حدة !.. ولكنها ذكرت ما كانت تلقاه من بره وحبه واصطفائه اياها على نسائه ، فأيقنت ان له العذر ، فما كان ليجفوها لولا أن الامر شديد الوقع على نفسه .. فهل تزيد هذا الوقع شدة بتصرفها ؟

ولم تجد سوى الله ملجأ تلوذ به !

الله المستعان على ما تصفون

• وطال بمحمد الانتظار ، فلما احزبه الامر ، ولم يعد من سبيل الى المضى فى الصمت ، رأى أن ينشد المشورة .. فقد كان هذا ديدنه فى الملمات . ودعا اليه عليا بن أبى طالب ، واسامة بن زيد .. فنفى اسامة احتمال اية مظنة فى عائشة . أما على ، فقد كان جموحا ، جريئا ، وكان يحب محمدا حبا يجعله يشفق عليه من أتفه الأكدار ، ويضحى بكل شىء فى سبيل تجنيبه الهموم ، فقال له : « يا رسول الله ، ان النساء لكثير ! » . وأشار باستجواب جارية عائشة .. وعنف بها ، وأوجها ضربا ، كى تقر بالحقيقة ، فلم تتحول عن ان تنفى عن عائشة السوء !

ولم يجد النبى ـ فى النهاية ـ سوى ان يواجه زوجته !

ودخل عليها ، فاذا عندها ابواها ، وامراة من الانصار .
وكانت عائشة تبكي ـ حتى أبكت الانصـارية معها ـ ون
اشتد بها كربها واساها . ولكنها لم تكد تراه ، حتى كفكف
دمعها . واستمعت اليه وهو يقول : « يا عائشة ، انه قـ
كان ما بلغك من قول الناس ، فاتقى الله .. وان كنت قـ
قارفت سوءا ممـا يقولون ، فتوبى الى الله ، فان الله يقبـ
التوبة من عباده » !.. فما أن أتم حديثه حتى غلى دمهـا
وجف دمعها ، وتيبست أطرافها .. واذ لم تجد من أبويهـ
ردا ، اشتدت ثورة نفسها .. ثورة القلب ، وثورة الـكبر
والكرامة والعرض ، فصاحت بهما : « الا تجيبان ؟ »
وأجرى السؤال دمعها ، فاشتد نشيجها .. وفثأ البـكـ
ثورتها ، فقالت للرسول ، وهى تنهنـه : **((والله لا أتوب الـ**
الله مما ذكرت أبدا !.. والله انى لأعلم لئن أقررت بما يقو
الناس ـ والله يعلم انني بريئة ـ لأقولن ما لم يكن !.. ولئ
انكرت فان تصدقونني .!)) .

وسكتت هنيهة ، ثم اردفت :

ـ انما أقول كما قال أبو يوسف (تقصد يعقوب ـ عليـ
السلام ـ حين ألقى ابناؤه بابنه الحبيب « يوسف » فى البئر)
« صبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون » !

براءة من السماء !

◆ **وساد** المجلس وجوم مكفهر ، حائر . ثم انتـاب النبى
ما كان ينتابه ـ اذا نزل عليه الوحى ـ من غناء . ولم تفز
« عائشة » لما الم به ، فقد أدركت انه الوحي ، وأيقنت من ان
الله غير ظالمها . فلما زالت عن النبى الرعشة والغشية ، جعل
يمسح العـرق المتصبب عن جبينه ، ويقـول : « ابشرى
يا عائشة ! .. لقد انزل الله براءتك ! »

واسـتولى الفرح على أبى بكر وزوجته ، اذ كانت المحنـ

شديدة الوطأة عليهما .. كانا يحبان رسول الله حبا يحملهما على أن يبذلا روحيهما فداء له .. وكانا يحبان ابنتهما .. وكانا يشفقان على عرضهما وشرفهما من شماتة الناس !

وهتفت زوجة الصديق بابنتها : « قومي الى الرسول ! »

وهنا ثارت كرامة عائشة ، فقالت : **((والله لا أقوم اليه ، ولا أحمد الا الله ، فهو الذى أنزل براءتى)) !**

ومس النبى ثوبها وربت كتفها ، مسترضيا ، فدفعت يده - فى ثورتها الأبية - فأسرع ابو بكر الى نعله يريد أن ينهال بها عليها ، لولا ان رده النبى ضاحكا ، وانطلق الى المسجد ، فألقى على النـاس ما أوحى اليه به الله : **((ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم . لا تحسبوه شرا لكم ، بل هو خير لكم . لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم ، والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم ..)) ، الى قوله تعالى : ((ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا ، لهم عذاب أليم فى الدنيـا والآخرة . والله يعلم وأنتم لا تعلمون))**

وما زال النبى بعائشـة حتى رضيت ، فعاد الصفـاء الى حياته .. وعادت عائشة الى مكانتها منه !

ارملة فى الثامنة عشرة من عمرها !

• **وعندما** واتى النبى مرضـه الاخير ، دخل على عائشة وهى تشكو صداعا أليما ، وتقول : « وارأساه ! » . فقال : « بل أنا والله يا عائشة .. وارأساه ! » .. ولكنه نسى ألمه ازاء ألمها ، فشاء أن يداعبها ليخفف عنها ، فقال : « وما ضرك لو مت قبـلى ، فقمت عليك ، وكفنتك ، وصليت عليك ، ودفنتك ؟ »

وغاظتها الدعابة .. ولعل الغيرة وخـزت فؤادها ، اذ تمثلت زوجها بعدها ، فقالت : **((لو قد فعلت ذلك ، لرجعت الى بيتى ، فأعرست فيه من جديد)) !**

وضحك محمد .. حتى اذا فارقه بعض الالم ، دار على نسائه ، حتى اشتد به الوجع ، فاستأذنهن فى أن يمرض فى بيت عائشة !

وواتاه النزع وهو مضطجع فى حجرها .. وشعرت براسه يثقل ، فأخذت تنظر فى وجهه ، فاذا بصره قد شخص ، وهو يقول : « بل الرفيق الاعلى من الجنة » . وادركت ان المنيـة حانت . وليس أبلغ من وصفها لهـــذا الموقف ، اذ تقول : **« مات رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بين سـحرى ونحرى (أى على صدرها) ، وفى دولتى ، لم أظلم فيه أحداً .. فمن سفهى وحداثة سنى ، ان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قبض وهو فى حجرى ، فوضعت راسه على وسادة ، وقمت التدم (أى تضرب صدرها) مع النساء »**

وهكذا كان أبلغ برهان على حب محمد لعائشة ، ان آثر ان يمرض فى دارها ، وان مات على حجرها .. وكانت اذ ذاك فى حوالى الثـامنة عشرة من عمـرها ، وقد عاشت معه تسع سنين وبضعة أشهر .. وقدر لها أن تترمل فى سن لم تكن ــ بعض لداتها ــ قد عرفن فيها الزواج !

أم المؤمنين .. بين العلم والسياسة !

• **ودفن** النبى حيث مات ، فى دار عائشـــة ، فابت ان تفارق هذا الحبيب الذى ظل طوال حياته يحبها ، حتى لقد كان يفتن بها ، وكانت تستغرق تفكيره ليله ونهاره .. وعاشت فى حجرة مجاورة لقبره ، لتكون قريبة منه ، تستعيد ذكراه ، وتستهدى بأنوار هذه الذكرى فى حياتها بعده

وكانت لا تزال فى عداد الصبايا ، موفورة الجمال والبهاء .. ولكن الدنيـا ــ التى تحفل بالصبا والجمال ــ انتهت لديهـا بموت محمد . فشاءت أن تقضى ما بقى لها من عمر بعده ، فى حياة نافعة .. وكانت اما للمؤمنين ، فصرفت كل جهدها

الى المؤمنين .. كانت مستودع سنة النبى واحاديثه وتعاليمه فأصبحت مقصد رواة الحديث ، ياخذون عنها ، ويستمعون الى شرحها وتحليلاتها ، ويستشيرونها فى المسائل الدينية والقضائية .. وغدت مرجعا للرجال والنساء ، يفزعون اليها كلما ألمت بهم الامور ، أو راودهم الحنين الى نبيهم ومعلمهم وزعيمهم

فلما تأزمت السياسة ــ فى اعقاب حرب الردة ــ كان الصحابة واولو الامر منهم يلجأون اليها ، يستوضحونها أمرهم ، فيعتدون برأيها ، ويأخذون بمشورتها ، ويستهدون بنصحها !

.. والحرب أيضا !

• **وكان** من الطبيعى أن تستدرجها هذه الظروف الى الاشتراك فى السياسة ، فتنقدت سلوك عثمان بن عفان فى الحكم .. وأوسعت صدرها للناس حين برموا بولاته وعماله الذين آثرهم على سواهم، فكانت وسيطا للشعب لدى الخليفة فى عزل الجائرين وغير الاكفاء من الولاة ، وفى ردع أصحاب الترف والمبذرين منهم ! .

وكما نقدت عثمان ، فانها لم تتوان فى الدفاع عنه عندما اشتدت النقمة على حكمه ، وحوصر ، وكاد الامر ينقلب الى حرب اهلية .. ولقد حاولت ام سلمة أن تجنبها المكاره ــ فى هذه المناسبة ــ ولكنها شاءت الا أن تثبت أنها أم المؤمنين بحق ، وانها ما كانت لتقعد والمؤمنون يكادون أن يقلبوا الخلافات والمشاجرات الى حرب !

وما أن رآها السابقون الاولون ــ من المهاجرين والانصار ــ تهب لنصرة « عثمان » حتى حذوا حذوها ، فعززوا جانب الخليفة .. ولكن اتباع « عثمان » ما لبثوا ان تآمروا على شقيق عائشة ــ محمد بن ابى بكر ــ ليقتلوه .. **وكان من**

الطبيعى أن تثور ثائرة عائشة لهذا الغدر ، ولكنها لم تنقلب الى الجانب الآخر ، ولا آزرت أعداء عثمان ، وانما آثرت النزوح عن (المدينـة) ، وانتقلت الى (مكة) ، لتعيش بجوار البيت الحرام .. حتى اذا عنفت الفتنة ، وتأجج سعيرها ، وانتهت الى اغتيال « عثمان » ، والى انصراف القوم عن قاتليه ، دون أن يحفلوا بعقابهم ، غضبت « عائشة » أشد الغضب ، ونهضت تدعو الى الثأر لدم عثمان ، حتى بعثت الحمية فى النفوس ، فهب الابطال الى القتال !.. ودارت رحى حرب أهلية !

عائشة تخوض ميدان السياسة !

• **وألقت** « عائشــة » تبعة الفتنــة ـ التى دبت بين المسلمين ـ على عاتق « على بن أبى طالب » .. ولن نخوض هنا فى الدراسات التاريخية والسياسية التى تبرر هذا الرأى من السيدة « عائشة » ، ولكنا لا نملك ان نـكتم فكرة يدعو اليها المنطق ، ويكفل لنا ذكرها ما قرره الاسلام من تقديس لحرية الفكر والرأى :

فلقد أجمع علماء النفس ، على ان المرء كثيرا ما يخضع فى تفـكيره ـ دون ان يفطن ـ لنوازع تنبعث من آراء سابقة استقرت فى نفسه بحكم الوسط والنشأة ، أو من مشـاعر ولدتها انفعالات مترتبة على مناسبات سابقة .. ولعل الشاعر العربى كان يعبر عن هذا ، حين قال :

وعين الرضى عن كل عيب كليـلة
كما أن عين السخط تخفى المساويا

ولقد كانت « عائشة » بشرا ، تتأثر بما يتأثر به سـائر البشر .. ومن الصحيح أن سعة ذهنها ، ورجاحة تفكيرها ، وسمو أخلاقها ، وما أوتيت من علم ومن قدوة ، نتيجة حياتها مع رسول الله .. صحيح ان كل هذه العوامل ، كانت تنزهها الى حد كبير عن الخطأ ، ولكنها كأنثى كانت خليقة بأن تحتفظ

لعلى بن أبى طالب ، فى أعماقها ، سخطا عظيما ، ونفورا بالغا ، لما كان من موقفه ازاءها فى أقسى محنة مرت بها ، بل أقسى محنة تمر بأنثى ، وبزوجة كانت تكن ازوجها أعظم الحب .. ونعنى بذلك محنة ((حديث الافك)) !

وما نعتقد ان أحدا يلوم « عائشة » فى ذلك ، فان الغريزة الآدمية ـ فى مسائل كهذه ـ تكون أقوى من كل عقل وحكمة ، فى أكثر الاحيان .. ولكن الذى يمكن ان تلام عليه عائشة ، هو انها سمحت لهذا الشعور منها نحو « على » بأن يدخل فى السياسة العليا للمسلمين، وكان بوسعها أن تقف على الحياد . ومع ذلك ، فان ثمة تبريرا لذلك ، هو أن حرصها على صالح المسلمين ، ما كان ليدعها تقف موقف المتفرج ، فى نزاع دقيق كان من شأنه ان يؤثر على مصير الدولة الاسلامية الناشئة .. فضلا عن ان المرء الذى ينساق لمثل هذه المشاعر ، لا يفطن البتة الى انه منساق فعلا ، اذ انها تكون من عمق الاستتار والاستخفاء ، بحيث لا تبدو لصاحبها !

.. وفى ميدان القتال !

• وعلى اية حال ، فان « عائشة » ألقت على عاتق « على بن ابى طالب » تبعة تفشى الفتنة واستفحالها ، فسارت مع « طلحة بن الزبير » على رأس من هبوا لمؤازرتها حين أطلقت دعوتها .. وكانت ارض العراق هى الميدان الذى اعتصم به الخصوم .. فذهبت « عائشة » و « طلحة » الى (البصرة) ، وذهب على الى (الكوفة)

وبين البصرة والكوفة،دارت موقعة الجمل . وقد اكتسبت اسمها من نزول ((عائشة)) بنفسها الى الميدان ، حيث راحت تتنقل بجملها بين الفرسان تحضهم وتستحث هممهم ، ونبال الخصوم تنهمر على هودجها ، فينبرى الابطال لصدها ، ويستشهدون دون الهودج ومن كانت فى الهودج

ولم ترهب عائشة الموقف ، ولم تجزع من الخطر ، بل ظلت حتى سقط الجمل على الارض ، وقد كسرت قوائمه ، فاذا بعائشة تقفز من هودجها بين المحاربين ، تذكى أوار حماسهم ، وتهيج حميتهم للقتال

وكانت الهزيمة صدمة لعائشة .. وابصرت الدماء المسفوكة، وجثث الشهداء المتراكمة، فذاب قلبها أسى وحزنا .. وهدأت ثورتها ، فانحسرت الانفعالات التى كانت تهيجها ، لتفسح مكانا للندم والحسرات .. الندم على الارواح التى ازهقت ، والحسرات على ما صار اليه أمر المسلمين من فرقة ، وهى التى كانت تصبو الى « اصلاح ذات البين بين فئتين متشاجرتين » ، كما ردت على ضرتها « ام سلمة » عندما كتبت اليها ، قبل أن تزج بنفسها فى الصراع

وحز فى نفس عائشة ان تبينت انها كانت ضحية للدسائس والمؤامرات التى احاطت بتلك الظروف العصيبة التى كادت تصدع كيان الدولة الاسلامية .. وانها غدت ـ بما كان لها من مواقف ـ موضع اللوم والنقد من فريق من المؤمنين

وانتهى بها الامر الى أن أوت الى دارها ، وانطوت على نفسها ، وقضت ما تبقى لها من العمر بين الندم وبين شئون الدين .. حتى قدر لها ان تلحق بالرسول ، فى سنة ٥٨ هجرية

دروس نفسية واجتماعية

• **وهكذا** انطوت صفحة من اكثر الصفحات اشراقا فى تاريخ الاسلام ، وفى تاريخ المراة ـ بوجه عام ـ فى كافة المجتمعات والبلدان والديانات .. صفحة حفلت بالكثير الذى لم يقدر له أن يجتمع فى حياة امراة واحدة !

وهنا يترك المؤرخ مكانه للمحلل النفسى، وللعالم الاجتماعى، ففى هذه الصفحة مواطن لدراسات عظيمة بالغة

فتاة فى حوالى العاشرة من عمـــرها ، لتزوج من رجل فى الخمسين من عمره ، فتحبه وتتفانى فى حبه ـ أثناء حياته ـ وتقيم على ذكراه وتقدسها بعد وفاته ، بالرغم من انها لم تكن قد تجاوزت الثامنة عشرة من عمرها عندما توفى .. اى أنها كانت فى سن لم تبدأ عندها الكثيرات من اترابها حيـــاتهن الزوجية !.. سن تعتبر ـ عند علمـاء النفس والاجتمـــاع والطب ـ عتبة تيقظ الانوثة !

أليس فى هذه الصورة أقوى دليل على خطأ ما يقال عن أن التكافؤ فى السن ـ بين الزوجين ـ ضرورة محتومة ، لايستقيم الزواج والسعادة الزوجية بدونها !؟.. انه درس بليغ ، يبين كيف أن بوسع الزوج أن يروض زوجته على السعادة معه ، مهما يكن الفارق فى السن بينهما .. وذلك بالصبر عليها حتى تستكمل نضجها ، وبالتسامح معها ـ حتى ليـأذن لها بأن تدعو لداتهـا الى دار الزوجيـة كى تلعب وتمرح معهن ـ وبالتكيف بحيث يغدو أبا واستاذا وصديقا لزوجته ، قبل أن يكون مجرد زوج !

السمو والتسامى فى حياة عائشة

• **ثم ..** اى مثال للتسامى نلمحه فى حياة هذه الصبية اليافعة ـ فى باكورة زواجها ـ اذ وفقت فى أن تصون نفسها من التطلع الى ما ظفرت به قرينـاتها فى السن ، من أزواج شبان ! .. لقد استطاعت أن تتسامى بعواطفها عن الدنيوية ، فقدرت فى زوجها نبوته وبطولته وجهاده وسمو رسالته ، قبل أن تنظر اليه كمجرد زوج من البشر ! .. ولقد ابدت ـ هى الاخرى ـ من البطولة ، ما مكنها من ان تسمو بنفسها ، فصعدت طريقا وعرة شاقة على من يبلغون ثلاثة امثال عمرهاـ من رجال ونساء على السواء ـ لتكون أهلا وكفءا لهـذا الزوج العظيم !

ومثال آخر للتسامى : **اذ ان الله لم ينعم عليها بولد من الزوج الذى أحبته بكل نفسها وقلبها وذاتها ، فاستطاعت ان تقوم لوعة الامومة المحرومة ، وأن تسعد بأن تكون اما للمؤمنين جميعا ، وأن تبذل أجل الجهود وأنبلها كى تجعل نفسها جديرة بهذه الامومة الجماعية الشاملة !**

ومن لنا بالمحلل النفسي البارع ، الذى يستطيع ان يلقى الاضواء على أعماق صبية تجد نفسها زوجة لزوج تقاسمها اهتمامه — على الاقل ، ان لم نقل حبه وقلبه — زوجات عديدات ؟ .. لقد عانت السيدة « عائشة » الكثير من لواعج الغيرة ، ولكن الصبية الصغيرة استطاعت أن تجد من قوة الجلد ، ومن عظم الشخصية ، ما مكنتها من ان تقهر هذه الغيرة وتسمو عليها .. حتى لقد فاقت فى ذلك كثيرات من زوجات النبى اللائى كن يكبرنها فى السن بكثير !

عائشة العظيمة !

• **وصورة** أخرى فى حياة « عائشة » .. صورة حافلة زاخرة بالانفعالات القاسية العنيفة ، تلك هى صورتها حين عصفت بها عواصف حديث الافك !.. من لنا بالمحلل النفسى العبقرى الذى يستطيع أن يغوص فى أعماق الصبية التى لم تكن قد تجاوزت السادسة عشرة من عمرها ، أى انها كانت لم تبرح بعد فترة المراهقة التى تكون فيها نفس المرء — لاسيما الانثى — شديدة الحساسية والارهاف !

واية شخصية عظيمة تلك التى تكشفت أثناء هذه المحنة .. **شخصية تجلت عظمتها فى تشبث صاحبتها بموقفها ، وهى موقنة من براءتها ، فلم تتزحزح تحت دوافع الخوف ، والاسى ، واليأس ، بل قاومتها جميعا ، وصمدت رافعة الراس ، وأبت أن تسمح للسانها بأن ينطلق بدفاع ، لانها كانت معتدة ببراءتها ، الى الدرجة التى تجعلها تصر على ان يرى**

الآخرون هذه البراءة من تلقاء انفسهم ، وان ينظروا اليهـا كحقيقة قائمة ، ثابتة ، لا تحتاج الى تبيان ! .. وتجلت ناحية اخرى من عظمة هذه الشخصية ، حين اعتـدت بأن الله هو الذى أعلن براءتها ، فأبت الا ان ترضى كبرياء انوثتها ، وكرامة عرضها ، بأن تصر على انه ليس ثمة ما يدعو لان تحمد لزوجها ترديده هذا الاعلان ، وهو الذى ظنت ان الريب ساورته فى امرها !

. . . .

كل هذه صور تحتاج الى دراسات عميقـة ، دقيقة ، تكشف عن عظمة المرأة العربية ، وعن استعدادها الفطرى كعضو عامل ونافع فى المجتمع ..

وكل هذه الصور ، جديرة بأن تجعل من ((عائشـة)) شخصية خالدة فى تاريخ البشرية ، لا لمكانتها الدينية فحسب ، وانما لمكانتها كامرأة وانسان كذلك !

بنك مصر
اسس شركاته الكبرى التى وظف بها خصائص البلاد
واستغل مرافقها فإذا بها الدعائم التى قام عليها
التصنيع القومى فى البلاد وكانت السياج المنيع للتحرر
الاقتصادى منذ ٣٣ عاما وتدل على الكفاية للمصرية
وتفوق العقل المصرى فى مضمار الحياة العملية

الحياة قصة

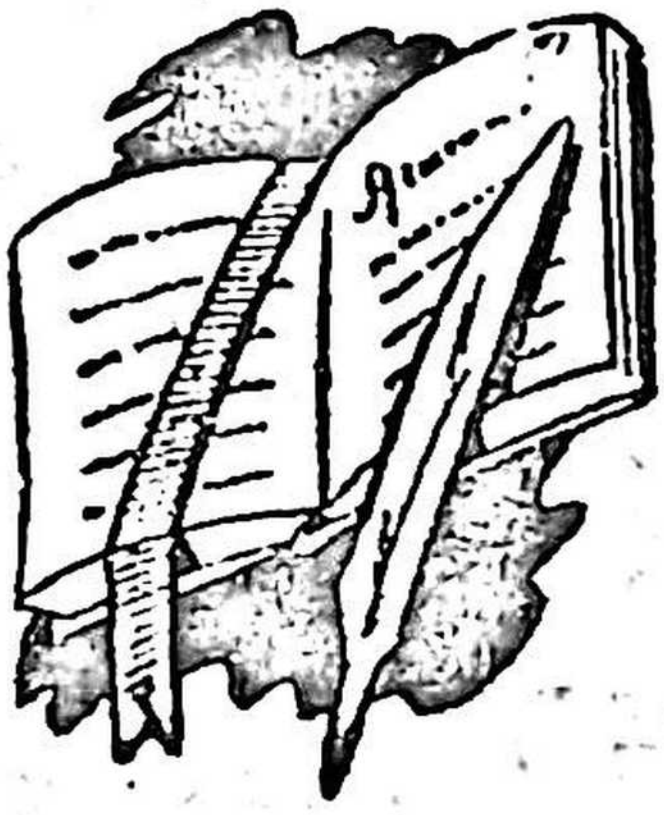

روائع القصص العالمى

عزيزى القارىء :

قرأت معى فى الاعداد الماضية قصص : • أموك : لستيفان زفايج • قلب عذراء : جون جالزورثى • احدب نوتردام : فيكتور هوجو • جريمة حب : بول بورجيه • مانون ليسكو : الاب بريفو • حديقة الله : روبرت هتشنز • عندما تحقد المرأة : جورج اونيه • آسيا : ايفان تورجنيف • الشيطان على الارض : برتراند رسل • الحب الاول : تورجنيف • تاييس : اناتول فرانس • بلاد العميان : ه • ج • ويلز • نادى الانتحار : روبرت لويس ستيفنسون • كوخ العم توم : هارييت بيتشر ستو • الزوج والعشيق : سومرست موم • البوهيمية : هنرى مرجيه • فتاة لها ماض : بول بورجيه • شيرى : كوليت • الجريمة والعقاب • لحن كرويتزر • افروديت • الشيطان فى الجسد • ((اليهودى التائه)) • ((صباح الخير ايها الحزن)) • غريزة السعادة : اندرية موروا • وهاك اليوم ((شهر العسل المر))

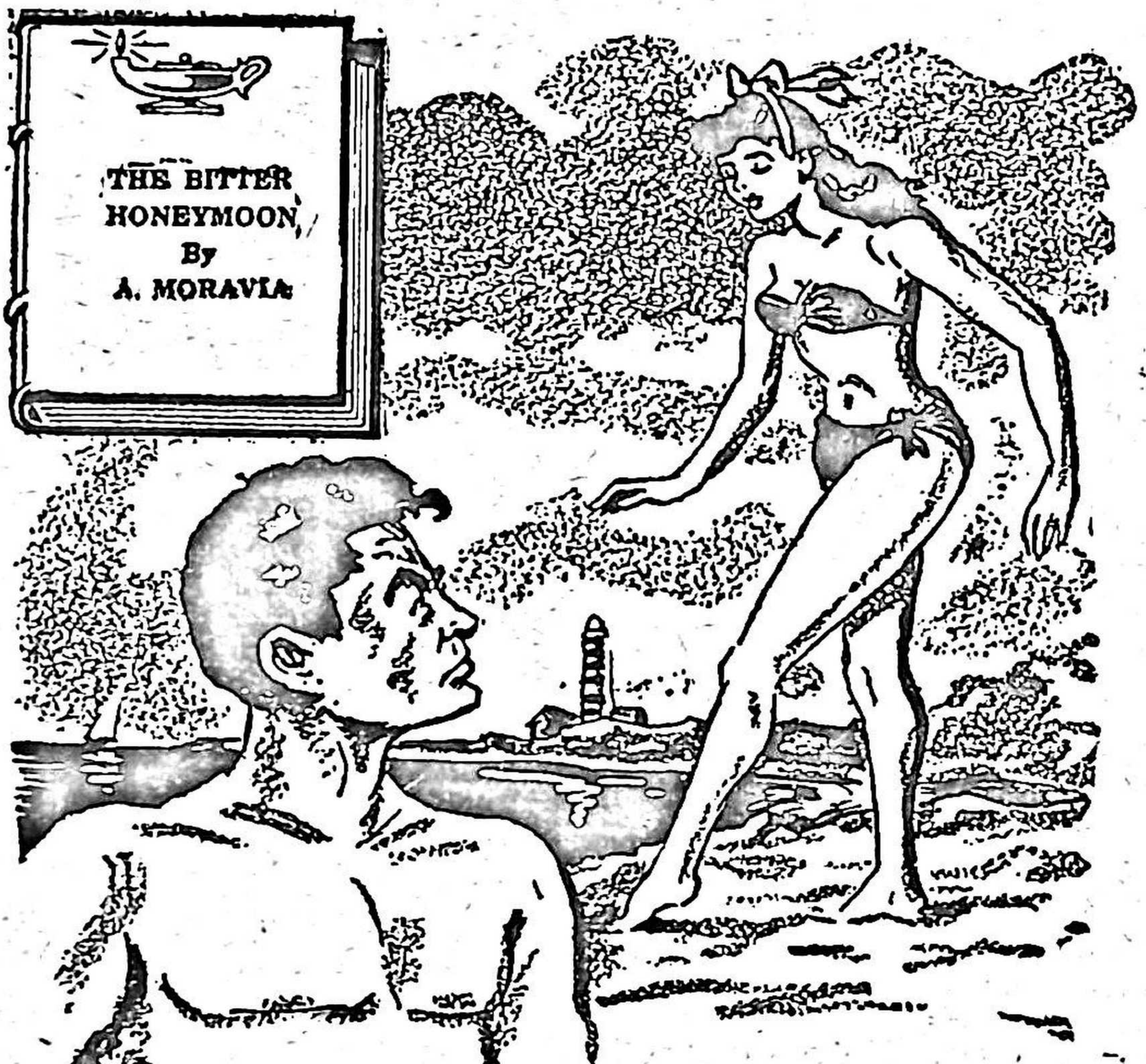

شهر العسل المر!

أروع تحفة قصصية للكاتب الإيطالى المعاصر

"ألبرتو مورافيا"

قلم الاديب .. ومبضع الجراح

• ان الكاتب القصصي البارع ، هو ذلك الذى يستطيع ان يجعل من أدق مواقف الحياة العادية ، مادة لقصصه ، حتى ليجعلك تعيش مع ابطاله فى تلك المواقف ، وحتى ليخرج بالقصة من نطاق التسلية ، ليجعل منها دراسة صحيحة ، نافعة .. وهو يبلغ ذروة العظمة الفنية، حين يتناول الموضوعات الجنسية فيجلوها ، فى دقة الجراح الماهر حين يتوسل بالتشريح الى بيان مواطن الملل ، دون أن يكون فى تعريته للجسد الآدمى اى واعز بأى تحريض جنسى يثير اتفه الشهوات ... وفى هذه القصة ، يبلغ الكاتب الايطالى المعاصر «البرتو مورافيا» أوج البراعة القصصية الفنية

فلندعك الآن لتعيش مع «سيمونا» و «جياكومو» فى تجربة شهر العسل ، وتر لنفسك : أهذا الشهر مرير حقا ؟

• كانا قد اختارا (انا كابرى) مرتعا لهما فى شهر العسل ، لأن « جياكومو » كان قد زارها قبل ذلك ببضعة أشهر ، فرغب فى أن يعود اليها ، مصطحبا عروسه . ولقد كانت زيارته السابقة ، أثناء الربيع .. وانه ليذكر بجلاء ذلك الهواء العليل ، الزاخر باصوات آلاف الحشرات ، تحت وهج الشمس الذهبى .. ولكن كل شىء بدا — فى هذه المرة — مختلفا ، فقد كانت الايام الوسطى من شهر اغسطس تمر بقيظها وهوائها الراكد ، ورطوبتها المتصاعدة من الأرض الجافة ، لتحجب وجه السماء ! .. ولم تكن ثمة نسمة عليلة فى أى مكان من (انا كابرى) — ولا اعلى بقاعها — ولا كانت ثمة زهور .. ولم يكن للبحر ذلك اللون البنفسجى الذى كان « جياكومو » يتغنى بوصفه ! .. وكانت الدروب الملتوية — خلال الحقول — تكتسى بطبقة من التراب الأصفر ، تراكمت خلال الأشهر الأربعة التى لم يهبط فيها مطر ! .. وكانت أوراق الأشجار قد بدات تذوى ، ويستحيل لونها الى الحمرة والسمرة .. بل ان أشجارا كاملة ، كانت تبدو — هنا وهناك —

وقد اذبلها الشوق الى الرى . كما كانت ذرات الغبار تعلق فى الهواء ساكنة ، فتثير رعشة فى الخياشيم ، وقد حلت رائحة الصخور التى حرقها القيظ ، والأراضى التى اشتد بها الجفاف، محل شذى المروج وعبير البحر ..

وقالت « سيمونا » ، وهما ينطلقان - فى اليوم التالى لوصولهما - فى الطريق المؤدية الى المنار : « لست اراها من الجمال فى شىء .. لست احبها .. لا ، اطلاقا ! »

ولم يجبها «جياكومو» الذى كان يسير خلفها ، فلقد اعتادت أن تتكلم بهذه اللهجة الحافلة بالشكوى وعدم الرضى ، منذ ان فرغا من عقد زواجهما مدنيا فى (روما) ، حتى لقد ارتاب فى ان ضيقها المستطيل الأمد - الذى كان يمتزج بنفور ظاهرى واضح - لم يكن متعلقا بالمكان ، بقدر ما كان متعلقا بشخصه هو بالذات ! .. فما كانت شكواها من (انا كابرى) ، الا لأنها لم تفطن بعد الى أن زوجها هو المحور الأصلى لعدم رضاها !..

لقد كان زواجهما زواج حب - لا مراء فى ذلك - ولكنه اقيم على الرغبة فى الحب ، وليس على الشعور بالحب فعلا ! .. ولقد كان « جياكومو » على حق حين توجس واشفق من هذا الزواج ، فى اللحظة التى دفع فيها بخاتم الزواج حول أصبع « سيمونا » ، فلقد قرأ على محياها ومضة من الندم والحيرة..

وقد تبين صدق حدسه ، فى أولى لياليهما فى (انا كابرى) ، اذ رغبت اليه عروسه أن يعفيها من أن تسلمه نفسها ، متعللة بأنها كانت متعبة ، وكانت بها بقية من اعياء من جراء الرحلة البحرية . ومن ثم فانها كانت فى هذا اليوم - وهو ثانى ايام زواجهما - عين العذراء البكر التى كانتها قبل الزواج !

وراحت تسير فى تثاقل ، بين الأعشاب والنباتات البرية المثقلة بالاتربة ، وقد علقت باحدى كتفيها حقيبة ، فأخذ « جياكومو » يتأملها فى شىء من الأسى والهم ، وكأنما كان يتمنى أن يستحوذ عليها بنظرة واحدة ، ثاقبة .. كما فعل

مع نسوة غيرها ، فى مرات كثيرة !

ولكنه سرعان ما تحقق من أن القوة الثاقبة كانت تنقص نظرته .. كانت عيناه تستوعبان — فى تأمل تحليلى عاشق — جسدها ، ولكن نظرتهما كانت تخلو من القوة المتسلطة ، التى تنبعث عن وجد صادق . ومع ان «سيمونا» لم تكن طويلة، الا انها اوتيت ساقان طويلتان — كسيقان الاطفال — وفخذان نحيلتان ولكنهما ملفوفتان ، ترتفعان فى تناسق كامل تقريبا ، لتنتهيا بكتلتين متضخمتين على الجانبين ، يبدو اتصالهما بالجذع واضحا ، تحت السروال (البنطلون) الذى كانت « سيمونا » ترتديه .. وكان بياض ساقيها ناصعا ، لامعا ، لا تشوبه شائبة ، اما خصرها وردفاها ، فكانت رفيعة ، نحيلة.. وكانت ظاهرة الأنوثة الوحيدة التى تبدت لجياكومو، وهى تلتفت اليه لتكلمه ، هو امتلاء ثدييها المتدليين ، اللذين كانا يلوحان كحملين غريبين يثقلانها ، ولا يتلاءمان مع قوامها النحيل ! .. كذلك كان شعرها الأشقر الكثيف ، يتهدل غزيرا على قفاها ، رغم انه كان قصيرا بفعل المقص !

* * *

• **ودارت** على عقبيها بغتة ، وكأنها احست بانها كانت محط نظراته ، وسألته : « **لماذا تجعلنى اتقدمك فى المشى ؟** »

ورأى جياكومو التعبير الصبيانى البرىء ، الذى كان يشع من عينيها الزرقاوين الواسعتين ، وانفها الصغير المرتفع الذؤابة ، وشفتيها المنفرجتين كشفتى طفلة صغيرة .. وخيل اليه أن وجهها كان — هو الآخر — غريبا عليه ، لم يمسه الحب!

وقال فى استخذاء : « **سأتقدمك ، اذا شئت !** »

ومر بجوارها ، متعمدا أن يحك ساعده بصدرها ، ليختبر مدى اشتهائه اياها . ثم استأنفا سيرهما : هو فى المقدمة ، وهي خلفه . وراحت الطريق تدور حول قمة (مونت

سولارو) ، بحذاء سياج من الاحجار المكسوة بالطحالب ، والتى لم يكن ثمة أثر لملاط يلصق الحجر منها بالآخر ، وقد مالت عليها صفوف من الكروم . وفى الجانب الآخر للطريق ، كان ثمة منحدر وعر ، يهبط ــ بين بساتين الكروم والزيتون المهجورة ــ نحو البحر الاسمر الملتف فى الضباب . ولم يكن ثمة ما يمثل بهاء هذا المنظر الطبيعى ــ فى خير أيامه ــ سوى شجرة صنوبر يتيمة ، انتصبت فى منتصف السفح ، وقد بسطت فروعها الخضراء فى الهواء !

ومضت «سيمونا» تسير فى بطء شديد ، والشقة تتسع بينها وبين زوجها ، مع كل خطوة . وما لبثت ان وقفت أخيرا ، وسألته : « **ألا تزال أمامنا مسافة طويلة ؟** »

فقال جياكومو فى تلطف : « اننا مازلنا فى البداية .. أمامنا ساعة أخرى على الأقل ! »

فقالت فى استياء : « **ليس بوسعى أن أحتمل هذا !** » . وتطلعت اليه وكأنها كانت تأمل أن يعرض عليها العدول عن السير نهائيا .. وعاد الشاب اليها ، فدفع ذراعه حول خصرها

ــ **ليس بوسعك ان تحتملى المشى .. أو ان تحتمليننى أنا ؟**

فردت عليه فى تحمس لم يكن متوقعا : « ماالذى تعنيه أيها الغبى ؟ .. ليس بوسعى ان أمضى فى المشى طبعا ! »

ــ الا امنحيننى قبلة !

فحملت نفسها على أن تمس خده فى قبلة سريعة ، ثم غمغمت : « ان الجو حار جدا .. ليتنا نعود ! » فأجابها جياكومو : « **بل لا بد لنا من الوصول الى المنار . وما الحكمة فى العودة ؟ .. لسوف نسبح فى البحر ، بمجرد وصولنا . انه مكان رائع ، فان المنار وردى وأبيض .. أفلا تحبين ان تريه ؟** »

ــ بلى .. ولكنى اتمنى ان أصل الى هناك محلقة ، **لا سائرة**

ــ **لنتجاذب الحديث ، فبهذا لن تفطنى الى المسافة !**

قالت معترضة ، والعبرات تكاد تبدو فى صوتها : « ولكنى لا أجد ما أقول ! »

وتردد « جياكومو » لحظة ، قبل ان يجيب قائلا : « انك تحفظين كثيرا من الشعر ، عن ظهر قلب . فرددى احدى القصائد ، بينما أصغى اليك .. وقبل ان تنتبهى ، نكون قد وصلنا الى هناك ! »

وتبين انه قد اصاب الهدف بهذا الاقتراح ، اذ كانت لها ذاكرة تعى الشعر وعيا عجيبا . ومن ثم فانها انطلقت فى زهو صبيانى ، تردد القصيدة الثالثة من « جحيم دانتى » :

« خلالى تمتد الطريق الى المدينة الزاخرة بالحزن ،
« خلالى تمتد الطريق الى الألم السرمدى ،
« خلالى تمتد طريق القوم المضيعين .. »

وكانت تروى الشعر بطريقة آلية ، وفى تعبير بسيط — كما تفعل التلميذة فى المدرسة — وانفاسها تتهدج من جراء المجهود المضاعف الذى كانت تبذله . وكانت تقف فى السرد عند نهاية كل مقطع ، دون أن تعنى بالقـاء او بمعنى ، كالتلميـذة التى تصدر فى الالقاء عن تحمس لاظهار استيعابها للشعر ، لا عن ذكاء ينم عن فهم لمعانيه !.. وكانت تستدير ملتفتة الى « جياكومو » — بين آن وآخر — فترميـه بنظرة خاطفـة ، مستجدية .. اجل ، كانت كالتلميذة فى كل شىء ، وقد استقرت قلنسوتها — التى توالت فيها الخطوط البيضاء والزرقاء — على شعرها الأشقر .

* * *

. وبعد ان قطعا شطرا من الطريق ، بلغا سياجا حجريا ، بنى حول « فيللا » كبيرة ، وقد كسته عروق اللبلاب ، وتدلت فوقه فروع البلوط المورقة ، فتساءلت سيمونا : « قصر من هذا ؟ » :

فأجاب جياكومو : « كان ملكا لآكسيل مونثه .. ولكنه توفى ! »

ـ واى صنف من الرجال كان هذا ؟

فقال جياكومو : « كان من أهل الذكاء الحاد ، حقا ! » . ولكى يسليها عناء الطريق ، مضى قائلا : «كان طبيبا من أرقى الأطباء فى (روما) ، فى أوائل هذا القرن . واذا شئت أن تعرفى مزيدا عنه ، فهناك قصة بلغتنى ، وهى صادقة تماما .. أفتحبين ان تسمعيها ؟ »

ـ اجل .. قصها على !

ـ زارته يوما احدى نساء المجتمع الجميلات ، المرفهات ، زاعمة أنها تعانى من كافة العلل الوهمية . فأصغى لها «مونثه» فى صبر ، وفحصها ، حتى اذا تبين انها غير مصابة بسوء ، قال لها : « اننى أعرف علاجا مؤكدا ، ولكن عليك ان تفعلى ما أقول .. اذهبى الى هذه النافذة المفتوحة ، واتكئى بذراعيك الى حافتها ، وأطلى خلالها ! » . وأطاعته ، فما لبث أن سار اليها ، ووجه الى مؤخرها ركلة قوية . ثم شيعها الى الباب ، وهو يقول : « ثابرى على هذا العلاج ثلاث مرات فى الأسبوع ، ولن تلبثى ان تصبحى بخير بعد أشهر قلائل ! »

ولم تضحك « سيمونا » ، وانما صمتت برهة ، ثم قالت فى مرارة ، وهى تتأمل السياج : « هذا هو العلاج الملائم لى ! »

وبهت « جياكومو » لما بدا فى نبرات صوتها من أسى . وما لبث ان اقترب منها ، متسائلا : « لماذا تقولين هذا القول ؟ .. ما الذى أصاب تفكيرك ؟ »

ـ انها الحقيقة ! ... اننى مجنونة بعض الشىء ، وخليق بك أن تعالجنى بهذه الطريقة بالذات !

ـ عم تتحدثين ؟

فقالت فى صراحة جعلته يجفل مذهولا : « عما حدث فى الليلة السالفة »

ـ ولكنك كنت فى الليلة السالفة متعبة ، ومتأثرة بدوار البحر

ـ لا ، لم يكن الأمر كذلك اطلاقا .. فما تأثرت يوما بدوار البحر ، ولا كنت متعبة كذلك ، ولكننى كنت خائفة .. وهذه غاية الأمر !

ـ أو كنت خائفة منى !

ـ لا ، بل كنت خائفة من المسألة كلها !

وواصلا سيرهما فى صمت شامل . ودار السياج مع دوران الطريق ، ثم انحرف بعض الشىء عنه ، وكأنه يجاهد فى استبقاء أشجار البلوط خلفه . ثم بلغ نهايته ، فاذا بهضبة معشوشبة تمتد أمامه ، انحدر تحتها السفح فى وضع يكاد أن يكون عموديا ، الى أكمات (ريو) الماحلة المنعزلة . وكانت الهضبة مكسوة باعشاب برية ذات زهور هرمية ، لها لون وردى مغبر ، يقرب من السمرة . فاقتطف « جياكومو » بعض هذه الزهور ، وقدمها الى زوجته ، وهو يقول : ((**انظرى اليها .. ما أجملها ؟ !**))

ورفعتها الى انفها ، ، وكأنها صبية تسمى الى الهيكل ، وهى تنشق عبير زنبقة .. ولعلها فطنت الى جو العذرة الذى كان يلفها ، اذ انها التصقت بجياكومو ، وكأنها توشك ان تعانقه ، وهمست فى احدى أذنيه : ((**لا تصدق شيئا مما قلت لك .. لقد كنت خائفة .. كل ما هنالك هو اننى بحاجة الى أن آلف الفكرة .. الليلة ..**))

فهتف مرددا فى تساؤل : ((**الليلة ؟ !**))

فغمغمت فى عناء : « لكم انت عزيز على ! » . ثم أضافت عبارة تقليدية ، لعلها كانت قد حفظتها عن ظهر قلب ، لتقولها فى هذه المناسبة : ((**سأكون لك الليلة !**))

ولفظت هذه الكلمات الأخيرة فى تعجل ، وكأنها كانت خائفة من طابعها التقليدى ، اكثر مما كانت خائفة من مدلولها

ومعناها .. ثم طبعت قبلة خاطفة على خد « جياكومو » .
وكانت هذه أول مرة تنبيء فيها الشاب بانه كان عزيزعليها ..
بل أول مرة تصارحه فيها بشيء من هذا القبيل . وشعر بشوق الى ان يحتويها بين ذراعيه ، ولكنها قالت بصوت عال : « انظر ! .. ما هذا الذى يعلو سطح البحر ؟» . وراغت - فى الوقت ذاته - من ذراعيه !

وعادت تستأنف السير ، فى خطوات مسرعة ، وكأنها كانت تخشى ان يعاود محاولته لعناقها . وإذ رآها تفلت منه ، تولاه شعور طاغ بالعجز ، اذ لم يكن بوسعه أن يستولى لفوره على جسد حبيبته . وتمتم وهو يصر على اسنانه ، ويلحق بها ، « ان تفلتنى الليلة منى ! » .. فأجابته وهى تنكس رأسها ، دون ان تلتفت الى اى اتجاه : « سأكون الليلة شيئا آخر ..! »

وكان الطقس شديد القيظ ، ما فى ذلك من شك .. وخيل لجياكومو ان عين العقبة ، عين الاستحالة التى كانت تشمل علاقته بزوجته ، كانت تكمن فى الهواء الراكد الذى كان يحيط بهما .. استحالة هطول مطر يلطف الجو ويعيد اليه صفاءه .. استحالة الحب !

وداخله شعور اقرب ما يكون الى الذعر ، عندما تطلع اليها مرة اخرى ، فاحس بان رغبته فى الحب كانت منبعثة عن ميل عقلى محض ، دون ان تنتمى الى شهواته ! .. كان قوامها يبين واضح المعالم تماما . وهتف بدافع غريزى : « لعله كان من الجدير بك ان لا تتزوجى ! »

وبدا انها تقبلت قوله كأساس للنقاش ، وسألته : « لماذا ؟ » .. وود أن يجيب قائلا : « لان كلا منا لا يحب الآخر ، فى الواقع ! » . ولكنه عبر عن هذه الفكرة - التى كانت تدور بخلده فعلا - بطريقة مناقضة لذلك كل التناقض . فلقد كانت « سيمونا » شيوعية ، وكان لها منصب فى مقر رئاسة الحزب . اما « جياكومو » فلم يكن شيوعيا على الاطلاق .. وكان يزعم

لنفسه انه لا يعير آراء زوجته السياسية أية أهمية ، ولكن هذه الآراء كانت لا تفتأ تقفز الى ذهنه - بطريقةما - فى أبعد اللحظات ملاءمة لظهورها ، وكأنما هى حوافز تعزز عدم توافقهما . ومن ثم فقد دهش اذ سمع نفسه يقول : « لأن ثمة فوارق شاسعة بين أفكارنا وآرائنا ! »

- أية آراء تقصد ؟

- **الآراء السياسية !**

وأدرك - اذ ذاك - السر فى أن نفورها قد دفعه الى ان يزج بالسياسة فى الأمر .. كان ذلك السر يتمثل فى الأمل فى أن يثير رد فعل فى نفسها ، يصل الى درجة كان يعرف أنها مرهفة الحس بصددها . وفعلا بادرت « سيمونا » تجيبه لفورها : **« ان الأمر ليس كذلك ! .. فالواقع ان لى آراء معينة ، اما انت .. فلا آراء لك البتة ! »**

وكانت - بمجرد ذكر السياسة - قد اتخذت مظهرا ينم من الاعتداد بالنفس ، وادعاء العلم ، مما كان يناقض تماما ذلك المظهر الصبيانى الذى طالما اغاظه . وساءل نفسه - وهو منتبه تماما الى أفكاره - عما اذا كان انفعاله منبعثا من شعور معاد للشيوعية ، كان يكمن فى أعماقه . بيد انه سرعان ما طمأن نفسه بهذا الصدد ، فما كان يميل الى السياسة ، أيا كانت وما كان يضايقه ويكربه سوى ان زوجته أوتيت ميلا اليها !

وقال بجفاء : **« الواقع ان ثمة شيئا ما يقف حائلا بيننا ، سواء كان الأمر يتعلق بالآراء او لا يتعلق بها ! »**

- فما هذا الشىء ، اذن ؟

- **لست أدرى ، ولكنى ألمسه واحسه**

وما لبثت - بعد ثانية من الزمن - ان قالت بنفس اللهجة المثيرة : **« اننى أعرفه حق المعرفة . انه أمر يتعلق بالآراء . ولكنى آمل ان ترى يوما ما أراه ! »**

فأجابها فى تحمس : **« لن يكون هذا ابدا »**

ــ ولماذا لن يكون أبدا ؟
ــ لقد ذكرت لك هــذا مرارا ، من قبــل .. اولا ، لأننى لا اريد أن أزج بنفسى فى أى نوع من أنواع السياســة .. وثانيا ، لأننى مسرف فى التشبث باستقــلالى فى الراى .. بفرديتى !

ولم تحر « سيمونا » جوابا ، ولكن صمتها كان ــ فى مثل هذه الأحوال ــ أشد مرارة من الاستهجان الذى يعلن جهرا ، فاذا بنوبة من غضب مفــاجىء تستولى على « جياكومو » . ولحق بالفتاة ، فأمسك بذراعها ، وصاح : « لسوف تكون لكل هذا تبعات جسيمة ، يوما ما . فاذا قدر لحكومة شيوعية ان تستولى على مقاليد الحــكم يوما ــ على سبيل المثــال ــ وصدر منى قول ضدها ، فلسوف تشين بى ! »

فصاحت بدورها ، ردا عليه : « ومــا الذى يدعوك الى ان تقول شيئا ضــدها ، وقد قلت لتــوك انك لا تحب ان تزج بنفسك فى أى نوع من أنواع السياسة ! »

ــ كل شىء محتمل الوقوع !
ــ ثم ان الشيوعيين ليسوا فى الحكم .. فلماذا تزعج نفسك بموقف لا وجود له ؟

وجال بخاطره انها خليقة بأن تشى به فعلا ، مادامت لم تنكر قوله أو تنفيه ، لذلك اشتدت قبضتــه على ذراعها ، وكأنما كان راغبا فى أن يؤلمها حقا ، وقال : « الواقع انك لاتحبينني .. هذه هى الحقيقة ! »

فقالت بصراحة ، وهى تحدق فى عينيه ، وقد اخذت شفتها السفلى ترتجف : « ما كنت لأتزوج منك لو لم احبك ! » . وأفعمه صوتها حنــانا ووجدا ، فشــدها اليه وقبلها . وبدا بوضوح ان « سيمونا » قد تأثرت بقبلته ، اذ انتفخت طاقتا أنفها ، وتهدجت أنفاسها . ومع أن ذراعيها ظلتا الى جانبيها ، الا انها ألصقت بدنها ببدنه !

وقال وهو يبتعد عنها ، ويربت وجهها : ((يا جاسوستى .. يا جاسوستى الصغيرة !))

فقالت وقد تحفزت لفورها : ((لماذا تدعونى جاسوسة ؟ ـ انما أنا أمزح !

* * *

• وتابعا السير .. وراح ((جياكومو)) ـ وهو يسير خلف ((سيمونا)) ـ يسـائل نفسه : أحقا كان يقصـد بمـا قال مزاحا ؟ .. وما شأن غضبه ؟ .. أهذا مزاح أيضا ؟ .. ولم يدر كيف انساق لمثل هذا الغضب الذى لا سند له من عقل أو حكمة ، ولا كيف وجه الى عروسه مثل هذه الاتهامات التى لا مبرر لها .. ومع ذلك ، فقد كان يشعر ـ شعورا مبهما غامضا ـ بأن هذه الاتهامات وذاك الغضب ، انما كان يبررها مسلك سيمونا .

وفى تلك الأثناء ، بلغا الجانب الآخر من الجبل ، وأطلا ـ من أعلى بقعة فى الطريق ـ على الفضاء الهائل المليء بالهواء ، وكأنه بئر لا قرار لها . وبعد خمس دقائق ، تجلى لهما منظر يشمل جانبا كاملا من الجزيرة .. سفحا عريضا ، اخضر ، مكسوا بالكروم المتناثرة وشجيرات التين الشوكى .. وفى أدناه ، عند طرفه الممتد الى حافة البحر ، كان ثمة كثيب جيرى ، قام عليه المنار ، وكأنه معلق فى الفضاء ، بين البـحر والسماء .. وكان يبدو على بعد كبير ، بحيث ان حجمه لم يكن يتجاوز كف الانسان !

وصـفقت ((سيمونا)) طربا ، وهتفت : ((يا له من بهـاء كامل !))

ـ لقد انبأتك بأن المنظر جميل ، فأبيت أن تصدقينى

فقالت وهى تربت خده : ((اغفر لى . انك دائما تفضلنى معرفة ، فيا لي من غبية !)) .. والفى نفسه يقول ، قبل ان

يقوى على كبح لسانه : « او ينطبق هذا على السياسة أيضا ؟ » . فهتفت : « لا ، لا ينطبق على السياسة . ولكن ، اعفنا من هذا الحديث الآن ! »

وسخط على نفسه ، اذ انزلق الى الجدل، ولكنه عانى – فى الوقت ذاته – رجعة الشعور بالغيرة وبالنقص .. ذلك الشعور الذى اعتاد ان يطغى عليه فى كل مرة كانت « سيمونا » تذكر فيها آراءها السياسية فى تعصب يكاد يبلغ مبلغ التقوى والتشبث بالعقيدة الدينية !

وقال فى أقصى رفق استطاعه : « ولم لا نخوض فى هذا الحديث .. لعل كلا منا يزداد فهما للآخر ، اذا نحن ناقشنا الأمر ! »

ولم تجب « سيمونا » .. واخذ «جياكومو» يسير خلفها، وهو فى أقصى درجات الاكتراب . وأصبح هو الذى يضيق بوطأة قيظ النهار ، بينما انتشت « سيمونا » بمرأى البحر ، على البعد ، فراحت تصيح : « تعال نقطع ماتبقى من الطريق جريا ، فلست أطيق تلكوًا عن الغوص فى الماء ! »

وشرعت تعدو فى الطريق ، والحقيبة المعلقة الى كتفها تتأرجح ، وصرخُات الطرب تنبعث من حلقها . ولاحظ « جياكومو » انها كانت تدفع ساقيها فى كل اتجاه ، وكأنها مهر صغير غير مدرب . وقفزت الى ذهنه فكرة مباغتة ، سرت عنه اكتئابه ، فراح يردد لنفسه : « لسوف تكون لى الليلة ! » .. ما قيمة الانتماء الى حزب سياسى ، بالقياس الى ذلك اللون من ألوان الحب ، الذى لا عمر له ، والذى قدر له أن يكون من ألزم لوازم النفس البشرية ؟! .. لقد اعتاد الرجال أن يمتلكوا أجساد النساء ، قبل ان يكون للأحزاب السياسية – بل وللاديان – وجود ! .. وداخله يقين بانه سيقوى – فى اللحظة التى يستولى فيها على جسد سيمونا – على أن يطرد عنها كل ولاء ، اللهم الا ولاء الحب له ! .. وبثت الفكرة فيه

قوة ، فجرى خلف « سيمونا » ، وهو يصيح : « انتظرينى يا سيمونا ! »

ووقفت تنتظره ، وقد تضرج وجهها ، واهتز جسـدها ، ولمعت عيناها .. وقال لاهثا ، وهو يلحق بها : ((الآن فقط ، بدأت اشعر بأننى جد سعيد . أنا موقن من اننا لن نلبث ان نتحاب !))

فقـالت وهى ترمقه بعينيهـا الزرقاوين البريئتين : ((وانا الأخرى أوقن من ذلك !))

وطوق « جياكومو » جيدها باحدى ذراعيه ، وأمسك يدها بيده الأخرى ، وحملها فجعل ذراعها فوق كتفيـه . وسارا على هذه الحال ، ولكن عينى « سيمونا » ظلتا عالقتين بالماء الذى كان يمتد أسفل المرتفع .. أما « جياكومو » ، فكان - من ناحيتـه - لا يقوى على أن يحول أفكاره عن الجسـد الذى كان يشـده اليه بقوة . وكانت ((سيمونا)) ترتدى قميصا من ((الجيرسى)) كأقمصـة الفتيان ، مفتوحا عنـد صدره ، كما كان وجهها يبدو الفتيان - هو الآخر - وقـد تهدل شعرها المشعث القصير على خديهـا . ومع ذلك فان خصرها النحيل كان يلين لذراعه بنعومة أنثوية لاح انها كانت تبشر بالاستسلام الكامل الموعود فى الليلة المقبلة !

وتنهد فجأة ، وهو يهمس فى اذنها : « لسوف تظلين دائما صديقتى ورفيقتى الصغيرة ! »

ولا بد ان فكر « سيمونا » كان متجها الى المنار ، فلم تصل اليه سوى كلمة « رفيقتى » وحدها ، دون بقية الـكلمات ، ودون الرواء العـاطفى الذى كان يضـفى عليها ما قصـده « جياكومو » من معنى . اذ انهـا اجابت مبتسمة : « ليس لنا أن نغدو رفيقـين .. ما لم تر الأمور كمـا أراها ، على الأقل .. ولكنى ساكون زوجتك ! »

فقال « جياكومو » لنفسه ، فى غيرة غير ظالمة : ((اذن، فهى

لاتزال تفكر فى الحزب .. فليس لكلمة ((رفيقة)) أى وقع عاطفى لديهـا .. ان الحزب لا يزال يستـأثر بالولاء الأول منها !))

وقال ، وهو يشعر بخيبة الأمل : ((ما قصدت بها المعنى الذى ترمين اليه)) . فبادرت تصحح موقفها ، قائلة : ((آسفة، فهذا هو اللقب الذى نتنادى به فى الحزب)) .

— انما عنيت انك ستكونين زميلة العمر

فقالت : ((هذا صحيح !)) . ونكست راسها فى حـرج ، وكأنها لم تكن تقوى على ان تتقبل الكلمة الا بمعناها السياسى .

* * *

ه وانزلقت ذراع كل منهما عن صاحبه ، وسارا فى الطريق، وليس ثمة ما يربط بينهما . ولاح لهما أن المنـار كان يسعى اليهما كلما تقدما نحوه ، كاشفا تشكله المخروطى . وكان للماء الممتـد وراءه وميض المعدن تحت أشعة الشمس ، بينما بدا الجبل خلفهما ، وكأنه كان يزداد ارتفاعا ، وقد قام سياج من الصخر الأحمر ، على السفح الأدنى ، الذى كانا يجتـازانه اذ ذاك . وعلى القمة قام بيت صغير ، يحيط به سياج من قضبان، تبينا خلالها اشباح آدميين كانوا يستمتعون بالمنظر .

وقال جياكومو يعرف الفتاة بالمكان : ((هـذه الاستراحة تعرف باسم (لاميجليارا) .. ولقد ألقت فتاة — من بنات (انا كابرى) بنفسها من هذا المكان الى اسفل الجبل ، منـذ بضـع سنوات .. ولـكنها حرصت — اولا — على ان تلف خصلات شعرها حول راسها وفوق عينيهـا ، حتى لا تبصر ما كانت تفعل !))

فرنت ((سيمونا)) ببصرها نحو قمة الجبل ، وهى تقول : ((ان الانتحار خطأ)) . واذ ذاك ، شعر ((جياكومو)) بالغيرة تلدغه من جديد ، وتساءل : ((لماذا ؟ .. هل يحرمه الحزب؟))

فارسلت بصرها نحو البحر ، ودفعت وجهها وصـدرها الى الأمام ، وكأنها تريد أن تعب من النسـيم الذى كان يهب نحوهما ، وقالت : « دعك من الحزب . ان الانتحار خطأ بالغ ، لأن الحياة حلوة ، ولأن البقاء على قيد الحياة نعمة وفرحة ! »

ومرة اخرى ، حاول « جياكومو » صادقا ان لا ينزلق الى الجدل السياسى ، ورغب فى ان يبدى من الهـدوء والتسامح ما كان يعتقده فى نفسه . ولكن غيظه شط به ، من جديد فقال : « ولـكن ت ... (وهـو أسم شاب شيوعى كان صديقا لهما معا) انتحر .. اليس كذلك ؟ »

فقالت ، وهى مصرة على رايها : **« لقد اخطأ »**

ــ ولماذا تعتبرينه كذلك ؟ .. لابد انه أوتى سببا دعاه الى الانتحار .. انى لك ان تعرفى ؟

قالت فى عناد : **« اننى أعرف ما اقول .. لقد اخطأ ، لان من واجبنا ان نعيش ! »**

ــ واجبنا ؟

ــ أجل ، واجبنا

ــ من الذى يقول هذا ؟

ــ لا احد .. ولكنه الواقع

ــ من حقى أن اقول ــ بنفس المنطق ــ ان من واجبنا ان نقضى على حياتنا ، اذا شعرنا انها غير جديرة بالبقاء .. لاأحد يقول ذلك ، ولكنه الواقع !

فأجابته ، وهى تأبى ان تلين : « هذا غير صحيـح ، فقد خلقنا لكى نحيا ، وليس لكى نموت .. ولا يرى الحيـاة غير جديرة بالبقاء سوى العليل ، او الذى يعانى مرارة تؤثر على عقله ! »

ــ اذن فأنت ترين ان « ت ... » كان مملولا ، او ممرورا بدرجة اثرت على عقله .. أهذا رايك ؟

ـ اجل ، اعتقد انه كان كذلك .. فى اللحظة التى اغتال فيها نفسه

وشعر « جياكومو » بميل الى أن يسألها عما اذا كانت هذه وجهة نظر الحزب ، فقد تبدى له ذلك جليا فى نبرات صوتها العنيدة التى اغاظته كل الاغاظة .. ولكنه تمكن من أن يكبح لسانه ، فى هذه المرة .

★ ★ ★

• وكانا ـ فى هذه الاثناء ـ قد بلغا اسفل السفح ، وراحا يجتازان ارضا منبسطة جافة الاديم ، مهجورة ، تكسوها بعض العسالج والشجيرات الشوكية . ثم تحولت الارض الى صخرة .. والفيا نفسيهما أمام المنار ، فى نهاية الطريق ، التى بدت وكأنها نهاية كل عمران آدمى ، وبداية عالم جديد ، منعزل ، من الصخر والحجر الجيرى الذى لا لون له .

واخذ المنار يتطاول بقوامه فوقهما ، كلما أوغلا فى السعى بين المرتفعات ، نحو البحر .. وعند التواء فى الطريق ، اقبلا بغتة على حوض من الماء الاخضر ، تحيط به تلال من الصخر الاسود ، ويحف به الملح المتبلور الجاف .

وهرعت « سيمونا » نحو البقعة المكسوة بالاسمنت ، المفضية الى الحوض ، وهى تهتف : « ياللروعة ! .. هذا عين ما كنت أصبو اليه ! .. بوسعنا الآن ان نسبح ، فالحوض لنا وحدنا .. اننا فى عزلة تامة ! »

ولم تكد تنطق بهذه الكلمات ، حتى ارتفع من بين الصخور صوت رجل : « سيمونا ! .. يا لها من مفاجاة سارة ! » .

ودارا حول نفسيهما .. وما ان تبدى وجه صاحب الصوت ، حتى صاحت سيمونا : « ليفيو ! اهلا ! .. أانت الاخر هنا ؟ .. ما الذى تفعله ؟ »

وكان الشاب ـ الذى برز من بين الصخور ـ قصيرا ، ذا

جسد متين البنيان ، ومنكبين عريضين . وكان رأسه يناقض جسده الرياضي ، اذ كان أصلع ، فليس به من الشعر سوى اطار عند القفا .. كما أن وجهه المنبسط القسمات ، كان له طابع أهل العلم . ولكنه بدا لجياكومو كوجه عفريت ، اذ غشيته كراهية نحوه ، لاول وهلة .. وجه لم يكن ينم عن ذكاء — بالمعنى الصحيح — وانما كان ينم عن مكر وغدر . وكان يعرف صاحب هذا الوجه ، معرفة عابرة ، اذ أنه رآه من قبل ، وعرف انه كان يعمل فى المكان الذى كانت « سيمونا » تعمل فيه .

وأقبل عليهما « ليفيو » وهو يجذب — الى أعلى — ثوب الاستحمام الضيق ، ذا اللون الاحمر الباهت ، ويقول مجيبا عن سؤال سيمونا : « انني أفعل عين ماتفعلين ، فيما أحسب ! »

وهنا ، قالت سيمونا شيئاً أرضى جياكومو كثيرا .. قالت : « هذا أمر غير محتمل .. اللهم الا اذا كنت قد تزوجت .. فأنا هنا فى شهر العسل .. أتعرف زوجى ؟ »

فقال « ليفيو » ، فى غير كثير احتفال : « أجل .. اننا على تعارف » . وقفز هابطا على حجر مربع كبير ، وصافح جياكومو — وهو يشد على يده بقوة اضطرت هذا الى أن يزم عينيه فى ألم — بينما كان يقول : « أجل ، لقد التقينا فى روما ! » . ثم التفت « ليفيو » الى سيمونا ، وأردف قائلا : « لقد سمعت ما أوحى الى بأنك تزوجت . ولكن الواجب كان يقتضيك أن تخبرى الرفاق ، فانهم مشوقون الى أن يشاطروك أفراحك » .

وقال كل هذا بصوت خال من أية حرارة ، وكأنه يتحدث فى عمل من الاعمال ، ولكن لهجته لم تكن مجردة تماما من العاطفة . ولاحظ « جياكومو » أن « سيمونا » كانت تبتسم ، وترجو أن يستمر « ليفيو » فى حديثه ، بينما كان هذا يقف وكأنه تمثال من البرونز على قاعدة من الصخر ، وقد التف سروال السباحة التفافا محكما حول حوضه الضخم ، وبرزت كل عضلات جسده . وكان يوجه اليهما حديثه من عل ، وكأنه

يصبه عليهما . وخيل الى ((جياكومو)) أنه كان يدفع ـ بطريقة ما ـ خارج مجال الحديث ، فانسحب منه ، وأن حل يصغى بأذنين مرهفتين . ودام الحديث بين ((سيمونا)) و ((ليفيو)) عدة دقائق ، دون ان يتحرك كل منهما من مكانه ، وقد راحا يتبادلان الاسئلة عن عمال الحزب العديدين ، وعن المناطق التى قضوا فيها عطلاتهم .

على أن ((جياكومو)) لم يؤخذ بموضوعات الحديث ، بقدر ماأخذ باللهجة التى كانا يتكلمان بها . ترى كيف يصف هذه اللهجة تماما ؟ .. ولماذا كانت تحدث فى نفسه أثرا عكسيا ؟.. وانتهى به التفكير الى انها كانت تنطوى على شىء من التورية والتكتم ، مما كان ينم عن رابطة خفية تختلف عن الصداقة وعن القربى . ومكث لحظة يسائل نفسه : أوليست هذه الرابطة من ذلك النوع الذى يجده المرء عادة بين الزملاء المستخدمين فى مصرف او ادارة حكومية ؟ .. لقد كانت ... وقضى برهة وهو يبحث عن تعبير دقيق لوصفها .. كانت نبرات صوتى راهبين او راهبتين يلتقيان ! .. فلماذا اذن كان لها أثر عكسى على نفسه ؟ .. ماكان ذلك لانه كان يستهجن الاراء السياسية لليفيو وسيمونا ، وان كان من المحتمل أن يقر ـ خلال الجدل المنطقى مع نفسه ـ بأن هذه الاراء كانت من الاسس التى قام عليها ذلك الاثر الممض . بل لا ، ان عداءه لم يكن يقوم على شىء من المنطق او التبرير العقلى ، وانما كان سببه مبهما ، خافيا حتى عليه هو .. وكان ـ فى بعض اللحظات ـ يبدو مرتبطا بغيرته ، وكأنما كان يخشى ان تفر سيمونا منه ، عن طريق روابطها بحزبها !

* * *

• وبينما كانت هذه الخواطر تتوالى على ذهنه ، اكفهر وجهه وغشيته قتامة ، حتى أن سيمونا لم تتمالك ان هتفت

فى عجب ، اذ لحقت به ـ بعد لحظة ـ وهى متهللة الوجه : « ما الذى جرى ؟ .. لماذا تبدو مكتئبا ؟ »

ـ لاشىء .. انه أثر القيظ

ـ لنهبط الى الماء ، اذن .. ولكن ، اين ترانا نستطيع ان نخلع ثيابنا ؟

ـ ماعليك الا ان تتبعينى .. فى هذا الاتجاه

وكان خبيرا بالمكان ، ومن ثم فانه قاد سيمونا خلال درب ضيق بين الصخور ، دلفا منه الى صخور أخرى أقل ارتفاعا من السابقة ، ثم دارا حول كتلة ضخمة كانت تستر ساحلا صغيرا ، صاغته الطبيعة من رمل أسود متناه فى النعومة ، امتد تحت جدران صخرية سوداء لامعة ، احاطت ببركة ماء ضحلة ، امتلأت بأعشاب البحر . وبدا المكان وكأنه حجرة ، قامت السماء منها مقام السقف، والماء مقام الارض ،والصخور مقام الجدران .

وقال جياكومو ، وهو يتلفت حوله : « مامن حوض سباحة يضارع هذا ! »

فقالت سيمونا ، وهى تتنهد فى ارتياح : « بوسعى أن اخلع ثيابى فى ستر عن العيون أخيرا ! »

ووضعت حقيبتها على الرمال ، وانحنت عليها لتخرج منها زى السباحة ، بينما استند ((جياكومو)) الى الصخور، ونضا عنه سرواله وقميصه فى ثانية واحدة . وجعلها مظهره العارى، تطلق ضحكة عصبية . وقالت : ((انه مكان من تلك الاماكن التى يستطيع المرء أن يسبح فيها عاريا . أليس كذلك ؟))

فأجاب جياكومو ، وهو يفكر فى ليفيو : ((ولكن المرء لايستطيع أن يطمئن الى وحدته ، لسوء الحظ !))

وسار على الرمال الندية حافيا ـ وهو لا يزال عارى الجسد ـ فى اتجاه الفتاة ، ولكنها لم تلمحه ، لانها كانت تخلع قميصها من فوق راسها . وخطر له ان عريها كان يبديها

اكثر عذرة وبراءة من ذى قبل . وكان لثدييها المتدليين ، المستديرين ، حلمتان كبيرتان ورديتان ، يحيط بهما جو من الطهر ، وكأنهما لم تستكينا قط للمسات أى رجل . والواقع ان طابع البكارة والعذرة كان طاغيا ، حتى ان جياكومو لم يجرؤ على أن يضم الفتاة اليه ، كما كان يعتزم ، وانما وقف على كثب ، بينما كانت تدفع القميص الى اعلى . ثم هزت شعرها الاسود المشعث ، وقالت فى دهشة : « ماذا تفعل ؟.. لماذا لم تلبس سروال السباحة ؟ »

فقال : « لاننى أحب ان امارس معك الحب هنا ، وفى اللحظة ! »

– على هذه الصخور ؟ .. أمجنون انت ؟

– لا .. لست بمجنون

وكانا قد أصبحا وجها لوجه .. وقد تعرى كل جسمه ، بينما تعرى الجزء الاعلى من جسمها حتى خصرها . وعقدت ذراعيها على ثدييها وكأنها تحضنهما وتحميهما ، وقالت فى ضراعة : « لننتظر حتى الليل .. والى ان يحين ، تعال نسبح .. ارجوك .. »

– بل انك سترجئيننى فى الليل ، مرة اخرى

– لا .. لسوف يختلف الامر الليلة عنه فى سابقتها

فابتعد جياكومو فى صمت، وشرع يرتدى سروال السباحة، بينما أسرعت سيمونا – وقد داخلها ارتياح واضح – فارتدت زى السباحة المؤلف من قطعتين ، فى عجلة . وصاحت فى جذل : « اننى ذاهبة لاسبح ، فاتبعنى اذا كنت تحبنى ! »

فقال جياكومو : « لنسبح فى هذا المكان ! »

ووقفت سيمونا ، ثم مدت قدمها الى الاعشاب الخضراء الضاربة الى السمرة ، التى كانت تزدحم فوق سطح الماء ، وقالت : « ان هذه البركة ضحلة موحلة .. انها ليست سوى مستنقع . لنذهب الى المكان الذى اتينا منه منذ لحظات ! »

ــ ولكنا لن نكون وحيدين هناك

ــ أواه، ان لدينا متسعا من الوقت ليخلو كل منا الى الآخر!

وعادا الى الحوض ، حيث كان ليفيو مستلقيا على الحافة الاسمنتية ليحظى بحمام شمس ، وقد رقد ساكنا ، وكأنه ميت . ولم يدر جياكومو لماذا ضاعف هذا المنظر من كراهيته نحوه . أجل ، لقد كان من ذلك الصنف من الشبان الذين يتعمدون أن يعرضوا أجسادهم لأشعة الشمس كي تحرقها ، ثم يروحون يعرضون سمرتهم ، وقد ارتدوا سراويل السباحة القصيرة الضيقة ، التي صممت بحيث تبرز مظاهر فحولتهم!

واذ فطن «ليفيو» الى قدومهما ، قفز مستويا على قدميه وقال : « هيا ياسيمونا .. لنقفز الى الماء ونتسابق الى تلك الصخرة ! »

فقالت فى ابتهاج ، وقد نسيت زوجها : « جدير بك ان تدعنى أسبقك بمسافة »

ــ سأدعك تسبقيننى بثلاث مسافات ، اذا شئت !

ولم يتمالك «جياكومو» ان يلمس عين روح الالفة، والتكتم ، والزمالة، والوحدة الحزبية، فى نبرات الصوت الذى لم تتحدث به اليه هو قط ــ رغم زواجهما ــ وقد لا يحتمل ان تتحدث به اليه يوما . وجلس على صخرة مسطحة ، تشرف على المكان ، وراح يراقب زوجته وهى تقذف بنفسها الى الماء متهيبة، ثم تسبح كشبح أسمر تحت سطح الماء المخضوضر .. ولم تلبث أن برزت من تحت السطح، وراسها الاشقر يقطر ماء

وصاح « ليفيو » ، وهو يغوص فى براعة تامة ، ليلحق بها : « لقد كان اسلوبك فى الغطس خاطئا ! » . وراح يسبح تحت الماء ــ هو الآخر ــ ولكنه مضى الى أبعد مما مضت سيمونا ، فلما برز من تحت الماء ، كان أبعد منها موقعا . وساءل جياكومو نفسه : الا يحتمل ان تكون « الرابطة الحزبية » علاقة من وحى خياله ؟ .. والا يجوز انه كانت ثمة رابطة من

الالفة الوثيقة بين سيمونا وليفيو ، فى الماضى ؟
وتبين ان الاحتمال الثانى لم يكن فى مجموعه أقل من الاخر ايلاما . وقال لنفسه ان « سيمونا » خليقة بأن تثور ـ اذا هو أفضى اليها بشىء من وساوسه هذه ـ وان تصفها بانها « بورجوازية » بحتة ، ان لم تقل أنها « قذرة ، خبيثة » ! .. وفى اللحظة التالية ، طرح عنه تلك الشكوك ، بوصفها غير ذات موضوع ! .

لا ، ان « سيمونا » و « ليفيو » لم يكونا سوى رفيقين ، كما قالت هى .. رفيقين ، لا أكثر ! .. على ان الشىء الذى ظل يحيره ، هو : لماذا كان أكثر توجسا من كونهما رفيقين فى « الحزب » ، عنه من كونهما عاشقين ! .. وقال لنفسه ـ فى مجهود متخاذل ، أراد به ان يكون متسامحا ـ ان غيرته كانت سخيفة ، وان الواجب يقتضيه ان يطردها من ذهنه !

* * *

• وكان « جياكومو » ـ طيلة هذه الاثناء ـ لا ينفك عن مراقبة الاثنين وهما يتسابقان فى الماء المخضوضر ، المتألق ، متجهين صوب صخرة مستديرة ، كانت تبرز من الماء عند الطرف الاقصى من الحوض .. ووصل « ليفيو » أولا ، فرفع نفسه من الماء ، وصاح مناديا سيمونا ، قائلا : «لقد فزت !.. ولقد خسرت أنت السباق تماما ! »

فقالت سيمونا لاهثة : « تكلم عن نفسك فقط ! »

وخطر لجياكومو أن هذا هو نوع الدعابة المصوغة فى قالب الاهانة ، التى كان جديرا به وبسيمونا ان يتبادلاها فيما بينهما .. اذا لم يتمازحا بهذا الشكل ـ فى شهر العسل ـ فمتى يقدر لهما أن يفعلا ؟

ونهض من مجلسه فى عزم ، وجرى بضع خطوات على حافة الماء ، ثم ألقى بنفسه اليه . وهبط على بطنه ، فأهاجه

الالم ، وبعـد أن سبح مسـافة تحت الماء ، برز الى سطحه ، وشرع يسعى نحو الصخرة التى جلس عليها ليفيو وسيمونا . وكانا متقاربين ، وقد راحا يتكلمان دون انقطاع ، وهما يهزان سيقانهما . ولم يستسغ المنظر .. بل أن مرآهمـا فى هـذا الوضع ، سلبه ـ فى الواقع ـ كل الابتهاج الذى شعر به من جراء انغماسه فى الماء البارد ، وهو دافىء الجسد ، مغبره !.. ومضى يسبح وهو مغيظ ، حتى وصـل الى الصخرة وقد تقطعت أنفاسه ، فقال وهو يتعلق بحافتها : « هل لاحظتمـا أن هذا الماء بارد جدا .. جدا ! »

فقالت سيمونا وهى تقطع الحديث لترميه بنظرة عابرة : « لقد بدا لى دافئا ! »

وقال ليفيو : «لقد سبحت هنا فى شهرابريل .. واستطيع أن أؤكد لك ان المـاء كان باردا اذ ذاك .. تلك كانت البرودة حقـا ! »

فسألت سيمونا الشاب فى فضول بدا لجياكومو انه انطوى على شىء من المداعبة المدللة : « وهل كنت وحدك ؟ »

فأجابها ليفيو : « لا ، بل جئت مع نيللا »

وكان جياكومو يحاول أن يتسلق الصخرة ، ولكن البقعـة الوحيدة التى كان يستطيع أن يجد فيها مستقرا لقبضتيه ، كانت عين البقعة التى جلس فيها ليفيو وسيمونا . ولاح انهما كانا متغافلين عن نضاله ، فآثر أن لايسألهما أن يتزحزحا . واستطاع ـ اخيرا ـ أن يقبض على نتـوء بارز ، ذا حافـة مسننة ، فأحدثت احدى أسنانها الما فى كفه ، وهى تغوص فى لحمـه .

وفى اللحظة التى استطاع فيها أن يستوى جالسا ، غاص الاخران فى الماء ، وهما يصيحان : «هيا بنا !» ، فأمطراه بنثار وحملق فيهما مستشيطا ، وهما يتسابقان نحو الشـاطىء ، على انه لم يغص ويسبح فى أثرهما الا بعد ان تمالك جأشه ،

فلما بلغ الشاطىء ، كانت سيمونا وليفيو يجلسان فى ظل التل؛ وقد انهمكت الفتاة فى فتح صندوق ـ يحتوى على وجبة غداء ـ تناولته من حقيبتها

وقالت لجياكومو ، اذ اقترب منهما : « تعال نتناول شيئا من الطعام . على أننا يجب أن نشرك ليفيو معنا ، اذ يقول أنه كان يعتزم ان يعود الى قمة الجبل ، لولا ان التسلق ـ فى هذا الحر ـ ضرب من الجنون ! »

وجلس جياكومو الى جوارهما على الصخر ، دون ان ينبس ببنت شفة . وتجلت محتويات الصندوق ضئيلة : بضع شطائر باللحم ، وبيضتان مسلوقتان ، وزجاجة نبيذ

وقال جياكومو فى خشونة : « على ليفيو أن يقنع بالقليل! »

فأجاب ليفيو فى مرح : « لاتحمل هما، فأنا مقل فى غذائى! »

ولاحت سيمونا مفرطة الهناء ، وهى تجلس ـ وقد عقدت ساقيها ـ منهمكة فى تقسيم الغداء . وأعطت كلا منهما شطيرة ، كما تناولت واحدة قضمتها وهى تسأل ليفيو : «من أين لك بهذه السمرة ؟ »

فأجاب الشاب : « اكتسبتها من ضفاف نهر التيبر ! »

فسألته وهى ماضية فى التهام شطيرتها : « ان فريقك باسره من هواة النهر .. أليسوا كذلك ؟ »

ـ جميعا ، ماعدا ريجينا ، فهى تزدرى النهر كل الازدراء ، وتقول انه ملهاة ارستقراطية فوق مستواها !

وجال بخاطر جياكومو أن الامور التى كانا يتحدثان عنها تافهة وصبيانية . ومع ذلك ، فقد كان بينهما من الود اكثر مما بين الزوج والزوجة .

وقالت سيمونا : « ان ريجينا لن تقوى اطلاقا على أن تنسى نشأتها ، مهما تبذل من جهود جادة ! »

فتساءل جياكومو : « ومن تكون ريجينا ؟ »

فقال ليفيو : « فتاة من جماعتنا .. ابنة غنى من أرباب

الاراضى .. انها لفتاة بديعة حقا ، ولكن المرء لا يمحو الطابع ــ الذى ينم عن نوعه ــ بسهولة ! »

ــ وما هو الطابع الذى تعنيه ، فى هذه الحال ؟

ــ طابع النشأة فى أسرة من الطبقةالمتوسطة ذات الاملاك .. الطابع البورجوازى !

فقال جياكومو فى استفزاز : « لوقدر لكم ، ايها القوم ، أن تستولوا على الحكم ، لبات حتما عليكم أن تمحوا هذا الطابع عن الملايين »

ورد ليفيو فى ثقة بالغة : « هذا عين ماسوف نفعل . هذه هى مهمتنا .. أليست كذلك ياسيمونا ؟ »

وكان فم سيمونا ممتلئا بالاكل ، بيد انها هزت رأسها موافقة . فاستطرد ليفيو قائلا : « لسوف تكون البورجوازية الايطالية بندقة صلبة ، عسيرة الكسر . ولكنا سنهشمها ، ولو اضطررنا الى ان نعدم شطرا كبيرا منها ، فى هذه العملية! »

فقال جياكومو : « وقد يكون من المحتمل ان تكونوا أنتم المعدمون ! »

فعقب ليفيو قائلا : « هذا هو الخطر الذى نخوضه فى مهمتنا ! »

ولاحظ جياكومو ان سيمونا لم تبد انسياقا الى ان تتمشى مع ليفيو فى استهتاره وتهوره ، فقد عبست حين لفظ عبارته الأخيرة ، ولم تنبس بكلمة تحبيذ . ولا بد أن ليفيو فطن الى ذلك ، اذ انه بادر الى تحويل مجرى الحديث بفتة ، فقال : « لقد كان جديرا بك ياسيمونا ان تخبرينا بأنك كنت تعتزمين الزواج .. كان هذا واجبا عليك حقا . فهناك امور ليس من الصواب اخفاءها ! »

وشابت رد سيمونا رنة حنان قصدت بها جياكومو ، اذ قالت : « لقد كنا نرجىء العزم من يوم الى آخر .. ولم يحضر الزواج سوى شاهدى العقد .. حتى اهلنا لم يحضروه ! »

- اتقصدين انكما لم ترغبا فى اطلاعهم على الامر ؟

- لم نـكن راغبين ، وما كان من المرتقب أن يحضروا ، لو اننا أخبرناهم .. فان والد جياكومو وأمه لم يكونا راغبين فى زواجه منى .

- لانك يسارية متطرفة .. اليس كذلك ؟

فتـدخل جياكومو فى الحـديث قائلا : « لا ، فان اهـلى لايحفلون بالمسائل السياسية البتة . ولكن أمى كانت تضـع عينها على فتاة معينة .. »

وقال ليفيو بعد أن قضم لقمة أخرى من شطيرته : « انهم قد لا يحفلون بالمسائل السياسية ، كما تقول ، ولـكن هنـاك مناسبات تقحم الناس فى السياسة دائما .. وكيف لايـكون ذلك ؟ ان السياسة تختلط بكل شىء فى أيامنا هذه ! »

وقال جياكومو لنفسه ، ان هذا صحيح فعلا ، فالسياسة تدخـل كل شىء .. حتى شهر العسـل ، وأول عنـاق بين العروسين ! .. وغاظه اتجـاه أفـكاره ، فقـدم البيضتين المسلوقتين الى زميليه ، قائلا : « كلاهما أنتمـا الاثنان ، فانا لست جائعا ! » .. فقال ليفيو وقـد تجلت الدهشـة على اساريره : « دعك من هذا ! » .. وتساءلت سيمونا : « ولماذا تراك غير جائع ؟ »

- بسبب هذا القيظ اللعين ، على ماأتصور !

* * *

• وتطلع ليفيو الى السحب التى كانت تسبح فى السماء ، وقال : « لسوف تهب عاصفة قبل حلول الليل .. أستطيع ان أؤكد لكما هذا »

وكان حديث ليفيو يتالف من عبارات تقليدية شائعة مألوفة ، على ماتراءى لجياكومو . ولكن سيمونا كانت تبدو ميالة الى هذه العبارات ، فقد كانت اكثر من كل محـاولاته توفيقا فى

عادت سيمونا تردد : « استلق هنا ، ولنختطف بضع لحظات من النعاس ! »

واسندت ظهرها الى الصخرة ، فاستلقى جياكومو على الارض ، وأسلم رأسه الى حجرها ، وقد فاض فؤاده بالحب . ومرت براحتها - فى تردد واستحياء هياب - على خديه ، وانحدرت بها الى ماتحت ذقنه ، ثم ارتفعت بها الى رأسه ، فارسلت اصابعها خلال شعره .

وعندما فتح جياكومو عينيه للحظة خاطفة ، رأى أنها كانت تنظر اليه فى اهتمام وفضول صبيانيين . واذ التقت نظراتهما ، انحنت فطبعت قبلة سريعة على كل من عينيه ، وطلبت اليه ان ينام . فعاد جياكومو يغلق عينيه ، وأسلم نفسه لمتعة لمسات يدها الصغيرة التى لم تكف عن الحركة المتحسسة .. ثم اغفى فى النهاية !

ونام فترة لم يدر مداها ، ثم استيقظ وهو يشعر برعشة ، فاذا « سيمونا » لاتزال جالسة فى وضعها الاول ، ورأسه فى حجرها . واذ تطلع الى أعلى ، أدرك سر شعوره بالرعشة ، اذ كانت السماء زاخرة بسحب عاصفة قاتمة . وسأل سيمونا : « ترى كم قضيت فى نومى ؟ »

- حوالى ساعة .

- وماذا كان شأنك انت ؟

- اننى لم انم ، بل كنت اتأملك

- لقد اختفت الشمس

- اجل ..

ـ ولن تلبث ان تهب عاصفة ممطرة هوجاء

فقالت ، وكأنها تتخذ من الخبر ردا على حديثه : « لقد انصرف ليفيو »

وهنا تساءل جياكومو ، دون أن يتحرك : « بهذه المناسبة من يكون هذا الليفيو ؟ »

ـ انه رفيق فى الحزب .. صديق

ـ لست أرتاح اليه

فقالت مبتسمة : « أعرف ذلك ، فقد أظهرت شعورك جليا . وقد أشار اليك وأنت نائم ـ عندما هم بالانصراف ـ وسألنى : ما شأنه ؟ أترينه كان يضيق بى ؟ »

ـ لست أكن له شيئا، ولكنه .. لم يؤت شيئا من الذوق . اننى فى شهر عسلى، ولكنه راح يتصرف وكأنه شهر عسله هو !

ـ انه شاب طيب

ـ لقد كنت تهوينه .. اعترفى !

واطلقت فيضا من ضحك برىء رنان ، وقالت : « لابد انك معتوه ، فما كان من المحتمل أن أقع فى هواه ، لانه لايستهوينى فى شىء ! »

ـ ولكن الطريقة التى كنتما تتحدثان بها ..

فعادت تردد له : « انه رفيق فى الحزب ، وهذه هى طريقتنا فى الكلام » . واخلدت الى الصمت برهة ، ثم اردفت فى تحمس لم يكن متوقعا : « انه مجدب الذكاء .. وهذا هو السر فى انه لايروق لى »

ـ انه لايبدو لى اكثر غباء من اى رجل آخر

فاستطردت فى حنق : « لقد ذكر كثيرا من الامور الدالة على حمق .. قال ـ مثلا ـ اننا سنقتل الناس .. انه يعرف الحقيقة ، ولكنه يتكلم على هذا النحو ، على سبيل الزهو الكاذب .. غير أن القاء الكلام على عواهنه ، على هذا النمط ، يضر بالحزب ! »

ـ انت اذن التى تضيق به ، وتكن له فى النفس شيئا
ـ لا .. لست أحمل له فى النفس شيئا ، ولكنه لم يؤت حقا فى أن يتكلم على هذا النسق !

وما لبثت أن أردفت فى فتور بارد : «على أنه من الشخصيات المهمة للحزب ـ فى الواقع ـ وان لم يكن لامع الذكاء . فهو من ذوى الولاء المطلق للحزب ، ومن الممكن تكليفه بأى شىء !»

وشجع قولها جياكومو على أن يتساءل مازحا : « وأية اهمية لى أنا ؟ »

ـ لاسبيل الى أن تكون لك اهمية ، مادمت لست منا

واستاء جياكومو من هذا الرد ، فنهض وتطلع الى السماء التى كانت سحبها تزداد انخفاضا ، وقال : « يحسن بنا أن نعود قبل أن تهطل الامطار . فما قولك ؟ »

ـ أجل ، أظن أن هذا من المستحسن !

وتردد جياكومو لحظة ، ثم أحاط خصرها بذراعه ، وسألها فى رفق : « عندما نصل الى هناك .. هل تستسلمين لى .. اخيرا ؟ »

وأخذت السحب تنتشر فى السماء بسرعة مخيفة ، تسوقها ريح قوية ، فغذت سيمونا السير ، حتى أوشكت أن تنطلق جارية . ولم يتمالك جياكومو أن قال مداعبا : « أتخافين من البرق ؟ .. ترى ما الذى يقوله الرفاق فى هذا ؟ .. ليس لماركسية صالحة ـ مثلك ـ أن تكن خوفا كهذا »

فقالت بصوت صبيانى ، دون أن تلتفت اليه : « انه اقوى منى ! »

* * *

٥ وكانت ثمة درجات سلم ، تبدأ ضيقة ، ثم تتسع ، لتيسر صعود الشطر الاسفل من الطريق التى كانت تمتد صاعدة ، فى انحناءات واسعة ، خلال بساتين الزيتون .

وسارت سيمونا فى المقدمة ، تسبق جياكومو بمسافة طويلة ؛ فكان يراها توسع الخطى ، على بعد خمسين أو ستين قدما منه . حتى اذا بلغا القمة ، توقفا ريثما تمالكا انفاسهما ، وأجالا البصر حولهما . وكانت (انا كابرى) خلفهما – فى تلك اللحظة – وقد قامت شامخة ، وراء حاجز أخضر ، وكأنها احدى المدن العربية ، بشرفاتها ، وبأبراج كنائسها وقبابها الداكنة ! .. وأشار جياكومو الى المنار المتضائل ، على الهضبة الدنيا ، وقد قام راسخا وسط العاصفة المنذرة بالانقضاض . وتمتم : « تصورى ! .. لقد كنا منذ لحظات هناك ! »

فقالت سيمونا .. ولعلها كانت تتصور – فى خيالها – الرعد والبرق : « لست أطيق التلكؤ فى العودة الى البيت ! » . ثم أردفت فى اغواء ، وقد التقت نظراتها بنظراته : « ما رأيك أنت ؟ »

فأجاب بصوت خفيض ، وقد تأججت عواطفه : « اننى أقر رأيك »

وكان التسلق قد انتهى ، فلم يعد عليهما سوى أن يتبعا الطريق المنحدرة فى رفق وهوادة نحو الدار التى استأجراها ، والتى كانت تقوم فى هذا الجانب من (آنا كابرى) . وسارا بحذاء السياج المحيط بدار « مونته » ، ثم اوغلت الطريق فى مرج نبتت فيه أشجار البلوط ، وهناك ، عند أحد المنحنيات ، كان السياج الابيض المحيط بدارهما ، والبوابة الحديدية الصدئة ، يقبعان فى ظلال احدى شجرات الخروب ، وقد تدلت القرون من فروعها . وكانت السحب قد أصبحت تخيم فوقهما ، وقد بدت فى ظلمة المساء . ودفعت سيمونا البوابة بسرعة ، واندفعت داخلة ، دون أن تنتظر ريثما يلحق زوجها بها . وازداد جياكومو ابطاء وهو يجتاز الدرجات الرخامية ، بين شجيرات الصبار الشوكية . وفيما كان يسير ، انبعث قصف الرعد .. وكان هزيمه فى هذه المرة ، أعلى منه فى المرة

السابقة ، فكأنه عربة من عربات السكك الحديدية ، انقلبت - فوق تل - بحمولة من الاحجار ، فتدحرجت حمولتها هذه ! .. وصاحت سيمونا من داخل الدار : « أحكم اغلاق الباب ! »

وكان البيت يقوم على سفح تل ، متواريا بين الاشجار .. وكان يتألف من أربع حجرات متواضعة الاثاث . وولجه جياكومو متلمسا طريقه فى ظلام شبه تام .. ولم يكن ثمة نور كهربائى ، وانما كانت هناك مصابيح تضاء بالنفط ، متباينة الاشكال والالوان ، وقد صفت على منضدة البهو . فرفع جياكومو زجاجة احدها ، وأشعل ثقابا فمس به الفتيل ، ثم رد الزجاجة مكانها ، وولج غرفة المائدة . ولم يكن بها من أحد ، ولكنه سمع سيمونا وهى تتحرك فى الحجرة المجاورة لها .. ولم يشأ أن يلحق بها توا ، بل صب لنفسه كوبا من النبيذ الابيض ، اذ شعر بالظمأ . ثم تناول المصباح - فى النهاية - وسار الى باب المخدع ، فاذا بهذه الحجرة مظلمة تقريبا ، هى الاخرى .. وكانت النافذة المطلة على الحديقة مفتوحة ، فلمح جياكومو خلالها - على ماأبقت عليه الغيوم من نور - شرفة الدار ، وقد حفت بها اشجار الليمون المغروسة فى أصص كبيرة .

وكانت سيمونا تسوى الفراش المهوش الاغطية ، وقد ارتدت غلالة من غلالات النوم . فوضع المصباح على المنضدة القائمة بجوار السرير ، وقال : « أما زلت خائفة من البرق ؟ »

وكانت تميل على السرير ، تسوى أغطيته ، وقد رفعت احدى ساقيها قليلا . فاعتدلت مجيبة : « لا .. بل اننى اشعر بالطمأنينة ، اذ أصبحت داخل البيت »

- وهل انت خائفة منى ؟

- ماشعرت بالخوف منك أبدا !

ودار جياكومو حول السرير ، ثم احتواها بين ذراعيه . وتبادلا قبلة ، وهما يقفان عند راس السرير . وفك جياكومو

حزام غلالة سيمونا ، فانزلقت عن كتفيها ، ثم عن ردفيها ، وهوت الى الارض . ولكن سيمونا لم تقطع قبلتها ، بل انها - فى الواقع - اطالت أمدها فى شوق يخالجه استيحاء ، ففضحه انتفاخ طاقتى أنفها على النحو المألوف منها . وأفلتها جياكومو وقد حزم امره فجأة .. وقال وهو يخلع ثيابه فى عجلة : ((هلا رقدت ؟))

وترددت سيمونا ، ثم استلقت على السرير . وشعر جياكومو بأحاسيس حيوانية عنيفة تهيجه ، وكانه لم يكن فى دار ، وانما كان فى كهف معتم .. أجل، كأنما كان رجلا بدائيا، تسوقه الشهوة البدنية وحدها . ومع ذلك ، فانه - حين رقد الى جوار زوجته - استلقى فى شىء من الرفق واللطف !

* * *

• وكانت تولى الحائط وجهها ، ولكنها تقلبت فجأة ، وبحدة ، والتصقت به ، مندسة فى احضانه . وظلا فى رقدتهما هذه ساكنين - لبضع دقائق - ثم بدأ جياكومو يتحسس جسدها فى لطف وفى غير قحة . فقد كان يرجو ان يستولى عليها برغبتها ، ووفقا لما يمليه عليها طهرها العذرى ، دون ان يستعمل شيئا من خبرته وفحولته.. وسعى بلمساته الخفيفة وكلماته التى راح يسكبها همسا - خلال شعرها - فى اذنها ، الى أن يهدىء مخاوفها ، والى ان يستدرجها - دون ان تفطن، تقريبا - للاستسلام له . ولم يكن فى عجلة من الامر ، بل خيل اليه ان هذه السياسة الجديدة ، المبنية على مراعاة ظروفها ، وعلى الصبر ، خليقة بأن تكسبه ماأدى التعجل الى فشله فى الظفر به ، فى ليلته السالفة .. ودخله احساس بأنها كانت تستجيب - شيئا فشيئا - لكلماته ولمساته ، وبأنها كانت على وشك ان تسلمه جسدها ، ومعه ذلك الجزء من اعماق نفسها الذى كان يقاومه قبل الان !

ولم تنبس سيمونا ببنت شفة ، ولكن أنفاسها أخذت تزداد

تهدجا ، وعلى حين غرة ، انساق ــ على غير ارادة منه ، تقريبا ــ لحافز طبيعى ، وحاول أن يغتصبها . ولاح على سيمونا ــ فى البداية ــ أنها توشك أن تستسلم ، تحت ضغط جسده . ولكنها تمردت فجأة ، فى حدة ، وناضلت كى تخلص نفسها . وهمست فى مزيج من الحنق والخنوع : « لا استطيع ذلك ! لا أستطيع ! »

وأبى جياكومو أن يحفل بتقلب فؤادها ، وحاول أن يسيطر عليها بالقوة . ودافعت عن نفسها بيديها وقدميها وركبتيها ، بينما كان يبذل كل جهده للتغلب عليها . وفى هذا الصراع ، غرق جسداهما فى فيض من عرق لزج . وما لبث جياكومو ان فقد صبره ــ فى النهاية ــ فقفز من السرير ، وسار الى الحمام ، قائلا : « سأعود بعد دقيقة ! »

وتلمس طريقه الى حوض الاغتسال ــ وقد اندفع على هدى الهام جامح ــ فتناول الموسى الذى استخدمها فى ذلك الصباح ، فى ازالة لحيته ، وغرسها فى باطن ابهامه . وشعر بالسلاح البارد يشق جلده ، ولكنه لم يحس ألما . ثم رد الموسى الى مكانها من الرف ، واعتصر ابهامه فتدفق منه الدم غزيرا . وعاد الى حجرة النوم ، فارتمى على زوجته ، وهو يحك ابهامه الدامى بالغطاء ، فيما بين ساقيها . ثم صاح محنقا : « لعلك لم تفطنى الى ماجرى .. ولكنك لم تعودى عذراء ! »

وسألته ، وهى ترتجف : « وكيف عرفت ؟ »

ــ انظرى !

وتناول المصباح عن المنضدة ، ووجه ضوءه الى السرير . وجلست سيمونا القرفصاء على الوسادة ، وقد رفعت ركبتيها الى ذقنها ، وعقدت ذراعيها فوق ثدييها . واطلت على المكان الذى اشار اليه جياكومو ، وقد قرب منه المصباح ، فرأت خيطا طويلا من الدم القانى . واختلجت اجفانها فى اشمئزاز ، وقالت : « أمتأكد أنت ؟ »

– كل التأكد !

على أن عينيها وقعتا – فى تلك اللحظة – على اليد التى كان جياكومو يحمل بها المصباح ، فاذا الدم ينساب من القطع الذى كان فى باطن ابهامها . وصاحت فى صوت محتج شاك : « ليس هذا دمى ، ولكنه دمك انت ! .. لقد جرحت نفسك خصيصا ! »

ورد جياكومو المصباح الى المائدة ، وصاح ساخطا : « انه الدم الوحيد الذى سأراه الليلة ، وفى أية ليلة مقبلة ! .. انك لاتزالين عذراء .. وستظلين دائما .. »

– لم تقول هذا ؟ .. ماالذى يدعوك الى هذه القسوة ؟

فأجاب : « هذا هو الواقع ! .. انك لن تكونى يوما ملكا لى ، اذ ان جزءا من نفسك يكرهنى ، وسيظل دائما معاديا لى »

– وأى جزء تعنى ؟

فقال وهو يطلق غيرته سافرة ، بعد طول كبح : « انك أقرب الى ذلك الاحمق « ليفيو » منك الى أنا .. وهذا الجزء منك – الذى يميل الى ليفيو – هو الذى يكرهنى وينفر منى ! »

– هذا غير حقيقى

– بل هو الحقيقة .. انه يعادل فى حقيقته انك لن تحجمى عن أن تشى بى ، اذا قدر لحزبك ان يتولى الحكم ! ..

– ومنذا الذى يقول ذلك ؟

– لقد قلته انت نفسك ، فى هذا الصباح ، ونحن فى الطريق الى المنار

– اننى لم اقل شيئا من هذا البتة !

– اذن ، فما الذى تراك فاعلة اذ ذاك ؟

وترددت لحظة ، ثم لم تلبث أن قالت متسائلة :

– ماالذى يدعوك الى أن تثير مثل هذه الامور ، فى وقت كهذا ؟

– لانها تحول بينك وبين ان تحبينى وأن تصبحى حليلةلى !

وصمتت برهة ، ثم قالت ، فى النهاية :

ـ لن اشي بك .. كل ماسوف أفعله ، هو أن اهجرك !

فصاح وقد اشتد به الغيظ عن ذى قبل :

ـ ولكن المنتظر منك أن تشى بأعدائكم .. انه واجبك !

وانهمرت الدموع من عينيها ، وهى لاتزال منكمشة فى جلستها عند رأس السرير .. وقالت : « لماذا تبدى كل هذه القسوة ياجياكومو ؟ .. لسوف أقتل نفسى .. هذا هو ماينبغى أن أفعله ! »

ولم يجد جياكومو من نفسه الجرأة على أن يذكرها بأنها دمغت الانتحار ـ وهما فى الطريق الى المنار ـ بانه تصرف سقيم ، لا يمكن اقراره اطلاقا .. لقد كان هذا التناقض أكثر ارضاء لجياكومو من أى افضاء صريح بالحب ، على كل حال !

ونهضت فغادرت السرير ، وهى لاتزال دامعة ، وسارت الى النافذة المفتوحة ، بينما ظل جياكومو مستلقيا على الفراش ، يرقبها . ووقفت منتصبة القامة ، وقد استندت بذراع مرفوعة الى اطار النافذة ، وأمالت راسها جانبا

وفجاة ، فاض فى الحجرة وفى خارجها .. غمر الجسد ضوء ثاقب ، غمر كل شىء فيها العارى ، الابيض ، كما غمر الحديقة واشجار الليمون التى حفت اصصها بالشرفة . ثم انبعثت قرقعة معدنية ، وهزيم عنيف هز النافذة وجدران الحجرة . واطلقت « سيمونا » صرخة جزعة ، وبارحت

النافذة ، والقت بنفسها بين ذراعى زوجها وهى تبكى !

وضمها ((جيكومو)) اليه .. وفى النو ، وبينما كانت تلوذ بأحضانه ، وهى سادرة فى البكاء ، استولى على بدنها دون اى عناء يذكر ! .. وخيل اليه أن زهرة دفينة ، ذات ورقتين وحيدتين ، قد تفتحت - وهى لاتزال مستترة - لشىء قام مقام الشمس فى ليل البدن المظلم !

ولم يستقر على راى بصدد عواطف عروسه نحوه ، بل جال بخاطره أن هذا أمر يسوى فيما بعد .. فقد كان حسبه - فى تلك اللحظة - أن يعرف أنها كانت على استعداد لان تقتل نفسها .. من أجله !

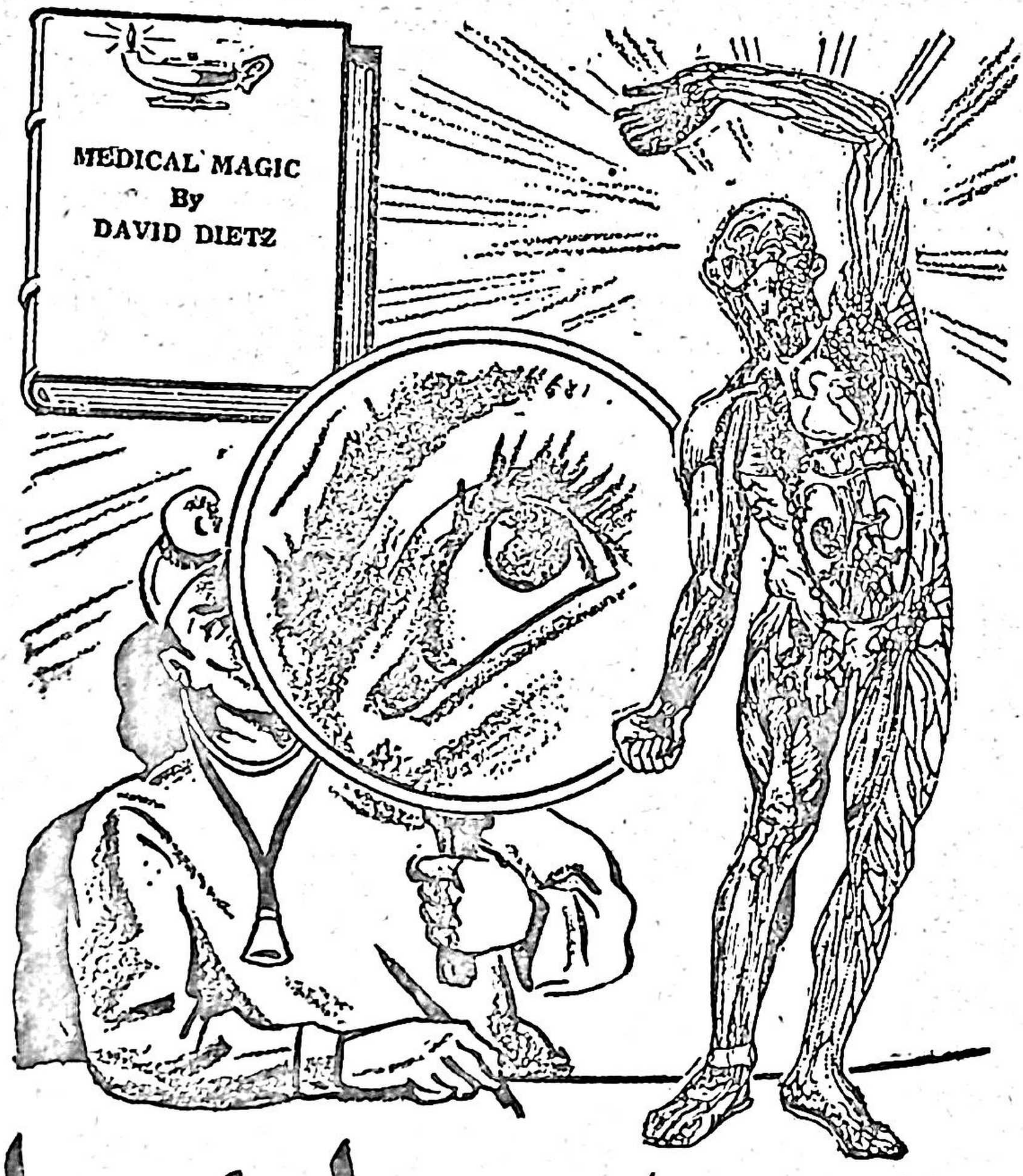

جسمك !!

هذا العالم الحافل بالأسرار والمعجزات !!

للباحث الطبي العالمي : الدكتور دافيد ديتز

تلخيص : فوزى الشنتوى

مصانع ومعجزات فى جسمك !

◆ ما أشبه جسم الانسان بعالم محفوف بالغموض والاسرار .. أسرار هى فى الواقع من آيات اعجاز الخالق . وفى كل يوم تظهر آية ، اذ يوفق العلم الحديث والبحوث الطبية الى ازاحة الستار عن سر من هذه الاسرار .. فما الذى تعرفه عن جسمك ؟ ... عن المصانع والمعامل التى تعمل فى جوفه ؟.. عن الاجهزة الدقيقة التى تكفل الحياة ، او تقضى بالموت ، أو تؤدى الى انكماش الجسم ، او تعمل على تضخمه حتى تحيله الى عملاق هائل ؟ .. عن العلل والامراض ومنشأها وأسباب الوقاية منها وطرق علاجها ؟

هذا ما حرص مؤلف الكتاب على أن يسوقه اليك فى اسلوب مبسط ، مستساغ .. فرأى « كتابى » أن يلخصه اليك بأمانة ومزيد من التبسيط .

◆ أن التقدم الباهر الذى يحظى به الطب – فى ايامنا هذه – يجعله فى مصاف السحر .. ولا عجب ، فقد اقترن الطب بالسحر فى الماضى ، ولا يزال مقترنا به بين الأقوام البدائية فى عصرنا الراهن . فترى « الطبيب » – فى تلك الأقوام – يستعين بهيكل عظمى لثعبان ، وبدم « الوطواط » ، ومخ « الضفدعة » ، وأعشاب تجمع من مستنقع رهيب فى ليلة قمرية ، وعرف ديك اسود يذبح فى منتصف الليل ، بين الطقوس الغريبة والتعاويذ !

أفتظن أن أساليب الطب الحديث تختلف كثيرا عن هذه ؟.. ان هذا الطب يعالج داء « الكلب » – مثلا – بمصل يأخذونه من العمود الفقرى لكلب مسعور ، ويذيبونه فى محلول خاص يحقنون به الانسان المصاب لتحصينه ودرء خطر الداء الفتاك الذى ينجم عنه لعاب الكلب المسعور ! .. ولقد كان داء « الدفتيريا » اللعين يفتك بالبشر ، الى ان وفق الطب الى استخراج مصل لمقاومته ، من دم الجياد والبغال !.. والواقع انك قل أن تجد حيوانا يعفيه سحر الطب الحديث من تزويد

الانسان بمصل أو ترياق ضد مرض أو اكثر . **كما ان الطب يتخذ من مملكة الحيوان حقلا للتجارب التى يسترشد بها فى معرفة مقادير الجرعات المناسبة من بعض العقاقير . فان من هذه العقاقير ما يكون قليله شفاء ، وكثيره هلاكا ! .. والواقع ان الحيوان يقوم بدور هام فى البحوث الطبية ، اذ يجرى عليه الباحثون تجاربهم لعلاج الامراض المستعصية ، مستعينين بمختلف الاخصائيين فى فروع الطب ، كوظائف الأعضاء ، والغدد .. الخ . ولكل هؤلاء الاخصائيين بدورهم ، بحوث فى فنونهم .**

وهكذا نجد ان الطبيب الحديث ساحر ، يستعين كسلفه — فى العصور الغابرة — بالحيوان والاعشاب .. وكل ما بينهما من فارق ، هو ان الطبيب القديم كان يستعين بالخرافات والمعلومات المتوارثة وطقوس السحر والشعوذة ، بينما يستعين زميله الحديث بالمعرفة القائمة على العلم والتجربة والمنطق المحكم والحساب الدقيق (١)

الغدد الصماء .. معجزة الطب الحديث !

• بل ان سحر الطب الحديث يفوق سحر الطب القديم فى معجزاته ، فقد استطاع ان يهتدى الى ان ثمة تيارات كهربائية تنبعث من اعضاء الجسم . وبتسجيل هذه التيارات ، اصبح من الميسور دراسة علل القلب والرأس والجهاز

---

(١) وتهتم الاوساط الطبية فى مصر ، بدراسة الوصفات البلدية . وقد استطاع الخبراء ان يستخلصوا من المواد التى تستخدم فى بعض هذه الوصفات — كالشيح وبذر الخلة — عقاقير طبية ذات مفعول قوى فى علاج عدد من الامراض . وقد استعين بالحيوان فى الوصول الى بعض هذه العقاقير . اذ يشاهد ان قطعان الماعز تقبل على بعض الاعشاب — فى مرعاها — وتعرض عن بعض آخر . وبالتحليل الكيمياوى ، تبين ان للاعشاب الاولى فوائد ، وللثانية مضار . وهكذا لا يجد الطب غضاضة فى ان يتعلم من الحيوان !

العصبى .. كما انه استطاع ان يستعين بالكهرباء الخارجية ، وبالاشعاعات المنبعثة من بعض المواد ، أن يعالج بعض الأمراض.. فبالأشعـة فوق البنفسـجية يعالج الـكساح ، وباشعاعات « الراديوم » وغيره من النظـائر المشعة يعـالج السرطان .. وبفضل موجات الراديو القصيرة ، أصبح من الميسور احداث حالة الحمى التى تفتك بميكروب الزهرى الخبيث السارى فى الدم !

ولعل أظهر معجزات السحر الطبى الحديث تمكنه من ان يجعل الأقزام تنمو ، وان يحول البلهاء الى عاقلين ـ بفضـل ما عرف عن هرمونات الغدد الصماء ـ وان يطيـل مستوى الأعمار .. بل انه استطاع ان يرد الحياة الى الموتى ، بعد ان توقفت قلوبهم ، فى بعض حالات (١)

ومما يضاعف الآمال ، ان الطب يتقدم بخطوات واسعة فى فرعين هامين ، هما الغدد الصماء والجهاز العصبى . وبفضل هذه المعرفة ، ازددنا فهمـا للجسم البشرى ، اذ توصلنا الى ان الانسان يعيش فى بيئتين : بيئة داخلية ـ تتمثـل فى الدم والسوائل المشتقة منه .. وبيئة خارجية ، تتمثل فى العوامل المحيطة بالانسان كله ! .. والبيئة الداخلية مصونة فى نطاق معين ، يسيطر عليـه جهازان ، احدهما سريع ، تنتقل فيه الاشـارات والأوامر الخاصـة بوظائف الجسم ، عن طريق الأعصاب .. والآخر بطىء ، ويعمل عن طريق مجرى الدم ، بوساطة رسائل كيميـاوية تصل من الغـدد الصماء . وعلى

---

(١) استطاع بعض الجراحين المصريين أن يردوا الحياة الى بعض من توقفت قلوبهم بسبب الصدمات ، فى أثناء العمليات الجراحية . ويعد الروس من اكثر الشعوب تقدما فى هذا المضمار .. والمهم فى الامـر ، أن لا يتوقف القلب اكثر من سبع دقائق ، والا دبت عوامل التحلل فى المراكز العصبية بالمخ ، فلا يعود ثمة سبيل الي اعانة الحياة .

ضوء هذه المعرفة ، يعمل الطب على ان يتيح للانسان حياة طيبة تمتد الى سن المائة !

ويتوقع كثير من كبار العلماء ، أن يكون للغدد الصماء وهرموناتها دور هام فى هذا المجال ، وأن يوفقوا – بادراك العلاقة بينها وبين الجهاز العصبى – الى السيطرة على الموقف. فان الهرمونات تؤثر على الطفل فى مهده ، وهى التى تقرر نموه البدنى والعقلى والعاطفى والجنسى ، وهى التى تؤثر على انفعالاته وطباعه .. وقد لايطول بنا الزمن حتى نرى الطبيب يأخذ عينة من الدم ، من أصبع طفل ما ، فيستطيع – على هدى تحليلها – ان يعرف الكثير عن حاضر الطفل ومستقبله ، ونصيبه من الذكاء والغباء ، وتركيب بنيته ومواطن ضعفه !

مصانع وآلات فى جسم الانسان

• **ان** اجسامنا مجموعة ضخمة من المصانع الدقيقة ، التى تنتج عقاقير هامة تؤثر – فى كل ثانية من حياتنا – على ملايين الملايين من الخلايا ، فتتدخل فى التنفس ، وهضم الطعام ، وقوة العظام ، ومقدرة العضلات ، وسلامة الرؤية ، ويقظة المخ . وهى عقاقير حيوية ، اذا غاب بعضها اصبنا بتشنجات مؤلمة ، وغيبوبة يعقبهما الموت .. وتتولى مصانع الجسم انتاج هذه العقاقير بدقة متناهية ، وفق حاجة الجسم. اذ ان الهرمونات قوية جدا ، حتى ان وزن الجرعة الفعالة لا يتجاوز ٧ من ألف من وزن القمحة .. وأقل زيادة فى هذه الجرعة ، قد تؤدى الى الموت !

ويلى ((الهرمونات)) فى الاهمية مجموعة اخرى من الفيتامينات التى اطلقت الحروف الهجائية على انواعها المختلفة . ويرد اكثرها الى الجسم فى الطعام ، كما ان اى نقص فيها يؤدى الى عجز بعض اعضاء الجسم عن اداء وظيفتها . فاذا نقص فيتامين ((ا)) من الجسم ، فان غشاء العين يجف ، وتصاب

بنيتهـا الداخليـة بالالتهاب .. واذا تغيب « ب » ، اعتلت الاعصاب والتهبت. واذا نقص«ج» ،نشأ مرض الاسقربوط.. واذا نقص «د» أدى الى مرض لين العظام والكساح . فبغير الفيتامينات يستحيل نمو الجسم. ولا يزال الباحثون يعتقدون اننا لم نعرف بعد كل أنواع الفيتامينات ..

ويحتوى الطعـام كذلك على عدد من المركبات الكيمياوية التى قد تكون بسيطة ، ولكنها ضرورية للصحة والحياة ، ومنهـا ملح الطعـام ، والبوتاسيوم ، والكلسيوم ، واليود ، والفسفور ، والحديد وغيرها . ولكل من هذه المواد اهميته فى تغذية شتى أنسجة الجسم ، وتمكينها من اداء الوظائف المقررة لها .. ونقص اى منها يؤدى حتما الى انواع الخلل : فاذا نقص «اليود» ــ مثلا ــ اصيبت الغدة الدرقية فى الرقبة بتضخم بصحبه تضاؤل النشاط الجسمى والعقلى . واذا نقص « الحديد » اصيب الانسان بفقر الدم ، فى حين ان نمو العظام يحتاج الى الفسفور والكلسيوم . ولا تنس ان فى العظام ــ هى الاخرى ــ مصانع دقيقة وهامة .. اذ ان نخاعها يصنع ــ فى كل يوم ــ عددا ضخما من خلايا الدم الحمراء ، كما يصنع عددا اقل من الخلايا البيضاء

ولكى نفهم أهمية كل هذه المواد ــ من هرمونات وفيتامينات واملاح معدنية ــ فاننا نشبه الجسم البشرى بمجموعة من الأجهزة والآلات .. فالقلب مضخة ،والرئة منفاخ ، والاعصاب أسلاك تليفون .. والمخ هو مركز القيادة . **والفارق بين هذه الاجهزة وبين اعضاء الجسم ، هو أن الاعضاء حية ، وتؤدى مهاما اكثر تعقيدا ، وتعرف كيف تصحح الأخطاء ان وقعت ، كما تعرف كيف تتلاءم مع ما حولها من مؤثرات وحاجات .** فاذا كسرت عظمة مثلا ، فانها تعرف كيف تلتحم مرة ثانية كما تستطيع أن تكبر أو تصغر وفقا لعمل الانسان وحاجاته .. فهى آلات تعرف كيف تتلاءم مع بيئتها !

وهذه العضلات والأعصاب نسيج يؤدى عمله — فى تنفيذ الأوامر ونقل التعليمات — بمعونة الوقود أو الغذاء الذى يحمله الدم ، ويوزعه على شتى خلايا الجسم ، ليغذيها ويتيح لها التنفس والعمل . فهى مركز نشاط كيمياوى شديد التعقيد ، وفيها تتوازن القوى الكهربائية والكيمياوية. **والهرمونات هى التى تتحكم فى التفاعلات الكيمياوية ، ولها اهميتها فى تنظيم العلاقة بين الدم وبين السائل الذى تسبح فيه الخلايا ، ثم بين هذا السائل وبين الخلايا نفسها ..وهو عمل دقيق مستمر لا يتوقف ثانية واحدة ، كما يسير فى حدود معينة بفضل سيطرة الجهازين العصبى والهرمونى عليه**

وتصنع هذه الهرمونات فى غدد صماء بغير قنوات ، ومن ثم فانها تختلط بالدم مباشرة ، ومنه تصل الى مختلف انسجة الجسم . ومن الطريف ان الهرمونات موجودة فى شتى الحيوانات ، وتؤدى فيها نفس عملها فى الانسان تقريبا .. ولهذا أمكن الالتجاء اليها لعلاج نقص الهرمونات عند بعض المرضى.. وبالتالى ، أصبحت المذابح — « السلخانات » — من أهم موارد هذه المواد الحيوية .

جمالك وذكاؤك وقف على جرام من اليود

• **وبالرغم** من أهمية هذا الجهاز الكيمياوى — الغدد الصماء — ومن أنه يعمل فى الانسان والحيوان من ملايين السنين ، فان ادراك اهميته لم يتكشف لنا الا فى القرن العشرين ! .. وتسمى هذه الغدد بالصماء — أو ذات الافراز الداخلى — لأن افرازها ينساب الى الدم مباشرة عندما يغمر غددها ، ولهذا تعذر على القدماء اكتشاف أمرها . وهى تختلف عن الغدد اللعابية فى ان الاخيرة ذات أنابيب أو قنوات شعرية تحمل افرازها لتصبه فى الفم ، فيساعد فى عملية البلع والهضم . وقد اكتشف الباحثون عددا من الغدد الصماء ، ومن المعتقد

أن هناك عددا آخر ، نلمح وجوده ، ولكنا نجهل اماكنه . ومن
أهم الغدد المعروفة : النخامية ، والدرقية ، وفوق الدرقية ،
وفوق الكلى ، والبنكرياس ، والخصى . **ويلاحظ ان بعضها
يفرز عددا من الهرمونات المختلفة الوظائف ، كما ان البنكرياس
والخصى تؤدى وظائف أخرى الى جوار انتاج الهرمونات ،
فالبنكرياس ينتج عصارة هاضمة تصب فى الامعاء . ومن وظائف
الخصى والمبايض المساهمة فى عملية انجاب الاطفال**

ومن أهم الغدد الصماء التى تتحكم فى أجسامنا وعقليتنا ،
الغدة « الدرقية » .. وهى فى الجزء الامامى للرقبة ، وتنتج
هرمونا اسمه «ثيروكسين» ، معتمدة فى انتاجه على كميات
ضئيلة من « اليود » الذى يجب أن تحصل عليه من الدم
وهو يقوم بنقل الطعام . وهذه الكمية تقدر بجرام واحد فى
اليوم ، ولكنها حيوية الى درجة انها تسجل الفارق بين النشاط
والحيوية والذكاء والجمال ، وبين الخمول والبلاهة وقبح
المنظر ، فمن خامة اليود تصنع الغدة هرمونها الذى يؤدى
اختلاطه بالدم الى النمو الطبيعى للجسم والعقل . ولو انك
حللت دم انسان عادى — فى اى وقت من الأوقات — فسوف
تجد فيه جزءا من « الثيروكسين » فى كل ١٠ ملايين من
الدم ، وهى كمية متناهية الصغر ، ولكن وجودها يعنى انسانا
ذكيا مملوءا بالنشاط ، فى حين ان غيابها يجعل المرء خاملا
كالميت !

ولقد يولد الطفل — احيانا — وغدته الدرقية لا تصنع
هرمونها ، وعندئذ ترى فى الطفل مسخا للحياة ، اذ تلوح عليه
مظاهر البلادة ، فترى عينيه خاملتين خاليتين من ذلك البريق
الدال على الحيوية والذكاء ، وتشهد لسانه يطل من فمه دلالة
على العبط ، وتلمس جلده فاذا هو بارد .. ومع السنين ،
لاتجده ينمو كالعادة ، وتظل بنيته ضئيلة ، وعضلاته ضعيفة ،
واظافره رقيقة سهلة التقصف ، وتنمو تقاطيعه — ولكن فى

غير انسجام او تناسب ــ وكذلك تسير عقليته فى نفس الطريق لتنذر بانه ابله معتوه . ومن الميسور الآن علاج هـذه الحالة بعملية سحرية، اذا ماتدارك الطبيب المريض فى الوقت المناسب، فغذاه بخلاصة الغدة الدرقية المستخرجة من الماشية ، اذ أن فيها هرمون « الثيروكسين » الذى يفعل كالسحر ، ويعيد للطفل نموه العقلى والجسدى بالدرجة العادية . وليس معنى هذا انه يشفى نهائيا ، اذ يجب ان يواظب طوال حياته على تعاطى جرعات من الهرمون الذى لا تصنعه غدته ، فان توقف استعاد جسمه وعقله سيرتهما المعتلة

فالغدة الدرقية هى منظمة التقدم والنمو فى الفرد . وهى التى تقرر معدل العمل التى تؤديه الآلة الانسانية . ولسبب لا يزال مجهولا من العلم تخبو شعلة الحيـاة فى الجسم اذا ما غابت تلك النسبة التافهـة من الهرمون السـاحر . ومن المعروف ان الاحتراق الغذائى داخل جسمك ، يتناسب مع ما يؤديه هذا الجسم من وظائف وأعمال .. فاذا ما تضاءلت هذه ، تضاءل معها الاحتراق الغـذائى ، الذى يعد المورد الاساسى لما يحتاج اليه الجسم من وقود . وفى وسع الاخصائى ان يقيس معـدل هذا الاحتراق فيعرف ما اذا كانت الغـدة سليمة تنتج هرمونها الحيوى بالقدر المضبوط ، ام انها معتلة !

أوقية تتحكم فى مستقبلك !

• **وتزن** الغدة الدرقية نحو اوقية . وهى فى الاطفال اكبر منها فى الكبار . ويصل اليها من الدم ــ عن طريق ثلاثة اوردة صغيرة ــ كميـة تضارع خمسـة امثال الـكمية التى تمر بالكليتين . والغدة ذات « فصوص » بها اكياس او حويصلات دقيقة ، يتألف جدار كل منها من طبقة واحدة من الخلايا التى يصنع فيها الهرمون ، ثم يفرز فى الحويصلات لتخزينه . وهناك يختلط بالدم ويتسرب الى الجسم عن طـريق اوعية دموية شعرية

وعندما تعتل الغدة الدرقية وينقص افرازها فى الطفولة ، فانها تؤدى الى نقص فى الخلقة .. وقد يتضاءل افرازها فى منتصف العمر - بين الخامسة والثلاثين والخمسين - وخاصة عند السيدات ، فتسبب مرضا من أعراضه الميل الى البدانة ، وخشونة البشرة ، وزيادة سمك الجفون والشفاه واللسان . ويبدو على الفرد لون من الغباء والجمود ، حتى ليصعب عليه تذكر الاشياء ، أو تركيز ذهنه فى عمل ما .. وينخفض معدل الاحتراق الغذائى ، فتشتد حساسية المريض بالبرد ، ويشكو من برودة أطرافه .. وهذه أعراض المرض المعروف باسم « جلز » ، نسبة الى الجراح البريطانى ، سير « وليم جل » ، الذى كان اول من وصفه فى عام ١٨٧٣ .. وقد دلت الابحاث على أن فى العالم مناطق بأسرها ، يصاب أغلب اهلها بهذا المرض ، وذلك لخلو تربة الارض - فى تلك المناطق - من اليود ، وهو المادة اللازمة لصنع هرمون « الثيروكسين » ، مما يؤدى الى تضخم الغدة ، اذ تحاول أن تعوض هذا النقص .. وقد يكبر التضخم الى درجة يضغط معها على القصبة الهوائية ، فيعرقل التنفس !

ومن ناحية اخرى ، نجد أن زيادة نشاط الغدة الدرقية ، لايقل خطورة عن تضاؤله . اذ أن ازدياد هرمون « الثيروكسين » يرفع معدل الاحتراق الغذائى ، فيزيد نشاط المرء عن الحد المقبول ، مما يؤدى الى زيادة ضربات القلب ، ويصبح الشخص شديد الانفعال ، معرضا للتشنجات العصبية .. كما يرتفع ضغط الدم ، وتجحظ العينان .. وقد تحدث نوبات من الهوس !

اول من أزال الغدة طبيب عربى

• والعلاج المعروف لهذه الحالة - حتى الان - هو ازالة جزء من الغدة ، فتقل كمية الهرمون الذى تفرزه . ومن

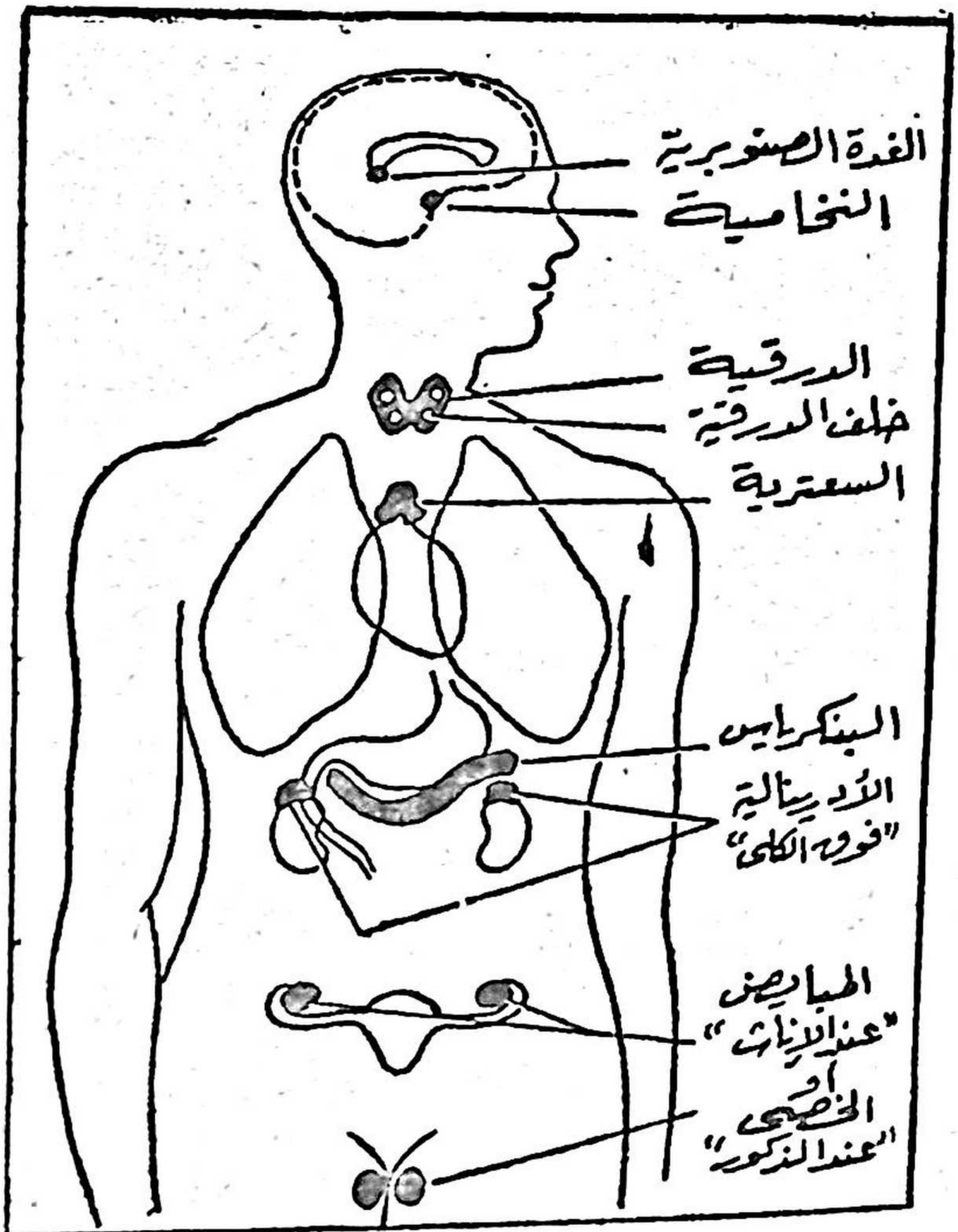

توزيع الغدد فى الجسم .. انها الأجهزة التى تؤثر على النمو البدنى والعقلى والعاطفى والجنسى

الواضح ان ازالة الغدة كلها سيؤدى حتما الى أعراض اختفاء الهرمون من الجسم ، فضلا عن ازالة الفدد «خلف الدرقية»، مما يهدد نمو العظام . ولقد كان أول طبيب قام بازالة الفدة الدرقية ، هو « أبو القاسم خلف أبو العباس » ، فى سنة ٣٣٠ ميلادية . وقد عرف ـ فى بغداد ـ ببراعته فى الاستدلال على اماكن الاوردة والشرايين ، فلم يقطع واحدا منها فى عملياته ، بينما كان المألوف فى ذلك العصر ، أن تلك الجراحة تؤدى الى نزيف قاتل فى أغلب الاحيان . وبمرور الزمن عرف الطب اهمية الفدد «خلف الدرقية» ،وحدد أماكن الاوردة والشرايين،

ومع ذلك فقد ظلت الجراحة من أخطر عمليات العلاج

ومن الميادين الهامة التى تثير اهتمام الاخصائيين الان ، معرفة الصلة بين «الغدة الدرقية» وغيرها من الغدد - لاسيما النخامية والخصى والسعترية والبنكرياس والادرينالية أو « مافوق الكلى » - وتأثر وظائف كل منها بما تفرزه الاخرى . وفى هذا المجال نجد صلة أخرى بين الغدة الدرقية وبين الجهاز العصبى السمبتاوى والكلى . **ولو أننا عرفنا كيف تؤدى الغدة الدرقية عملها فى أنسجة الجسم ، لجاز أن نستطيع تفسير كثير من طلاسم الحياة نفسها !**

وتحمل الغدة الدرقية فى جزئها الخلفى اربع غدد أخرى ، تعرف باسم الغدد « خلف الدرقية » . ولعل أروع مثل لاهميتها - والدور الذى تلعبه فى حياة الانسان - هو سرد قصة الكابتن « تشارلس مارتل » الذى أطلق عليه فى التاريخ الطبى لقب « الرجل الذى ينكمش » . فقد نقص طول هذا الرجل نحو ٣٠ سنتيمترا ، بسبب هذه الغدة ! .. وكانت حياته مأساة سجلت أروع أمثلة البطولة والتضحية فى عالم الطب . اذ انه كان من أصغر ربابنة السفن ، وقد اشتهر - حين أصبح ربانا ، فى الثانية والعشرين من عمره - بقامته الفارعة ، اذ بلغ طوله ١٨٥ سنتيمترا . وكان وسيم الوجه ، عريض المنكبين ، يتمتع بقوة وجرأة جعلتاه فى مصاف ابطال البحر فى أثناء الحرب العالمية الاولى . على ان شجاعته الحقيقية برزت فى أعقاب الحرب ، حين قدم نفسه ليكون حقل تجارب لوقاية البشرية من شر الامراض المجهولة !

ينقص طوله ٣٠ سنتيمترا !

• **وقد** بدأت متاعبه حين أحس بآلام الروماتيزم تغزو ظهره وساقيه .. ثم تحولت الآلام الى فزع ودهشة ، حين رأى الرجل نفسه ينكمش ، كما شعر بعضلاته وهي تضعف ؟؟

حتى ساقاه عجزتا عن حمله . وفى احدى السقطات ، أصيب بكسر فى ذراعه . ورغم سوء حالته وتفاقمها ، فانه رفض أن يتخلى عن حيـاة البحرية . ووصف مرضـه بانه التهاب فى الشرايين ، وعولج على هذا الأساس لمدة سنة ، ولكن العـلاج كان عديم الفائدة . وقد نقص طوله أثناء ذلك ، حـوالى ٢٠ سنتيمترا . وبدأت علته تظهـر حين تعثر وسقط ، فـكسر احدى عظام ذراعه . فقد أظهرت الأشعة السينية ، ان عظامه فقدت كثافتها ، ولم يشفـه كسر ذراعه الا بعد ان ظل تسعة أشهر فى الجبس !

وواصل الأطباء فحص كل جسمه ، لمعرفة المرض الغريب ، فاذا كل عظام جسمه معتلة لينة . وظلت العلة تواصل زحفها — برغم أساليب العلاج — لتزيد من ضعفه وتشويه خلقته ، فقد تقلص وجهه بطريقة غريبة ، ولم تعد أسنانه فى حالتهـا الطبيعية . والى جوار هـذا كله ، كان يحس بالآلام الدائمـة وهى تسرى فى كل مفصل فى جسمه

ويئس أطباؤه ، فحولوه الى مستشفى « بلفو »بنيويورك ، حيث درس الاخصائيون حالته فى دقة وعناية . وهناك اسفر البحث عن وجود تغيرات خطيرة فى دمه وبوله . وعلى هدى الاكتشافات التى تمت فى ذلك الوقت — سنة ١٩٢٣ — ادرك الدكتور « ديبوا » أن الكابتن مارتل كان يعانى من زيادة افراز الغدد « خلف الدرقية » لهرمونها الذى تؤدى زيادته الى لين العظام وتغيرات فى الدم والبول

وعرف أيضا أن مثل هذه الاعراض تنشأ اذا أصيبت الغدد بنوع من الاورام . فنقل الكابتن « مارتل » الى مستشـفى (ماساتشوست) ، حيث اجريت له جراحتان ، فلم تسفرا عن زوال الاورام . وفقد الامل فى العثور على سبب علة المريض ، ولكن «مارتل» لم يسمح لأطبائه بأن ييأسوا . وظل يلح عليهم ، فأجريت اربع جراحات اخرى بغير آية نتيجة . وأوشـك

الاخصائيون أن يفقدوا الامل ، وهموا باهمال حالته ، ولكنه اصر على الاستمرار فى الدراسة . وما لبث الاخصائيون ان اكتشفوا ان لبعض الناس غددا ((خلف الدرقية)) فى صدورهم، الى جانب تلك التى فى رقابهم . وأجريت جراحة جديدة فى صدر ((مارتل)) ، فوجدت غدد اضافية ومصابة بالورم الذى يؤدى الى الاعراض المرضية . ولكن الاكتشاف جاء متاخرا ، ولم يستطع الاطباء انقاذ حياة مارتل ، فمات وهو فى السادسة والثلاثين من عمره !

وعدد الغدد « خلف الدرقية » لدى الانسان أربع ، كل منها فى حجم حبة القمح . وقد استرعت انتباه الاطباء ، عندما وجدوا ان ازالتها تؤدى الى وفاة المريض ، خلال ساعات قليلة تتنابه فيها التشنجات العصبية والتقلصات العضلية ، المصحوبة بآلام مبرحة .

ووظيفة هذه الغدد ، هى تنظيم افادة الجسم من مادة الكلسيوم والفسفور ، فى عمليات الاحتراق الغذائى . فان الدم ينقل — فى عملية الهضم — هاتين المادتين ، ويحملهما الى الانسجة التى تحتاج اليهما . فبغير الكميات المناسبة من كل من الكلسيوم والفسفور ، يستحيل نمو العظام والاسنان طبيعيا . كما أن لمنسوبهما فى الدم — ومنسوب الكلسيوم بالذات — تأثيرا خاصا على الاعصاب ، وعلى السيطرة على العضلات ، وعلى الاوعية الدموية . ويحوى دم الشاب عادة مابين ٩ و ١١ مليجراما من الكلسيوم و ٣ من الفسفور فى كل مائة سنتيمتر مكعب من الدم !

واذا ما ازيلت الغدد ((خلف الدرقية)) من انسان او حيوان ، فان منسوب الكلسيوم ينخفض فى الدم ، ويليه توتر عصبى ثم تشنج عصبى ، ثم تقلصات حادة ، والام عضلية مبرحة تتخذ مظهرا فظيعا فى النهاية . ومن الميسور وقف هذه الاعراض بحقن المريض بالكلسيوم ، وتكون النتائج أفضل لو

أضيف **هرمون الغدد** . وهذا الهرمون كغيره من الهرمونات حيوى فى كمياته المحدودة ، وضار خطر اذا زادت نسبه كما حدث فى حالة الكابتن « مارتل » ، اذ كانت غدده شديدة النشاط . وبفعل الكميات الزائدة يرتفع منسوب الكلسيوم فى الدم ، بينما يحتفظ الفسفور بمنسوبه العادى ، فتفرز المادتان فى البول بكميات غير عادية ، ويفقد الجسم العنصرين بسرعة تفوق قدرته على الحصول عليهما . وليحتفظ الدم بمنسوبه ، فانه يسحب الكلسيوم من العظام فيضعفها ويلينها

وما لبثت الابحاث أن كشفت عن أن الخلايا العظمية تتعرض لتغيرات جوهرية فى حالة زيادة افراز هرمون الغدد « خلف الدرقية » ، ويسمى « الباراثورمون » . فان هذه الخلايا ثلاثة انواع : نوع يبنى المواد العظمية ، والثانى يخلف المواد الليفية ، والثالث يدمر المواد البالية . **فاذا ما زاد افراز الهرمون عن نطاقه المعين ، اختفت الخلايا البانية ، فحلت مكانها خلايا مدمرة ، مما يحدث التحلل والتناقص فى عظام الجسم .** ومثل هذا التحلل الخطير لايحدث اذا نقصت كميات الكلسيوم فى الطعام الذى نأكله لان النقص يظهر على هيئة مسام فى العظام النامية

ومن هذا يظهر ان الحياة تعتمد الى حد كبير على وجود الغدد « الخلف الدرقية » ، وعلى ادائها وظائفها فى الحدود المناسبة للجسم . والا فان الهيكل العظمى يذوب ، فتنكمش الاطراف ويلتوى شكلها . ومن الجائز أن يكون خلل الغدد ضعيفا ، فتظهر الاعراض بسيطة ، ولا يكون أثرها بارزا .. وكل مايحس به المريض هو الضعف العام . ويعتقد بعض الخبراء ، ان اختلال الغدد « خلف الدرقية » يلعب دورا هاما فى كثير من الامراض العصبية والعضلية ، وانه قد يكون احد العوامل التى تحدث داء الصرع . وقد تحسنت بعض حالات الجنون واللوثات العقلية عندما عولجت بهذا الهرمون . ويعمل

الخبراء والاخصائيون على تبين ماذا كانت هنـاك صـلة بين الهرمون وفيتامين « دى » الذى يؤدى نقصــه الى الاصابة بأمراض الكساح

غدد مواجهة الشدائد

• وننتقل الى غدد أخرى هى الغدد التى تواجه الشدائد، اذ أن مسار هرموناتها فى الدم يقرر ماإذا كنت تنبرى لعدوك أو تلجأ الى الفرار منه . وهـذه الغدد هى « الادرينالية » . ولدى كل فرد اثنتان منها تقعـان فوق الكليتين ، وتزن كل منهما نحو خمس الاوقية . وبوسعك أن تدرك قيمتهما ، اذا عرفت أن الدم الذى يمر فيهما ، فى الدقيقة الواحدة ـ خلال ثلاثة شرايين ووريد كبير ـ يقدر بسبعة أمثال ونصف مثل وزن كل منهما . وتتألف كل غدة من قسم داخـلى وآخر خارجى ، يفرز كل منهما مجموعة من الهرمونات .

فاذا تعرضـنا لاى من انفعـالات الغضب أو الـكراهية أو الخوف ، أفرز الجزء الداخـلى هرمونا فى الدم يضاعف من سرعة ضربات القلب وشدتها ، بينما يتوقف التفاعل الهضمى، مما يؤدى الى تحول الدم الى القلب والمخ والعضلات . كما يتأثر الكبد فيفرز فى الدم مايختزنه من احتياطى السكر . وفى الوقت ذاته ، تنقبض الاوعية الدموية ، فيرتفع ضغط الدم .. ويصير الانســان مستعدا لمواجهــة الخطر أو للفرار منـه .
كذلك يقول بعض الاخصائيين أن هرمون « الادرينالين » يلعب دورا هاما فى توزيع الهرمونات الاخـرى ، وحفظ التـوازن الكيمياوى فى الجسم ، فى غير أوقات الشدة .

ولقـد عنى الطبيب البريطانى « توماس اديســون » ـ فى سنة ١٨٥٥ ـ بمرض عرف فيما بعد باسمه . ومن اعراضه ضعف العضلات تدريجا ، وظهور فقر الدم ، واضمحلال عمل القلب ، واضطراب المعدة ، وتحـول لون البشرة الى برونزى

داكن . وبتشريح احد عشر مريضا ماتوا بهذا الداء ، وجدت غددهم الادرينالية مصابة بالسل . فاتجه الاهتمام الى هذه الغدة . وظهر ان اى تلف يصيب غشاءها ، يؤدى الى «مرض اديسون » . فاذا أزيلت الغدة بأسرها ، قدر للمريض أن يحيا . أما اذا أزيل الغشاء وحده، فان الموت يصبح محتوما .

هرمون يعيد الحياة .. وآخر يغير الجنس !

• وأفضت البحوث الى أن القسم الداخلى من الغُدة يفرز هرمون « الادرينالين » ، فى حين أن غشاءها يفرز هرمون « الكورتين » .. والاول ذو اثر طيب فى تنشيط القلب ، ولذا فانه يستخدم فى الحالات الحادة التى تنشأ عن توقف الدورة الدموية ، نتيجة صدمة عصبية أو بسبب « البنج » أثناء الجراحة . حتى لقد قيل أن « الادرينالين » يعيد الحياة الى الموتى ! .. **أما ((الكورتين)) فذو أثر حيوى ، اذ ان اختفاءه من الجسم يؤدى الى ((مرض اديسون)) ، ثم الوفاة ! .. كما أن نقصه يحدث اختلالا فى كميات الصوديوم فى الجسم ، ومن ثم فان ((داء اديسون)) يعالج بملح الطعام ، وبهرمون ((الكورتين)) ، وفيتامين ((ج)) . الذى يختزن غشاء الغدة قدرا منه . ولم يلم العلم بعد بكل وظائف ((الكورتين)) ، الا انه يلعب دورا هاما فى الاصابة بمرض السكر وبالاعياء**

ولقد لوحظ أن أكثر الذين يولدون بغير مخ، يكونون مجردين من الغدد « الادرينالية » . كما ان غشاء هذه الغدد ، يحتوى – عند الجنين – على مادة دهنية هى من اهم انسجة المخ . وتكون الغدة فى أضخم احجامها ، فى الشهر الثالث للجنين ، حتى انها تكون اضخم عضو فى جسمه . ثم يتضاءل حجمها فى الطفولة .. وقد تصاب بنزيف يقضى على حياة الطفل !

و ((الكورتين)) **ضرورى للحياة ، فاذا زاد افرازه عن المستوى المناسب للجسم ، ادى الى تطورات منها تضخيم**

الرجولة لدى الذكر ، وظهـور أعراض الرجولة لدى الانثى ، ولو حدثت هـذه الزيادة لدى الانثى فى فترة الحمـل ، جاء الوليد خنثى ، ولو كان مظهره الخارجى ينم عن أنه ذكر ! ..

أما اذا حدثت زيادة الافراز لدى طفل صغير ، فان أعراض الرجولة المبكرة تظهر عنده فى سن الثالثة أو السابعة .. واذا كان الطفل انثى ، فان أعراض الرجولة ــ من خشونة الصوت، واللحية ــ تظهر عليه !

صانعة العمالقة والاقزام

◆ وفى قاعدة المخ غدة فى حجم البنـدقة ، وتزن جزءا من خمسين من الاوقية ، ولكنها حين تنشط تحـول المرء الى عملاق قد يتجاوز طوله مترين .. أما اذا نامت فان نمو المرء يقف عند المتر .. تلك هى « الغدة النخامية » ، التى يقال أنها سيدة الغدد وحاكمتها ، فان جسمها الضئيل يصنع ١٢ هرمونا تؤثر على أكثر الغدد الاخرى ، وبالتالى على كل أعضاء الجسم . ويعتقد الدكتور رونسون ــ خبير الاعصاب الامريكى ــ أن المخ يسيطر على هذه الغـدة ، وعن طريقهـا يشرف على الجهاز الكيمياوى للجسم ، كما يشرف على الجسم كله بالجهاز العصبى

وقد عرفت هذه الغدة منذ ١٧ قرنا ، ولكن الانظار لم تتجه اليها الا فى سنة ١٧٨٤ ، حين لاحظ بعض الاطباء أن مرضى نمو العظام ــ بمعـدل شاذ ــ يكون مصحـوبا ، فى العادة ، بتضخم هذه الغدة .

ويصيب هذا المرض الناس بعد الخامسـة والثـلاثين من عمرهم ، فيشوه مظهـرهم . اذ يقتصر التضخم على أيديهم وأرجلهم وقسمات وجوههم . أما اذا نشطت فى فترة النمـو الطبيعى لدى الانسان ، فانها تنتج عمالقة تتناسب أعضاؤهم بعضها مع بعض !

وقد دلت الدراسات المتواصلة على أن هذه الغدة الصغيرة شديدة التعقيد اذ تتألف من ثلاثة فصوص : يتألف الامامى منها من ثلاثة أنواع من الخلايا، ينتج كل منها هرمونا أو أكثر . ويشبه الفص الاوسط زميله الامامى فى خلاياه ، ولكنه دقيق وبه عدة جيوب أو أكياس ، وهو أيضا يصنع هرمونات .. أما خلايا الفص الخلفى ، فكثيفة للغاية ، وتنتج نحو أربعة هرمونات . ولهذا الفص أهميته لانه متصل بقاعدة المخ ، فى الجزء المعروف باسم « تحت السلامى » ، فاذا تعرض هذا الجزء للضرر ، فانه يؤثر على افرازات الغدة ووظائفها

الغدة التى تتحكم فى الجنس والأمومة !

• وقد أظهرت التجارب على أن ازالة هذه الغدة يوقف نمو الجسم تماما . فاذا حقن الجسم بخلاصة الغدة فى الدم ، تسنى له استئناف النمو . كما شوهد أن الحيوية الخارقة والطاقة الجنسية العارمة ، التى يتمتع بها العمالقة — فى أول اصابتهم بالمرض — لاتلبث أن ترتد الى العكس . **وغالبا مايموت العمالقة فى سن مبكرة . أما الذين تنمو أطرافهم من جراء ازدياد نشاط الغدة — فى منتصف العمر — فمن المحتمل أن يصابوا بأورام فى المخ ، وبشىء من الدوار والهوس والنسيان وفقدان المرح . فاذا استمر النشاط ، مات المصاب !**

كذلك كشف البحث عن أن هرمونات هذه الغدة تؤثر على النواحى الجنسية . فالفص الامامى منها يفرز هرمونين ، يسميان : « برولان ا » و «برولان ب» . وهما يؤثران على الخصى فى الرجال ، وان لم يعرف كنه تاثيرهما بعد . على انهما يساعدان — لدى النساء — على تنظيم دورة الحيض الشهرية ، وعلى اعداد الرحم ليكون مسكنا ملائما لحياة الطفل فى فترة الحمل .

ويظهر اثر الهرمونات الجنسية بوضوح ، فى سن البلوغ ،

اذ تبدأ الغدة النخامية فى افراز هرموناتها التى تضفى على المرء صفات جنسه ومميزاته . ومن منتجات الفص الامامى للغدة ، هرمون الامومة ، ويسمى ((برولاكتين)) . وهو مادة غريبة يؤدى سريانها فى الجسم الى حنان الطارىء ، قد يخرج بالكائن الحيوانى عن طباعه الفطرية .. فترى كلبة تعنى بصغار قطة ، او قطة ترعى أرانب صغارا دون ان تفترسها !..

وقد حقنت بهذه المادة بعض ذكور الحيوان ، فاذا بها تفقد خشونتها وتكتسب بعض حنان الاناث .. بل ان منها من درت ثدياه لبنا ! .. وليس معنى هذا انعدام هرمون الامومة لدى الذكور ، بل هو موجود بقدر معين ، اذا تجاوزه ظهرت على الذكور بعض صفات الانوثة . ويتجلى اثر هذا الهرمون بوضوح ـ لدى الانثى ـ عقب الولادة ، اذ يزيد افراز الغدة له فى الجسم ، فيكبر ثديا الانثى ، ويدران اللبن !

ويثير هذا الهرمون فضول المشتغلين بعلمى الاجتماع والنفس ، اذ ان قدرته الفذة على ازالة البغضاء من صدور الحيوان ـ حتى انه ليحنو على صغار عدوه ، ويرعاها كما لو كانت صغاره ـ يدفعهم الى التفكير فى استغلاله كمهذب اجتماعى للانسان !

منقذ حياة الملايين

• ومن اهم الهرمونات التى تحتل مكانة ممتازة فى عالم العلاج والابقاء على حياة المرضى ، هرمون ((الانسولين)) الذى تفرزه جزر ((لانجرهانز)) بالبنكرياس . فان الجرعات القليلة التى يأخذها منه المرضى بالسكر ، لاتقدر بثمن ، ولولاها لظلت اجسامهم تشكو الجوع والحرمان ـ فى بعض الحالات ـ فضلا عن آلام العطش الملحاح ، ولو امتلأت بطونهم بالطعام والشراب . اذ ان توقف جزر ((لانجرهانز)) عن افراز هذا الهرمون ، يؤثر على الجهاز الهضمى وقدرته على امتصاص الغذاء الكافى

الجسم ، وخاصة المواد السكرية والنشوية التى تعد من أهم انواع وقوده .

ولقد عرف الفراعنة مرض السكر ــ بما يصحبه من جوع وعطش يؤديان الى انهيار وغيبوبة تنتهى بالموت ــ منذ القرن الخامس قبل الميلاد . ودلت أبحاث العلماء ــ على مر القرون ــ على أن البنكرياس يفرز عصارة هاضمة ، كما تفرز جزره الصغيرة هرمونا يمتصه الدم ، ويؤدى غيابه الى المرض . فهو الحد الفاصل بين الحياة والموت ! .. ولكن المشكلة الكبرى كانت فى الظفر بهذا الهرمون دون أن تدمره العصارات الهاضمة . وبعد جهود جبارة ، ومحاولات دائبة ، تيسر تحضير الهرمون . وجرب على المرضى لاول مرة فى يناير ١٩٢٢ . وكانت نتيجة الكشف انقاذ حياة ملايين الناس !

وكانت المعلومات الشائعة تقرر ان مرض السكر ينشأ عن اخفاق البنكرياس فى افراز هرمون « الانسولين » بمقادير كافية ، بسبب اختلال جزر « لانجرهانز » . ولكن عمليات التشريح التى اجريت أثبتت وجود المرض برغم سلامة هذه الجزر وهرمونها . الى ان أثبتت التجارب ، أن الكلب الذى يحرم من بنكرياسه ، ولا يحقن بالانسولين ، يموت بعد أسبوعين . فلما أزيل بنكرياس بعض الكلاب وغددها النخامية ، وجد أنها عاشت سنة بغير ان تصاب بداء السكر . ثم ظهر أن حقن الحيوان السليم بهرمون من افراز الفص الامامى للغدة النخامية ، يؤدى الى اصابته بهذا الداء !

الغضب الذى ينقذ الحياة !

• **وبمرور الزمن** ، واستمرار البحوث ، تغيرت النظرة الى مرض السكر واسبابه . فلم تعد هذه الاسباب مقتصرة على عجز الانسجة عن حرق السكر فى العمليات الغذائية ، بل قيل ان الداء يرجع الى ازدياد انتاج السكر باستخلاصه من المواد

البروتينية ، بعد ان كان المعروف انه يستخلص من المـواد السـكرية والنشوية فقط . وعـدل الخبراء آراءهم فى داء السكر ، فاضافوا الى أسبابه نقص هرمون « الانسولين » فى الجسم ، لاعتلال جـزر « لانجـرهانز » .. وكذلك ازدياد افرازات الفدد النخامية والدرقية والادرينالية ، بحيث لايعود الانسولين قادرا على ايجاد التوازن بين هذه الافرازات . كما أن هذا المرض قد ينشأ عن اختلال غدد الكبد ، التى تعتبر إهم مخزن للسكر فى الجسم !

واستخدام « الانسولين » ضرورى لمرضى السـكر ، اذا اعطى بجرعات مناسبة لحاجة الجسم ، ولكنه يفدو ضارا قاتلا اذا زادت الجرعات عما ينبغى ، اذ يصاب المريض بغيبوبة يعقبها الموت ، لازدياد احتراق السـكر فى الجسـم ، ولهـذا يحسن بمن يتعاطون « الانسولين » أن يحمـلوا فى جيـوبهم قطع السكر أو الحلوى ، ليتناولوها اذا أحسـوا برد فعـل الانسولين !

ولعل من أطرف المفارقات، أن الغضب الجامح كثيرا ماينقذ مريض السكر اذا تناول جرعة من « الانسولين » فوق حاجته، اذ أن الغدة الادرينالية تفرزهرمونها لتعد المرء للقتال أو الفرار ـ كما ذكرنا من قبل ـ فيؤدى سريانه فى الدم الى وقف عملية الاحتراق الغذائى ، وبالتـالى الى وقف احتراق السـكر فى الجسم

غدة تكتنفها الاسرار !

• و « **الفدة السعترية** » من غدد الاسرار والالغاز . اذ ان مانعرفه عنها قليل ، محوط بالغمـوض ، ويعتبر من قبيـل التكهنات ! .. وهى غدة فى الصـدر ، بالقرب من الرقبـة . وتتألف من فصين يميل لونهما الى البياض . وقد دل فحصها ميكروسكوبيا على أنها تتكون من عـدة أنواع من الخـلايا .

ويرتاب بعض الاخصائيين فى أن تضخمها هو السبب الحقيقى للمرض الذى يجعل الاطفال معرضين لضيق التنفس والاختناق، لمجرد صدمة خفيفة .

وتكون هذه الغدة فى أكبر حجم لها عند الولادة . فاذا مابلغ المرء الثالثة عشرة من عمره ، تبدأ فى الانكماش والتليف، مما دعا بعض الخبراء الى القول ، بأنها ذات علاقة ببدء مرحلة البلوغ ، وأنها تفرز هرمونا يمنع أعراض هذه المرحلة التى لا تظهر الا حين تبدأ الغدة فى التخلى عن وظيفتها . ولكن واحدا من الباحثين لم يستطع فصل هذا الهرمون ، بل ان التجارب أثبتت ان ازالة الغدة لاتؤدى الى حدوث تغيرات هامة ، وقد تمكن بعض الباحثين من تحضير خلاصتها ، فلما حقنت بها الفيران البيضاء ، جاء نسلها اثقل وزنا ، واكثر عددا ، واضخم جسما من الفيران العادية . وبمواصلة تجربة الخلاصة على الاجيال المتعاقبة من الفيران ظهر أن هيكلها يزداد ضخامة . وعندما درس دمها من الناحية الكيمياوية ظهر أن منسوب الكلسيوم والفسفور فيه مرتفع عن المنسوب العادى لدى الفيران الاخرى . ولما كانت الغدد «خلف الدرقية» تلعب دورا هاما فى عمليات احتراق الكلسيوم والفسفور ، فقد رأى بعض الخبراء أن ثمة علاقة وطيدة بين « خلف الدرقية » و « السعترية » . ويعزز هذا الرأى أنهما يتكونان من نسيج واحد فى الجنين !

قصة الهضم

• **الغذاء** من اللوازم الحيوية للاحياء ، ويقدر متوسط ما يستهلكه الانسان الواحد العادى فى حياته بنحو ٣ ثيران و ٤ ابقار و ١٢ من الماعز والخراف ، و ٣٠٠ دجاجة ، و ٧٥ اوزة ، و ١٠٠ حمامة ، و ٤٠٠٠ سمكة ، و ٩٠٠٠ رطل من البطاطس ، و ١٢ الف رطل من الخضر ، و ١٤ الف رطل من

الفاكهة ، و ٧٥٠٠ لتر من اللبن ،وتسعة عشر الف لتر من انواع الشراب ، وخمسة عشر الف لتر من القهوة ، و ١٠٠٠ رطل من الملح ، و ٥٠٠٠ بيضة ، والفى رطل من الجبن ، و ٨٠٠ رطل من السكر ، و ١٢ الف لتر من الماء . ويضاف الى ذلك كميات صغيرة من مواد غذائية أخرى .. **ليس هذا فحسب، بل اننا ننفق مايعادل الثمن من عمرنا ونحن جلوس على المائدة ، ونبدد ربعه فى الحديث عن أصناف الطعام ، وحالة الهضم . ولو نظرنا الى الجسم البشرى كآلة ، فاننا نستطيع القول بأن هدفه هو تحويل الطعام ، وغاز الاكسوجين الى طاقة وأنسجة جسمانية . واذا مادرسنا أجهزة الجسم فاننا نجدها تتعاون وتعمل فى هذا النطاق** . فان وظيفة الجهاز الهضمى هى تحويل الطعام الى حالة تتيح للجسم استخدامه .. ووظيفة الجهاز التنفسي هى تقديم الاكسوجين . وهنا تبدأ عملية الدورة الدموية ، فيحمل الدم الطعام والاكسوجين ليوزعهما على أجزاء الجسم . أما الفضلات فتقذف الى الخارج عن طريق الجهاز الخاص ، بينما يقف الجهاز العصبى والغدد الصماء فى موقف المشرف المسيطر على تنفيذ العملية كلها !

رصاصة سجلت تاريخا

• **ومن** الغريب أن رصاصة طائشة كتبت اهم جزء فى تاريخ الهضم من الناحية الطبيعية . ففى ٦ يناير من عام ١٨٣٢ ، وفى قرية ماكيناك بكندا ، انطلقت رصاصة طائشة فى مخزن ، فأصابت هنديا اسمه « الكسيس مارتن » ، وفتحت ثغرة فى معدته . وتولى الطبيب الوحيد فى المنطقة — وكان يدعى « وليم بيمون » — علاجه وهو فاقد الامل . **وشدما كانت دهشته حين شفى المصاب ، وان ظلت الثغرة مفتوحة فى معدته ، فاتخذها ((بيمون)) نافذة لمشاهدة مايجرى داخل المعدة ، ولكشف طلاسم الجهاز الهضمى لاول**

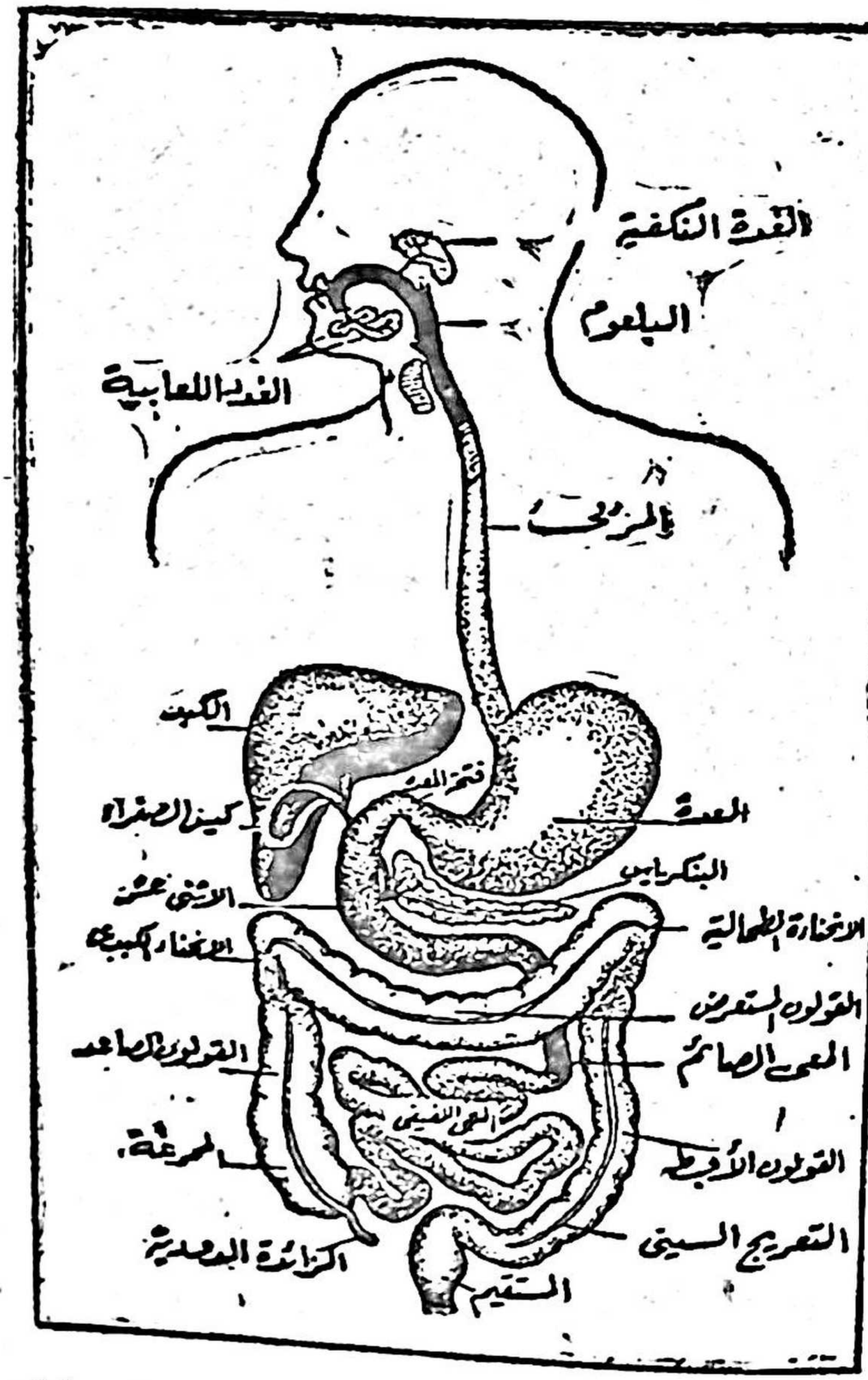

الجهاز الهضمى : شبكة من اجزاء يكاد كل منها ان يكون معملا كيمياويا

مرة . واستطاع بعد سنة ان ينشر اكتشافاته ،فكانت ذخيرة وهديا للباحثين من بعده.

ويتالف الجهاز الهضمى من القناة الهضمية والغدد المتصلة بها . وتبدا العملية من الفم - ففيه تمضع الاسنان الاكل وتخلطه باللعاب ، ليتحول الى معجون ينزلق الى فراغ الحلق ، ويجتاز المرىء الى المعدة التى تتمدد بوصوله اليها وتتحول الى كيس تتألف جدرانه من خلايا دقيقة تفرز العصارة المعدية . وفى نهاية المعدة حلقة عضلية تتحكم فى مرور المواد الى الامعاء الدقيقة التى يبلغ طولها ستة امتار. وفى الجزء المسمى « الاثنى عشر » منها ، يصب الكبد والبنكرياس

افرازاتهما على الاكل ، فتتم عملية الهضم ، وتمتص الانسجة هذا الاكل لتدفعه فى الدم كى يوزعه على أعضاء الجسم . وقبل نهاية الامعاء الدقيقة تبدأ الامعاء الغليظة، فتمتد حوالى ١٥٠ سنتيمترا ، وتنتهى بالزائدة الدودية التى لا نفع منها . وهذه الامعاء هى نهاية القناة الهضمية ، وهى تتلقى الفضلات التى لم تمتص من الطعام والماء ، فتمتص الاخير ، وتقذف بالاول من المستقيم .

علم الكيمياء يعجز عن مجاراة الجهاز الهضمى

• **ونستطيع** فهم عملية الهضم المعقدة ، اذا عرفنا شيئا عن التركيب الكيمياوى للطعام . فهو يتألف من الموادالسكرية والنشوية والدهنية ، ومن البروتينات والماء والاملاح المعدنية والفيتامينات ، وبعض مواد كيمياوية اخرى .

والنحول الكيمياوى – **الذى يتم فى عملية الهضم – ضرب من السحر والاعجاز ، حتى أن علم الكيمياء ليعجز – برغم تقدمه – عن تقليد مايحدث داخل الجسم** . فالكيمياوى يستمين بالحرارة ، والضغط ، والتيارات الكهربائية ، لتحقيق التفاعلات التى تتم خلال الهضم ، والتى تبدأ باتحاد جزىء من مادة الطعام مع جزىء من الماء ، ثم ينقسم الجزىء الناتج الى جزئين بسيطين ، بمساعدة عوامل كيمياوية توجد فى العصارة المعدية ، وتسمى « الانزيمات » . وهى نوع من المواد البروتينية ذات التركيب الشديد التعقد ، لم يصل العلم بعد الى كشف كثير من أسرارها . وتتولى هذه « الانزيمات » تحويل المواد السكرية والنشوية الى سكر ، والمواد الدهنية الى احماض دهنية ، والبروتينات الى احماض امينية (من مركبات النوشادر) .

ويخضع جانب كبير من عمليات الهضم للجهاز السمبتاوى، وللجهاز العصبى . وكلنا يعرف أثر الانفعالات العاطفية على

الهضم . اذ ان الانفعالات السّارة تساعد التفاعلات وتعجل حدوثها ، فى حين ان الانفعالات السيئة تؤخرها . كما أن بعض الهرمونات تتدخل فى العملية . فان الامعاء الدقيقة تفرز عدداً منها للتأثير على البنكرياس والمرارة وغيرهما كى تفرز عصاراتها المكملة لعمليات الهضم . وبمثل هذه الهرمونات تسيطر الغدد الصماء على الجهاز الهضمى !

القرح المعوية .. مرض الحضارة !

• **وهنا** قد تتساءل : لماذا لاتؤثر العصارة الهاضمة على انسجة الجسم ذاته ، فتحللها ؟

وهذا سؤال لم يستكمل العلم بعد دراسته . ولكن من المعروف أن الخلايا الحية فى الجسم ، شديدة المقاومة لمواد العصارة الهاضمة .. وأن كانت هذه العصارة تتمكن أحياناً من جدران المعدة ، فتتفاعل معها .. واذ ذاك يصاب المرء بالقرح المعدية او القرح المعوية .

ومن الاراء التى لدى الاخصائيين عن القرح ، انها تنشأ عن القلق الذى يصحب المدنية الحديثة .. ولهذا فانها تسمى « مرض الحضارة » ! كذلك قيل انها تنشأ عن انحسار الدم عن بعض أجزاء المعدة والامعاء ، مما يؤدى الى حالة تهيج تحدث القرحة . كذلك قد يكون من اسبابها ازدياد الافرازات الحمضية فى المعدة

« الكبد » .. الساحر الذى يحارب « الانيميا » !

• **كان** الظن السائد لدى الناس ، أن لحم الكبد خال من المواد الغذائية ، الى أن استطاع الدكتور « جورج مينو » الامريكى ، أن يشاهد أثره على الحيوانات التى كانت مصابة بنقص كبير فى كريات الدم الحمراء ، التى تصنع فى نخاع العظام .. وهى التى تعرف باسم « الانيميا الخبيثة » .

وما لبث إن جرب أثر الكبد النىء – كغذاء – على مرضى الانيميا من البشر ، فوضح له بجلاء أن الكبد عامل يدفع ((معامل)) النخاع العظمى الى استئناف عملها فى انتاج الكريات الحمراء ! .

ومع ان المسألة كانت مسألة حياة او موت ، الا انه كان من العسير حمل المرضى على ان يأكلوا الكبد نيئا ، لذلك نشط العلم حتى استطاع أن يستخلص الكبد فى حقن مركزة ونقية .. وبقيت مشكلة معرفة سبب « الانيميا الخبيثة » وسر العامل الذى يحتويه الكبد ، والذى يقى الجسم شر هذا المرض .. وقد انتهت الابحاث والتجارب الى ان هذا العامل المانع يتكون ويظهر فى المعدة ، عندما تتفاعل مواد من العصارة الهاضمة ، منها اللحم النىء . ثم اتضح أن ثمة عاملين يتعاونان لوقاية الجسم من « الانيميا » ، وأن احد هذين العاملين موجود فى المعدة ، فى حين أن العامل الاخر يأتى من الخارج ، حتى اذا تفاعلا معا ، تألف منهما العامل الواقى من « الانيميا » . وهو يختزن عادة فى الكبد وفى الكلى .. اما كيف يتفاعل هذا العامل مع نخاع العظم ، فمسألة لاتزال قيد البحث !

. . . .

وعلى الرغم مما عرف عن الفيتامينات ، فاننا لا نزال نجهل الكثير من أمرها .. فنحن لانزال نجهل الطريقة التى تؤدى بها عملها ، كما اننا نجهل العلاقة بينها وبين الهرمونات وغيرها من العوامل الكيمياوية فى الجسم . ولا ريب فى ان السنوات القادمة ستشهد كثيرا من الاكتشافات العلمية والطبية الهامة ، التى تتيح للانسان أن يعرف نفسه وأسرار جسمه !

LES CRIMES
DE L'AMOUR
Par
MARQUIS
DE SADE
(قصص تاريخية وخيالية)
أطرف وأبقى كتب المركيز "دى ساد"
مبتدع مذهب التعذيب فى الحب

« دى ساد » .. الكاتب القصصى !

● ربما كان المركيز دى ساد ـ مبتكر مذهب التعذيب كمصدر للذة فى الحب ـ مستهترا ، وفاجرا .. ولكن السجن الذى ابتلى به والذى استغرق معظم سنى حياته ـ بعد الثلاثين ـ مهد له الفرص كى يستعرض تجاربه ومغامراته ، فيحللها ويخرج منها بآراء تجلى ـ فيما بعد ـ ان لها قيمة كبرى فى مجال الدراسات النفسية والجنسية .. ولقد انصرف « ساد » خلال سنى سجنه ، وبعدها ، الى تسجيل خواطره وتحليلاته هـذه ، فى مجمـوعة من الكتب والمسرحيات والقصص التى نختار لك هنا باقة منها ، اقطفناها لك من كتابه « جرائم الحب » .. فتعال نقرأ « عينات » من قصص دى ساد !

الريفى والوزير

● ظفر ضـابط من ريف (جاكسون) بمنحـة من لويس الرابع عشر ، قدرها مائة وخمسون « بيستول » . فحمـل الأمر فى يده ، وولج دار السيد « كولبير » دون استئذان ، فاذا الوزير يجلس الى المائدة مع بعض كبار السادة . فقال بلكنة نمت عن موطنه : « من منكم ـ ايها السادة ـ السيد كولبير ؟ » . فأجابه الوزير : « انا يا سيـدى ، فأية خدمة أؤديها لك ؟ »

ـ **خدمة تافهة ياسيدى .. انها ليست سوى منحة قدرها مائة وخمسون « بيستول » ، تستحق الأداء فورا**

ورأى السيد كولبير ان يهزأ به ، فسأله ان يسمح له بانه يفرغ من غدائه أولا .. ودعاه الى المائدة ، حتى لايمل الانتظار . فقبل الضابط الدعوة . حتى اذا رفعت المـائدة ، قال الوزير للضابط ان بوسعه أن يصعد الى الطابق الاعلى ـ حيث كان بمكتبه ـ فيجد النقود فى انتظاره .

وصعد الجاسكونى ، ولكن كاتب الوزير قدم له مائة « بيستول » فقط . فلما احتج ، قال الكاتب : « لقد احتجزت خمسين بيستول ، فى مقابل غدائك ! » . واذ أبدى الضابط دهشته من فداحة ثمن الوجبة بالنسبة لما اعتاد أن يدفعه فى فندقه ، قال الكاتب : « ولكنك لا تحظى هناك بتناول الغداء مع الوزير ! » .. فما كان من الجاسكونى الا ان قال : « فى هذه الحال يا سيدى ، أرجو أن تحتفظ بالمبلغ كله ، وسأحضر معى ـ فى الغد ـ صديقا لنتناول الغداء مع الوزير ! »

حيلة الزوج الغيور

• من النساء من لا يرين مساسا بازواجهن ، فى أن ينعمن بشىء من الغزل ، ما دمن لا ينزلقن الى علاقات مع عشاق . وكثيرا ما تتأتى من ذلك نتائج أشد خطورة من الزلل ! .. ولعل فيما وقع لمركيزة « جيساك » عبرة ! .. فقد كانت امرأة مرحة ، ذكية ، لطيفة .. ولكنها كانت رعناء ، فلم تجد ضيرا فى ان تتبادل رسائل الهوى مع البارون « اوميلا » ، مطمئنة الى ان هذه الرسائل لن تؤدى الى اية عواقب ، وان بوسعها أن تبرهن لزوجها على طهرها ، اذا انكشف امرها !

وقدر للمركيز « دى جيساك » أن يقع على احدى هذه الرسائل ، فثارت غيرته ، وراح يتحرى . ومع انه لم يجد شيئا يدين زوجته الا ان الرسالة راحت تغذى شكوكه . فلما استفحل به الريب ، اقتحم مخدع زوجته ، ممسكا بمسدس فى احدى يديه ، وبكوب من عصير الليمون ـ فى اليد الاخرى ـ وسأل المركيزة أن تختار الميتة التى تحلو لها .. أما برصاص المسدس ، أو بالسم المذاب فى الليمون !

وعبثا راحت المركيزة تدافع عن نفسها .. ولم تجد ـ فى النهاية ـ بدا من ان تختار عصير الليمون المسموم . ولم تكد

تجرع قسما منه ، حتى صاح زوجها : « امسكى ! .. ما ينبغى لك أن تهلكى وحدك ، فماذا اكون فى الحياة ، اذا بقيت بعد أن حقرتنى وغررت بى ؟ » .. وشرب ما تبقى من عصير الليمون ، فصرخت المركيزة : « أواه ! .. لا تضن على بان استدعى قسا ، وبأن أودع أبى وأمى ، قبل الموت ! »

واقبل والدا المركيزة ، فارتمت على صدريهما ، وراحت - من جديد - تؤكد طهرها .. ولكن ، منذا الذى يلوم زوجا يخال نفسه مخدوعا ، وقد قضى على نفسه بما قضى به على زوجته ؟ ! ..

ثم وصل القس ، فقالت له المركيزة : « اننى فى هذه اللحظة الأليمة ، أود أن اعترف جهارا ، باننى نقية الضمير من اية شائبة .. فليكن هذا عزاء لأبوى ، ودرءا لشرف ذكراى ! » ، وأيقن المركيز من صدقها ، فصرخ فرحا ، وهو يحتضن حماه وحماته : « آه ، أيها العزيزان ، اطمئنا ، ولتغفر لى ابنتكما ما سببته لها من قلق ، فما كان فيما تناوله كلانا سم ما ! »

ولا تسل عما أصاب المركيزة ، اذ كان يقينها بأنها قد تناولت سما ، قد جعلها تشعر بكل الآلام واللوعات التى يحسها المشرف على الموت . فنهضت من مرقدها مرتجفة ، وعانقت زوجها وقد حل الفرح محل العذاب . ووعدت - وقد اتعظت بهذا الحادث الرهيب - فأقسمت ان لا تعود ما عاشت الى ذلك العبث الخفيف الذى يوحى بالزلل !

السباب المباح !

• **من أعجب الأمور** ، ان التعنت يذهب ببعض أصحاب التقوى ، الى الدرجة التى يرون عندها ان بعض الحروف اذا رتبت فى وضع أو آخر ، أغضبت السلطة السرمدية . ومن ثم فهم يوسعون الناس قسوة بتعنتهم هذا .

ومن هؤلاء الذين كانوا يعلقون اهمية كبرى على الكلمات اسقف (ميربوا) الكهل، الذى كان يعتبر - فى أوائل هذا القرن - من القديسين . وفيما كان مسافرا لزيارة زميل له ، ذات يوم، غاصت عجلات عربته فى الطريق الموحلة السيئة ، بعيدا عن اى عمران . وبذل الحوذى كل ما فى وسعه ،ولكن الجوادين أبيا أن يتحركا . وأخيرا ، قال الحوذى متحرجا: « انجوادى لن يتقدما خطوة واحدة ، طالما انت هنا ، ياصاحب القداسة ! » .. فأجاب الاسقف : « ولماذا ؟ »

- لانه لا بد لى من أن أوسعهما سبابا ، كما تعودا ، ولن ترضى قداستك عن هذا .. ومن ثم فلسوف نقضى ليلتنا هنا ، ما لم تسمح لى بالسباب !

فقال الأسقف ، وهو يرسم علامة الصليب : « لا بأس ، لا بأس ! .. انطلق فى السباب اذن ، ولكن .. اقتصد ما أمكنك ! »

وسب الحوذى جواديه اشنع سباب ، فاذا بهما يندفعان ، جارين العربة ، فاخرجاها من مأزقها .. وقدر للأسقف أن يصل الى غايته سالما !

الزوجة التقية !

• عندما بلغ السيد دى « سيرنفال » الاربعين من عمره ، كان دخله يتراوح بين اثنى عشر ألفا من الليبرات . فكف عن التجارة التى كان يحترفها ، واستقر فى باريس ، وتزوج من

فتاة فى حوالى الرابعة والعشرين من عمرها ، كانت ابنة أحد زملائه السابقين .

ولم يكن فى الدنيا من تضارع السيدة دى سيرننفال تقوى، وصلاحا ، وأدبا ، وجمالا ، و .. حبا لزوجها . ولم يكن يعيبها سوى تطرفها فى التمسك بتعاليم الدين ، فلم تكن تسمح لعضو من جسدها بأن يبدو عاريا ، ولو أمام زوجها نفسه ، وكانت تأبى أن يقع بصر اى رجل غريب عليها . وبالرغم مما بذله زوجها من جهود ، فانها أبت أن تظهر معه فى المجتمعات.. وكانت لا تجد أفضل من الاناشيد الدينية لايناس زوجها والترفيه عنه ، وتسرف فى الصلاة وأداء الشعائر الدينية والتردد على الكنائس ، ومع ما كان فى كل هذا من مضايقة لزوجها ، الا أنه تقبل الواقع وهو مغتبط بتقوى زوجته وصلاحها .

وفى ذات يوم ، وفد من (نانسى) صديق قديم للسيد دى سيرننفال ، يدعى « ديبورت » . وكان صديقا حميما ، مرحا، لايفلت لونا من ألوان اللهو التى أتاحتها الطبيعة للرجال ، كى ينسوا بها متاعب الحياة ومشكلاتها . وابى كرم سيرننفال وحبه لصديقه ، الا ان يصر على ان يستضيفه فى داره .

وكانت فى (باريس) ــ فى ذلك الحين ــ دور خاصة للهو ، تتردد عليها أجمل الغيد ــ من آنسات ومتزوجات ــ ليلتقين بطلاب اللهو من اعزاب ومتزوجين ، فى جو من السرية والتكتم، حتى ان كل زميل لا يعرف حقيقة زميله !

ورغب « ديبورت » فى أن يتذوق هذا اللون من اللهو ، فلم يجد « سيرننفال » بأسا من أن يمهد له السبيل . واختار دار «س.ج» لتكون المعبد الذى يقدم فيه صديقه قرابين الهوى .. وسعى الى كاهنة ذلك المعبد ، فبين لها أن صديقه فى زيارة عابرة لباريس ، وانه ينشد امرأة « جديرة بالثقة .. امرأة شريفة ! » . فقالت المرأة : « انك لست من ذلك الصنف الذى يمكن خداعه والتغرير به ، ومن ثم فسأحدثك حديث

شرف ، وستتثبت من صدقى .. ان لدى بغيتك ، وهى امرأة فاتنة ، يدور رأسك ثملا اذا ما رأيتها ! »

وفى الساعة العاشرة من الصباح التالى ، كان الصديقان فى دار « س.ج » وفقا للاتفاق .. ولم يكن « سيرننفال » راغبا فى أن يشاطر صديقه مغامرته ، بل انه راح يتعجله ان يفرغ منها ، حتى ينصرفا الى ما كان لديهما من مهام . لذلك دفع «ديبورت» الى مخدع الغواية ، وجثم فى انتظاره

وانقضت ثلاث ساعات قبل ان يعود « ديبورت » الى صديقه ، فيؤكد له انه ما رأى فى حياته مثل فتنة صاحبته ، ولاحظى من لذاذات الهوى فى احضان امرأة بمثل ماحظى به فى يومه ذاك . فتساءل سيرننفال وقد دبت الحرارة فى دمائه : « أوهى حلوة ؟ » .. وهتف الصديق : **« حلوة ؟! .. لست أجد تعبيرا استطيع أن أصورها لك به .. وانها لتجمع الى ما حبتها به الطبيعة من مفاتن ، أروع فنون الغواية والامتاع! » ..**

وهكذا أفاض « ديبورت » فى الحديث عن المتع التى نعم بها ، وعن المرأة التى ساقها الحظ اليه ، حتى الهب فضول «سيرننفال» ، فاذا به يرجو «س.ج» ان تمكنه من ان يرى تلك المرأة ، وهى تغادر الدار . **وما أن انطلقت الغادة فى طريقها الى الخارج ، وهى تخطر معتدة بجمالها ، حتى صعق «سيرننفال» اذ تبين أنها لم تكن سوى زوجته ! .. زوجته بعينها ! .. الزوجة التقية التى كانت تأبى الظهور امام أصدقاء زوجها !**

وصرخ فى هياج : « أيتها التعسة! » . وهم بأن ينقض عليها ، ولكنها مرقت كالبرق الخاطف ، بمجرد ان لمحته . فلم يلحق بها .. وعبثا حاول «ديبورت» أن يسرى عن صديقه ، فقد بدا «سيرننفال» كالمجنون ، لقسوة الصدمة ، وأسرع الى داره ، ولكنه لم يجد أثرا لزوجته ، فانها لم تعد الى الدار بعد تلك المصادفة التعسة ، فعاش وحيدا ، يعانى مرارة الخزى والالم ،

ويصب نقمته فى حملات أراد بها ان ينبه الازواج المخدوعين ، دون ان يوفق الى تقويم شيء من فساد النساء !

ضحية القسوة الاخوية

• ليس أقدس ــ لدى أية أسرة ــ من شرف اعضائها . ولكن .. هل من الحكمة ان يصب أولئك المعنيون بالذود عن هذا الشرف نقمتهم على التعساء الذين يقدر لهم أن ينتهكوه ، ولو كان هؤلاء ضحايا مخدوعين ؟ .. أو ليس من المعقول ان نعتبر الاهوال التى يتعرض لها هؤلاء الضحايا ، جزاء كافيا لهم ؟ .. وايهما المجرم ، فى نظر العقل السليم : فتاة ضعيفة خدعت وفجعت فى عفتها ، أو ذلك القريب ــ أيا كان ــ الذى يشتط فى الثأر لاسرته ، فيجعل من نفسه جلادا للتعسة المغلوبة على أمرها ؟ .. ان الحادث الذى نضعه تحت ابصار قرائنا ، قد يساعدهم على البت فى هذا الصدد :

كان الكونت دى « لوكسوى » فى طريقه الى اراضيه فى (بيكاردى) ، ذات يوم من الأيام الاخيرة من شهر نوفمبر .. وفيما كان يجتاز غابة (كامبيين) ــ حوالى الساعة السادسة مساء ــ سمع أنين امرأة ، ينبعث من بقعة الى جانب الطريق ، فتوقف عن المضى ، وامر خادمه بأن يسرع ليرى سر هذا الانين . وما لبث ان علم ان ثمة فتاة فى حوالى السابعة عشرة من عمرها ، كانت ملقاة فى بركة من الدم ، دون ان يبين المصدر الذى كان هذا الدم ينساب منه . وسرعان ماخف الكونت الى تلك التعسة ، فأسعفها ، وحملها الى عربته .. وواصل الركب سيره .

وما ان وصل الكونت الى قصره ، حتى نقل الفتاة فى الخفاء الى غرفة قصية فى جناحه الخاص . فلما روى شوقه الى زوجته وابنه ، سعى الى الفتاة ، مصطحبا جراحا ماهرا ، فوجدها شديدة الشحوب والاعياء ، لفرط ما نزف من دمها !

ونصح الطبيب بتوفير أسباب الراحة لها ، وبتغذيتها ، وحملها على أن تستسلم للهدوء وعدم الانفعال ، ريثماتستعيد عافيتها . وحرص الكونت على اتباع تعليمات الطبيب . فظلت الفتاة تحظى برعايته ستة أيام ، دون أن يسألها قصتها . على ان الفتاة ناشدته ــ فى اليوم السابع ــ ان يصغى الى القصة ، وان يحكم فى أمرها . وهاهى ذى قصة محنها ومصائبها :

« اننى يا سيدى ابنة رئيس (توزفيل) ، وهو أشهر من أن تجهله . ومنذ عامين ، غادرت مدرسة الراهبات ، فلم أبرح منزل ابى ، اذ كانت امى قد توفيت ــ فى صغرى ــ فلم يدخر ابى وسعا فى ارضائى واسعادى .. **ولقد كان اسرافه فى العناية بى ، سببا فى ايقاظ غيرة شقيقى ، اللذين يبلغ احدهما السادسة والعشرين ، ويصغره الثانى بعامين .. وماكنت لأومن بأنهما يكنان لى كراهية ضافية ، لولا ما أنا فيه اليوم .. اواه، اشد ما كنت مخدوعة !**

« وكنت احظى فى دار ابى بكثير من الحرية ، وقد حصلت منذ ثمانية عشر شهرا على الاذن بأن أتنزه ــ فى كل صباح ــ مع وصيفتى ، فى حــدائق (التويلرى) ، وبأن أزور بعض الصديقات والقريبات .. وحدث ــمنذعامــ ان كنت أتمشى مع وصيفتى ، فى درب معتم من حدائق (التويلرى) ، واذا بستة شبان يحيطون بنا . وفى عنفوان الضيق والحيرة ، ابصرت شابا اعتدت ان اراه يتنزه فى الحدائق يوميا ، فى مثل موعد نزهتى . وكان مظهره يدل على النبل والشرف ، فلم اجد بدا من ان استنجد به . واستطاع السيد « ... » ــ واسمح لى ان اتكتم اسمه ــ ان ينقذنا من الشبان ، ونصحنى بأن لا أروى لاهلى ماجرى ، حتى لايدفعهم الاشفاق على من مثل هذا الحادث ، على ان يمنعونى من نزهتى المعتادة . وقال: «وستجديننى دائما على استعداد لان أضحى بحياتى ، لتجنيبك اية مضايقات أثناء نزهتك ! »

« واعتدت بعد ذلك ان التقى بالسيد « ... » - فى نزهتى، كل صباح - وأن أسمح له بأن يسير بجانبى ، وان يجاذبنى الحديث .. وما كنت أدرى ، وانا الغريرة الساذجة ، ان هذا سيكون يوما سبب ما أنا فيه ! .. فبعد ان تكررت لقاءاتنا فى الحدائق ، رجانى السيد « ... » أن أسمح فألقاه فى مكان آخر ، خشية أن يكون فى لقائنا بالحدائق العامـــة ما يمس كرامتى .. وقال : « اذا كنت تشفقين على من الموت أسى ، فاستجيبى لرجائى ! » . واستطاع بعد لأى ان يتغلب على رفضى ، وان يحملنى على أن اوافيه لدى تاجرة أزياء ، بشارع (ديزارسى) ، تدعى « مدام بيرسيى » ، قال انه كان يثق فى أمانتها وشرفها ، ثقته فى امانة أمه وشرفها !

« ونفذت خطته ، فياله من عمى عاطفى مشئوم ، قادنى حتى حافة القبر ! .. كان السيد « .. » يهدف الى ان يستغل ثقتى وضعفى ، وان يستولى على جسدى كما استولى على قلبى !

« وانقضى عام ونحن نلتقى ثلاث مرات فى الاسبوع ، فى متجر الازياء .. وفى ذات يوم ، ذهبت فى الموعد المعهـــود ، فاستقبلتنى « مدام بيرسيى » فى مدخل المتجر ، وقالت ان السـيد « ... » اضطر الى أن يتأخر ، وانها رأت أن تنتهز الفرصة لتفضي الى بأمر يهمنى . واستـدرجتنى الى غـرفـة داخلية معتمة . وفجأة ، انقضت امرأتان امسكت كل منهما باحدى ذراعى . ثم برز سيد غريب، انقض على،وهماتمسكان بى فنال منى وطره ، دون ان افلح المسكينة فى دفعه عنى» .. والفت نفسـها بعـد هـذا الاعتـداء - الذى حطم كبرياءها - تحت رحمة مدام بيرسيى ، التى راحت تهددها بأن تفضح أمرها لحبيبها واهلها ، وان تدعى انها من ذلك الصنف من النساء ، اللاتى يترددن على دور صانعا ت الازياء ، ليبعن أجسادهن لطلاب المتعة لقاء مبالغ ينفقنها فى نواح واغـراض

لا يفرهن أهلهن عليها !

على أن « اميلى » لاحظت أن غياب حبيبها تكرر فى المرات التالية ـ كما تكرر استغلال مدام بيرسيى لضعفها وذلتها . الى أن كان ذات يوم ، اذ دخلت المتجر فى الموعد المعهود ، آملة ان تلتقى بحبيبها ، واذا بها تجد شقيقيها فى انتظارها بداخله !

* * *

• « **وجمد** الدم فى عروقى . . وصاح أخى الاكبر : « أهكذا كنت تعبثين بنا ، أيتها التعسة ! » . . وفقدت رشدى . فلما أفقت ، وجدتنى مكتوفة فى عربة ، مع شقيقى وامرأة عجوز بغيضة . وراحت دموعى تنساب مدرارا ، فلم تزد نيران لوعتى وأساى الا استعارا . وفى الساعة الحادية عشرة من النهار التالى ، وصلت الى قصر يمتلكه أخى الاكبر ، فى جوف غابة . فلما استقرت العربة فى فناء القصر ، تريث شقيقاى ريثما انفض الخدم ، ثم نقلانى الى غرفة معتمة رطبة ، فى القبو ، لا تتخلل جدرانها سوى نافذة مرتفعة . . ووجدت هناك المرأة التى رافقتنا فى العربة ، وامرأة أخرى على شاكلتها . وقال شقيقاى : « **ها هو ذا المسكن اللائق بفتاة لطخت شرف أسرتها . . ولسوف يكون غذاؤك متناسبا مع العلاج الذى قدرناه لك** » . . **ولوحا لى بقطعة صغيرة من الخبز الجاف الاسمر ، ثم استطردا** : « **وستتولى علاجك هاتان المرأتان ، فتستنزفان الدم من وريدى ذراعيك ، فى موعد كل مرة اعتدت ان توافى فيها السيد (...) لدى مدام بيرسيى . . ان هذا النظام سيقودك الى القبر ، ولن يرتاح لنا بال حتى نطمئن الى أن الاسرة قد تخلصت منك!** » . . وأمرا المرأتين فأمسكتا بى واستنزفتا الدم من ذراعى فى قسوة ، وفى آن واحد ، فلم تكفا حتى فقدت وعيى !

« وعندما أفقت ثانية ، دفع أخى الاكبر رسالة الى ، وهو يقول : « اقرئى يا آنسة ، لتعرفى الشخص الذى تسبب فى

مصائبك ! » .. يا الهى ! لقد تبينت فى الرسالة خط حبيبى ، وقد كتب : « لقد دفعنى الطيش يا سيدى ، الى أن أحب اختك ، وان أسلبها عفافها .. وكنت مزمعا ان اصلح كل شىء ، وان ارتمى على قدمى ابيك ، فأعترف له بذنبى ، وأسأله ان يزوجنى ابنته .. وفى اللحظة التى تبلور فيها هذا العزم ، اذا بى أتبين انها – فى الواقع – لم تتورع عن ارضاء شهوات أسوا الرجال ، تحت ستار السعى الى لقاءاتنا التى كان رائدها الشعور الامين الصادق . لذلك فلا تترقبوا منى اى اصلاح .. ولست أملك سوى ان اهجر تلك العابثة ، ولا أحتفظ لها الا بالكراهية والازدراء . وانى لافضي اليك بعنوان الدار التى تتردى فيها اختك يا سيدى ، لتتحقق من قولى » !

« ولم أصدق عينى .. ورحت أشد شعرى ، واهذى فما كنت لاتصور ان يكون حبيبى هو صاحب اليد التى دفعت بى الى القاسيين اللذين اعتزما ان يقتلانى – فى كل يوم – قتلا بطيئا ! » .

وقضت الفتاة شهرين فى سجنها هذا ، والمرأتان تستنزفان الدم من ذراعيها ثلاث مرات فى كل اسبوع .. ثم الانت ضراعاتها وذلتها قلب احدى العجوزين ، فساعدتها على الفرار .. وراحت المسكينة تجر قدميها جرا ، ساعية نحو (باريس) ، ولكن قواها لم تلبث ان فارقتها ، فانهارت فى الغابة ، وكادت تهلك لولا أن عثر عليها الكونت دى لوكسوى !

* * *

• وتأثر الكونت ابلغ تأثر لهذه القصة ، فأسبغ عطفه على الفتاة ، واستنكر كل الاستنكار تصرف حبيبها ، كما انكر على اخويها قسوتهما الاجرامية ، فما كانت الاغلال والتعذيب والحرمان من الحرية ، من أدوات التأديب والردع اطلاقا . وتطوع الرجل الكريم لمعونة الفتاة المظلومة ، فعرف منها مقر ابيها ، وموقعى دارى عمتها ومدام بيرسيى ، ثم الح فى معرفة

اسم حبيبها .. واجابت « اميلى » كل مطالبه ولكنها أبت ان تبوح له باسم الشاب ، فلم يزل بها ، حتى قالت بعد لأى : « انه .. المركيز دى لوكسوى ! »

ولم يستطع الكونت ان يخفى دهشته واضطرابه ، اذ سمع اسم ابنه يصدر من شفتى الفتاة التى لم تكن تعرف شخصه ولا اسمه . وهتف الرجل أخيرا فى حرارة : « لابد له من ان يصلح ما افسد يا آنسة . اعدك بأن يكفر عن ذنبه ! »

وانصرف الرجل تاركا اياها فى خضم من الانفعالات المتباينة. ولم تره - بعد ذلك - الا فى اليوم الرابع ، اذ اقبل على غرفتها، وهو يقود حبيبها ، قائلا : « هاقد جئتك يا آنسة بمصدر محنك ومتاعبك ، وقد أتى ليستغفرك ، ويصلح ما أفسد ، ويركع عند قدميك ضارعا ان لا ترفضى الزواج منه ! »

وارتمى المركيز على قدمى « اميلى » فعلا ، بينما انسحب الكونت من الغرفة ، وترك الحبيبين يتحاسبان ويتعاتبان !

ولم ينقض خمسة عشر يوما، حتى تحاملت الانسة «اميلى» دى تورفيل » على ساقيها ، واستقلت عربة مع الكونت - الذى البسها ثوبا ابيض ، دليل البراءة - وابنه ، ويمم الجميع شطر قصر « تورفيل » . وكان الاب مع ابنيه ، حين دخلوا عليه . فبادر الكونت قائلا له: « هاك ياسيدى ، البراءة بعينها ! » وجثت « اميلى » عند قدمى أبيها ، بينما راح الكونت يروى له القصة كلها ، ويطلب يد «اميلى» لابنه المركيز.

وانسابت دموع الاب وهو يسمع المتاعب والوان العذاب التي مرت بها ابنته التي كانت حبيبة الى فؤاده ! .. وما ان فرغ الكونت من الحديث ، حتى احتضن الاب ابنته ، ثم تحول فقبل المركيز ، دلالة على انه قبله صهرا . وساد المكان ابتهاج وطمأنينة ، لم يعكرهما سوى ماتبدى من غيظ على شقيقى «اميلى» ، اللذين حاولا ان يحتجا على تصرف ابيهما ، فلم يكن منه الا ان صب سخطه عليهما ، وطردهما من قصره !

وبعد ثمانية أيام ، زفت « اميلى » الى المركيز الشاب ، فى حفل لم يحضره شقيقاها ، اللذان هددهما ابوهما بالسجن – جزاء ما اقترفا من الوان التعذيب الوحشى ومحاولة قتل اختهما – اذا هما اعترضا سبيله .. فيا لعدالة السماء ، ويالفظاعة مايحل بأولئك الذين يقحمون أنفسهم ليعاقبوا الغير على أخطائهم !

الجزاء من جنس العمل

• عاش يوما ، فى مدينة (سان كينتان) – التى اشتهرت بمن أنجبت للادب من عباقرة – سيد طيب من ثراة الطبقة المتوسطة ، لعله انحدر من أصلاب الشعراء الفرسان (التروبادور) الأماجد ، الذين جاسوا ضفاف نهرى (لواز) و (السوم) فى غابر الازمان .. وكان يعيش مبجلا مع زوجته وابنة عمة له تقية ، صرمت من العمر اثنتين وعشرين سنة ، وقضت فى أحضان الرهبنة أربعا منها .. وكانت الاخت « بترونيى » – وهذا اسمها – سمراء مليحة ، ذات عينين جذابتين ، وصوت رخيم .. وقد أوتيت من اللطف فوق ما أوتيت من التدين ! .. أما السيد « ديسكلابونفيل » – كما كان صاحبنا يسمى – فكان شابا بدينا ، فى الثامنة والعشرين من عمره . وكان يهيم بأبنة عمته هياما علويا ، حتى لقد ظل عشر سنوات وهو ينام معها ، دون ان تفطن زوجته !

وظلت السيدة ((ديسكلابونفيل)) تجهل أن ثمة مايدعوها الى الانتقام من زوجها الخائن . فقد كانت ساذجة ، طيبة ، لايخطر ببالها شيء عن الجريمة الشنيعة التي يسميها الفقهاء زنى ، ولا يسميها الظرفاء ـ الذين يهونون كل شيء ـ سوى.. مجرد استلطاف !

على ان الزوجة المخدوعة لاتلبث ـ عادة ـ ان تنتبه بوحى من غريزتها الفطرية . ومن ثم فان السيدة « ديسكلابونفيل » انتبهت ـ اخيرا ـ الى ان زوجها العزيز ، كان يكثر من زيارة ابنة عمته الراهبة ، فوق ماينبغى . واشعل شيطان الغيرة النار فى اعماقها ، فتربصت ، وتحرت حتى اذا استوثقت من العلاقة التى كانت بين زوجها والاخت « بترونيى » ، شرعت ـ فى تؤدة ـ ترسم خطة الانتقام !

* * *

. وما ان اطمانت السيدة « ديسكلابونفيل » الى خطتها ـ اخيرا ـ حتى صارحت زوجها بأن المسلك الذى لاحظته منه كان يخترم قلبها أسى ، وانها ماكانت اهل لمثل هذه المعاملة منه . واهابت به ان يثوب الى رشاده . فأجاب الزوج فى لباقة : ((أثوب الى رشادى ؟ .. اذن ، فأنت تجهلين أننى انما أطهر نفسى اذ انام مع ابنة عمتى الراهبة ، يا عزيزتى ؟.. ان المرء ليمحو الأوشاب عن روحه ، مع مثل هذه الرفيقة القديسة ، فيتعرف الى الكائن العلوى ، ويسمح لروح القداسة بأن تنفذ الى أعماقه .. ما من امرىء هام بالأشخاص المباركين يا عزيزتى ، الا وتفتحت له الطريق الى النعيم السماوى !))

ولم تنبس السيدة « ديسكلابونفيل » ببنت شفة ، وانما اقسمت فى سريرتها ان تتذرع بمنطق يفوق منطق زوجها بلاغة ، كى تبرر ما اعتزمت أن تقوم به . فالشيطان على استعداد دائما لخدمة النساء !

وكان فى المدينة أسقف مستهتر ـ يدعى الأب «بوسكيه» ـ فى العقد الثالث من عمره . وكان لاينفك عن الجرى فى أعقاب النساء ، والسعى الى أن يدوس جباه جميع الأزواج فى (سان كينتان) .. وعملت السيدة « ديسكلابونفيل » على التعرف الى هذا الأسقف . وغنى عن القول ، ان الأسقف حرص ـ من ناحيته ـ على التعرف اليها .. وانتهى الأمر بالاثنين الى ان يغرقا بكل كيانيهما فى هذه المعرفة !

وما ان انقضى شهر ، حتى كان كل أهل المدينة يرثون لحال « ديسكلابونفيل » ، الذى كان يزهو بأنه الوحيد الذى نجا من غزوات الأسقف الغرامية ، وأن جبينه كان الجبين الأوحد الذى لم يطأه نعل فى (سان كينتان) ! .. فلما نمى اليه الأمر ، قال لأولئك الذين فاتحوه فيه : « هذا مستحيل ، فان زوجتى عاقلة حكيمة ، ولن أصدق الأمر ، ولو ردد على سمعى مائة مرة ! »

وقال له أحد أصدقائه : « اذن ، فتعال معى لتنظر بعينيك ما يقنعك ! »

* * *

◆ **وترك** « ديسكلابونفيل » صديقه يجره الى بقعة منعزلة من المدينة ، على ضفة نهر (السوم) ، حيث ينحصر الماء بين هضبتين عاليتين تكسوهما الزهور والاعشاب ، مؤلفة حوضا للسباحة من أبدع الأحواض وأحبها الى سكان المدينة .. على انهما فى الأوقات والمواسم التى لا سبيل فيها الى السباحة ـ كالآونة التى اقتيد فيها « ديسكلابونفيل » اليها ـ كانت تنقلب الى ملتقى للعشاق !

وفاض قلب الزوج بالحزن ، حين رأى زوجته الشريفة ، وغريمه الورع ، قد سبقاه الى المكان .. وقال له صديقه :

ـ ها .. هل بدأ جبينك يشعر بوطأة النعل ؟

فقال الزوج وهو يتحسس جبينه ، على الرغم منه : «ليس بعد .. لعلها اقبلت لتدلى الى الأب باعترافها ! »

ـ اذن ، فلننتظر حتى ترى بعينيك ، ولن يطول بك الانتظار ! ...

وأخذت الزوجة والأسقف يتمشيان ، حتى اذا بلغا ناحية ارتفعت فيها الاعشاب وتكاثفت ، شرع الأب « بوسكيه » يبدى من فنون الغواية والفجور ما ينم عن طول باع ، ثم أقبل يؤدى واجبه القدسى ليساعد « ديسكلابونفيل » على ان يغدو فى مستوى غيره من أزواج المدينة !

وقال الصديق للزوج : « ها .. ما رأيك الآن ؟ »

فقال ديسكلابونفيل فى حرارة : « لننصرف ، فاننى أخشى ان أقتل هذا الراهب الشرير ، فأكون قد اشتريت حياته بثمن لا تستحقه ! .. لنعد يا صديقى ، وأناشدك أن تكتم السر من أجلى ! »

* * *

• **وعاد** « ديسكلابونفيل » الى داره مهموما محسورا .. حتى اذا حان موعد العشاء ، أقبلت الزوجة الماكرة فى أطهر مظهر ، فصاح الزوج وهو يتحرق غيظا : «مهلا ايتها العابثة .. لقد اقسمت لوالدى ـ منذ صغرى ـ ان لا أجلس الى مائدة مع الخاطئات ! »

فهتفت الزوجة فى اجلى آيات البراءة والسذاجة : « الخاطئات ؟! .. وما الذى تأخذه على ، يا عزيزى ؟ »

ـ ويحك يا فاجرة ! .. ما الذى كنت تفعلينه عصر اليوم مع أسقفنا ، عند حوض السباحة ؟

فهتفت فى رقة : « أواه ، يا الهى ! .. **ما كنت أفعل سوى ما قلته انت لى ! انما اتبعت آراءك ! .. ألم تقل لى ان لاذنب على من يضاجع الأفراد الذين وهبوا انفسهم للكنيسة ، وان**

المرء يطهر روحه اذا اتصل بأهل القداسة ، فيتعرف الى الكائن العلوى ، ويسمح لروح القداسة بأن تنفذ الى اعماقه ، وتتفتح له طريق النعيم السماوى ؟ .. حسنا يا صغيرى ، انني لم افعل سوى ما حدثتنى انت به ، ومن ثم فأنا الآن قديسة ! »

دهاء النساء .. ومكر الرجال !!

● فى لحظة من لحظات الرعونة والنزوات المستغربة، أوحت الطبيعة الى الانسة دى فيلبلانش ـ التى لن نلبث أن نصادفها كثيرا ، فى قصتنا هذه ـ بأن اعظم المتع التى يمكن ان تحظى بها ، دون ماخوف ولا هواجس ، هى تلك التى تستطيع ان تستمدها من افراد من نفس جنسها .

وهكذا انضمت الانسة دى فيلبلانش الى زمرة النساء اللائى يجرمن فى حق الطبيعة، اذ ينسقن لنزاوتها ، ويلتمسن من مغالطات الفلسفة ما يبرر تصرفهن ، فيزعمن أن العذاب الذى يتشاطرنه فيما بينهن ، أفضل وأهون من العذاب الذى يتوهمنه فى اتصالاتهن بالجنس الآخر .. هذا العذاب الذى يعتبر عظيم النفع كوسيلة للتكاثر !

وبين آلاف القبلات ، راحت الحسناء اوجستين دى فيلبلانش ، تفيض من فلسفتها هذه على احدى صديقاتها ، وهى تزين لها هذا التصرف المنافى للطبيعة ، مبينة لها جدواه اذ يمكن لبنات جنسهما من ان يحظين بالمتع واللذات ، دون ما خوف من عواقبها ، ودون ماتعرض للشبهات التى يحيط بها المجتمع من ينشدن المتعة عن طريق الاختلاط بالجنس الاخر !

الا ماأعدل السماء ، اذ انها لم تسمح لنزوات افراد من هذه الفئة ، بأن تؤدى الى تناقص الناس ، وانقراض البشر !

* * *

● **وتمادت** الانسة « اوجستين دى فيلبلانش » فى مسلكها

هذا ، مزهوة بحريتها ، وبانها لم تسلم قيادها لاى فرد من الجنس الآخر ، وبانها دائما سيدة نفسها !

واذ بلغت العشرين من عمرها ، وآل اليها حق التصرف فى ثروتها التى كانت تدر ثلاثين ألف ليبرة دخلا ، فى السنة — عقدت عزمها على ان لاتتزوج البتة .. بل أنها — وهى الجميلة ، الفتانة ، ذات العقل المرهف ، والثقافة الواسعة ، والدم الحار ، وات الرجال كراهيتها ، وأصمت أذنيها عن سماع كلماتهم ، وكرست نفسها سادنة فى معبد « سافو » — الهة العشق والخلاعة — لاتلقى متعتها الا فى صحبة بنات جنسها فحسب!

والحق انها كانت خسارة فادحة ، بالنسبة للرجال ! . . نقد كانت وافرة الحسن ، ذات شعر فاحم جميـل ، وأنف اقنى ، وأسنان كاللؤلؤ المنضود ، وعينين حافلتين بالجاذبية والاغراء ، وحيوية تثير أصلب الرجال .. اما بشرتها ، فكانت ناعمة،ذات بياض تعجز الكلمات عن وصفه .. كانت ـ بايجاز ـ ذات اغراء قوى ، حتى أن الرجال كانوا يتهافتون عليها ، فلا ينالون منها سوى السخرية والتهكم .. وكانت تضحك من كل محاولة تبذل من الجنس الآخر لاستمالتها ، وتهزأ بـكل غزل ومناجاة ، وتضن بيدها على كل رجل ، مهما يكن شأنه !

وكانت — لفرط اعتدادها بنفسها — تولع بتدبير المغامرات، للعبث بالرجال ، والضحك منهم ، وهى تجد فى ذلك لذة دونها كل لذة !

* * *

• **وقدر** لها يوما أن تلتقى بشاب يدعى « فرانفيل »، كان يضارعها انسياقا لفلسفتها .. وكان يناهزها سنا ، ولكنه كان أقل منها ثروة . **وقد اعتاد أن يعبث ببنات الجنس الآخر فى استهتار وغير اكتراث .. على أنه لم يـكد يرى الانسـة دى فيلبلانش ، حتى هام بها حبا ، حتى فقد حجـاه فى هواه ،**

واقسم اغلظ الايمان ان لايبرح الميدان حتى ينتصر على هذه الجامحة العنيدة .

ولقد باح بعزمه هذا لبعض أصدقائه، فضحكو منه،واكدوا له أن لا سبيل الى نجاحه . ولكن هذا التثبيط لم يزده الا تشبثا بعزمه ، حتى انه تحداهم وتحدى الحظ ، وأكد انه لن يلبث أن يفوز بالفتاة التى عجز جميع الرجال عن الظفر بها .

وكان فرانفيل يصغر الانسة فيلبلانش بعامين ، ويكاد ان يكون أمرد ، ناعم الذقن والفودين .. وقد أوتى قواما بديعا ، وقسمات دقيقة رقيقة ، وأجمل شعر أوتيه رجل فى الدنيا ، حتى أن أحدا لايستطيع أن يرتاب فى انوثته ، لو انه ارتدى ثياب النساء .. **وكانت هذه نزوة من النزوات التى كانت تحلو له ، كلما شاء أن يسخر من أبناء جنسه .. وهكذا كان اذا لبس زى الاناث ، خدع الجنسين معا .. وكم من مغازلات، وكم من عبارات، وكم من عهود أريقت عند قدميه من الجنسين، وهما معا يحسبانه من الحسان اللائى لاتجود الطبيعة بهن، الا فى مناسبات متباعدة !**

وفى ثياب النساء ، خيل لفرانفيل ان بوسعه ان يغالب عناد الانسة دى فيلبلانش ، وأن يستهويها .. ولسوف نرى فى هذه القصة كيف جرت حيلته ، وما آلت اليه مغامرته !

* * *

ذلك ان الانسة دى فيلبلانش ، كانت بدورها تجد أعظم أسباب اللهو ، فى أن ترتدى ثياب الرجال ، وأن تجوس بها الاوساط والمجتمعات التى تجد فيها ــ وهى فى تنكرها هذا ــ فرص العبث والضحك من أبناء جنسها، وأبناء الجنس الغريم .

ولقد عرف « فرانفيل » عنها هذا ، فبيت نيته على أمر .. وراح يتجسس حركاتها ، ويتعرف المناسبات التى كان يحلو لها فيها ان تقوم بمغامراتها وهى فى ثياب الرجال ! .. **وفى أحد**

الايام ، نمى اليه انها كانت تعتزم ان تحضر حفلة رقص تنكرية فى دار ((الاوبرا)) ، وأنهــا رسمت خطتها على ان تذهب الى هذه الحفلة فى ثياب ضابط من الفرسان .. فما كان منه الا ان تنكر فى زى فتــاة ، وأتقن الاستخفاء ، وأمعن فى اضــفاء مظاهر الحسن على مظهــره ، وجهــد مااستطاع فى زينتــه ، مسرفا فى الخضاب والطلاء والمعاجين والمساحيق .. ثم ذهب الى الحفلة فى صحبة شقيقة من شقيقاته

وما أن خطر « فرانفيل » فى القــاعة ، حتى اتجهت اليــه انظار ثلة « اوجستين » .. وما لبثت الفتاة نفسها ان ساءلت واحدا ممن كانوا فى صحبتها : « ترى من هذه الحسناء ؟ .. يخيل الى أننى لم أرها قط فى أى مكان ، من قبل .. فــكيف فاتنا ان نكتشف مخلوقا أوتى مثل هذا الجمال ؟ »

وما أن قالت ((اوجستين)) هذه الكلمات ، حتى سعت بكل حيلة الى التقرب الى الفاتنة ومجاذبتها أطراف الحديث .. وتحاشتها ((الانسة)) دى فرانفيل ، فى بادىء الامر ، وراحت تروغ من ((الفارس)) الجميل ، وتتهرب منه ، لتزيد من شوقه وتحمسه !

على ان « فيلبلانش » ان ضيقت عليها الخناق واستدرجتها الى الحديث ، بكل الاساليب المتبعة فى مثل هذه الظروف .

* * *

• ولم تلبث الانسة دى فيلبلانش ان قالت : ماافظع الحر فى قاعة الرقص ! .. تعالى ننشد نسمة من الهواء ، فى هــذه المقصورات التى أفردت للعب الميسر ، وللسمر ! »

فقال فرانفيل ، وهو يمعن فى أساليب العذارى : ((أواه ، ياسيدى .. لست أجرؤ على أن أخلو الى رجل ، فما جئت الى هنا الا فى حراسة أختى . وانى لاوثق من ان أمى لن تلبث ان تفد ، فى صحبة الرجل الذى اختير ليغدو زوجى . ومــا

أشدهامن طامة،اذا قدر لامى أو خطيبى أن يرانى فى صحبتك!!»
ــ مهلا ، مهلا ! .. جدير بك أن تتغلبى على مثل هذه المخاوف التى لاتراود سوى الاطفال .. كم عمرك ياملاكى الجميل ؟
ــ ثمانى عشرة سنة ياسيدى
ــ ان للمرء ، فى مثل سنك ، كل الحق فى أن يفعل مايحلو له .. هيا ، هيا ! .. اتبعينى ، ولا تخافى شيئا !
وتظاهر « فرانفيل » بأنه لان ، فقالت « أوجستين » وهى تقوده الى مقصورة مجاورة لقاعة الرقص : « لا عجب فى أن تكونى مقدمة على الزواج ، وأنت على هذا القدر من الفتنة .. الا ما أسعد ذلك الرجل المجدود ، ولكم أتمنى لو اننى كنت فى مكانه ! .. أفتراك كنت تقبلين الزواج من رجل مثلى ، ياابنة السماء ! »
ــ واأسفاه ، ياسيدى .. انك لتعرف ان الفتاة الصغيرة لا تملك ان تتبع وحى قلبها !
ــ بل ان فى وسعك أن ترفضى هذا الرجل البغيض ، فان كلا منا يليق بالاخر ، واذا قدر لنا أن نتبادل الانسجام ، فما الذى يحول دون زواجنا ؟ .. لست فى حاجة ــ ولله الحمد ــ الى ان استأذن احدا، فأنا فى العشرين من عمرى، حر التصرف فى شئونى .. واذا استطعت أن تقنعى أبويك بأن يقبلانى ، فلن تنقضى أيام ثمانية حتى يضمنا العش الخالد ! »
وفى تلك الاثناء ، كانا قد غادرا قاعة الرقص ، واستطاعت «اوجستين» ان تستدرج فريستها الى مكان منعزل ، لايخطر ببال أحد من رواد قاعة الرقص ان يقطع عليهما حبل خلوتهما فيه . فلقد استقر رأيها ــ فى عزم أكيد ــ على أن تتخذ من الفاتنة الساذجة ، عشيقة لها ، على النمط الذى ألفته !

* * *

• وما أن رأى « فرانفيل » الفتاة تغلق باب الحجرة دونهما ،

ثم تأخذه فى احضانها ، وتضمه الى صدرها ، حتى ازداد غلوا فى تمثيل دور الفتاة الساذجة ، وهتف فى وجل : ((**أواه ! .. رباه ! ما الذى تبغيه ياسيدى .. كيف لى أن اكون معك فى خلوة ، فى مكان منعزل كهذا .. دعنى ، دعنى ! .. استحلفك، وأهيب بشهامتك أن تتركنى !))**

فقالت اوجستين وهى تلصق شفتيها بشفتى الشاب ،الذى كانت تزداد يقينا بأنه فتاة : ((تخلصى منى ان استطعت ياملاكى ! .. اصرخى ان شئت ، فان الهواء الذى تنبعث به صرختك لن يزيد قلبى الا ضراما !))

وراح ((فرانفيل)) يصدها فى ضعف واستخذاء ، لم يؤديا الا الى زيادة جرأة ((اوجستين)) ، فراحت تستخدم كل فنونها ، حتى استدرجت الفتاة المزعومة الى أن تلين لهاوتمكنها من أن تمارس معها المتعة الشاذة التى كانت تألفها .. وأجاد ((فرانفيل)) تمثيل دور الفتاة ، حتى اذا تملكت النشوة ((اوجستين)) ،انقلب مسفرا عن حقيقته ، كاشفا عن رجولته!

وصرخت اوجستين : ((**يا للسماء ! .. اذن ، فأنت لست أنثى ! .. يا لك من بشع بغيض ! .. الا ماأتعسنى وأشقانى!))**

فقال ((فرانفيل)) ، منتقلا الى المرحلة الثانية من حيلته : ((لست أكثر منى تعاسة وشقاء ، فقد جهدت فى تنكرى ، كى استدرج الرجال الذين أهيم بهم ، واستطيب معاشرتهم !))

– أما أنا ، فما اشد كراهيتى للرجال ! .. اننى أبغضهم بقدر ما تحبهم انت وتنفر من النساء !

– الا ما أعجبها من مصادفة ! .. هذا غاية ما يمكن ان يقال فى هذه المناسبة !

ولكن ((اوجستين)) لم تتلق الأمر بمثل هذه البساطة والبرود ، فقد كانت خسارتها أفدح وأبعد اثرا من خسارة ((فرانفيل)) ! .. لذلك راحت تنحى على الشاب باللوم ، فى ثورة عاتية .. ولكن فرانفيل لم يلبث ان قال : ((**حسبك !..**

فيم نتشاجر ، ونحن فى الذنب سواء ؟ .. ان اقصر الطرق لفض الأمر ، هو أن نعجل بالافتراق ! » .. وسار الى الباب يفتحه ، ولكن « اوجستين » أسرعت تستوقفه ، وهى تقول : « مهلا ! .. اننى لأدرك أنك ستذيع الأمر فى كل مكان ! »

- أو ليس من حقى أن أتسلى بذكر خيبتى ؟

فصاحت فى حنق : « اذن فعجل باذاعة كل ما تشاء ! »

على انه لم يكد يتجه الى الباب ثانية ، حتى الفاها تعترض طريقه مبتسمة ، وهى تقول : « لعمرى ، انها لقصة عجيبة !.. هل ترى ان نعود الى قاعة الرقص ؟ .. اننى لن اجرؤ على ولوجها مرة اخرى ، بل سأذهب الى دارى مباشرة ، فهلا اعرتنى ذراعك ورافقتنى الى بابى ، الذى لايبعد عن هذا المكان بأكثر من خطوات قلائل ؟ »

* * *

ورافقها « فرانفيل » ، حتى اذا بلغا باب دارها ، هم بالانصراف ، ولكن اوجستين قالت له : « أو من الشهامة ان تتركنى فى عرض الطريق ؟ » .. ما افظع اولئك الرجال الذين لا يميلون الى النساء ! »

ومرة أخرى ، أعارها « فرانفيل » ذراعه لتتكىء عليها ، وسار معها حتى باب جناحها ، ثم قال : « الا اسمحى لى بأن اتعجل العودة الى المرقص ، لأعوض مافاتنى بفضل غفلتى ! »

- ألى هذا الحد أنت آسف للقائى ؟ .. ما أقدرك على تكوين رأيك .. اما أنا ؟

- ماذا ؟ .. أو لست متأكدة من عواطفك ؟ .. ومبادئك ؟!

- لقد كنت واثقة منها بالأمس . اما اليوم ..

- لا تحتارى يا آنستى ، ها أنذا انصرف ..

- بل امكث .. الا ترضى بأن تطيع امرأة ، ولو مرة فى حياتك ؟

– ما من شىء يعز على أن افعله من اجلك ... وانى لصادق فى قولى !

– ألا ترى ان من المستهجن ان تمعن فى مسلكك الشاذ المنحرف ، ازاء الجنس الآخر ، وانت فى هذه السن ؟

– وهل ترين مسلكك انت مستحسنا ؟

– ان الامر يختلف .. فان مسلكى ينبعث عن اعتداد بكبرياء جنسى .. عن خوف من الاستسلام لجنس لا يستهوينا الا لكى يسيطر علينا ! .. اما انتم – معشر الرجال – فأمركم على النقيض .. ان انتصاركم يقوم على خذلاننا .. وكلما اسرفتم فى عبثكم ، اكتسبتم مزيدا من النصر والزهو .. ونحن حين نصد عنكم ، انما نتحمل الكثير ، ونركب المركب الصعب .. اما انتم ، فانكم لا تقوون على صد الأحاسيس التى نولدها فيكم !

– لعمرى ! .. انك لتوشكين ان تحولينى عن مسلكى !

– وهذا عين ما ابتغيه ! اننى لأعمل عن طيب خاطر لكى اكسبك للنساء ، ما دمت احب النساء دون الرجال ! .. او لست راغبا فى ذلك ؟

– لا ، فى الواقع .. ان غيرة النساء علينا ، تحرمنا من كل حرية .. على انه اذا قدر لك ان تفلحى فى تحويلى عن حب جنسى والنفور من جنسك ، فلن ارجو هذا الا من اجل امرأة واحدة ..

وتحول يبغى الانصراف ليعود الى المرقص ، ولكنها رمقته

بنظرة تذيب اقوى الارادات ، وقالت : « أوليس بوسعك أن تقابل تضحيتي بتضحية مماثلة ؟ .. انني ما بكرت بالعودة ، الا بعد ان نكبت بمعرفتك ؟ »

ـ او تسمين هذه نكبة ؟

ـ انت الذي تحملني على هذا .. فقد جعلتني اتبين ان من المستحيل عليك ان تحبني !

وانبثقت الدموع من عينيها ، واذ ذاك ذابت كافة الاستحكامات التي كان الشاب قد حصن بها قلبه ، فاذا به يركع عند قدميها ، ويغمر راحتها بدموعه وقبلاته ، وهو يقول : « مرحى ! .. لقد نلت أغلى ما يمكن لرجل ان يطمع في نيله ! » .. وراح يعترف لها بالحيلة التي رسمها ، مصارحا اياها بان هيامه هو الذي حفزه الى محاولة الظفر بها ..

* * *

• وتم زواجهما في الاسبوع ذاته ، فاذا الحنان والثقة والايثار تسود حياتهما ، فتجعل منهما أسعد رجل وأسعد امرأة .. واذا باكثر الفتيات تحررا وتمردا على الفطرة ، تغدو من أفضل النساء ..

وقدر للطبيعة أن تنتصر ، وان ينفذ حكمها ، فلا تكون المرأة الا .. لرجل !

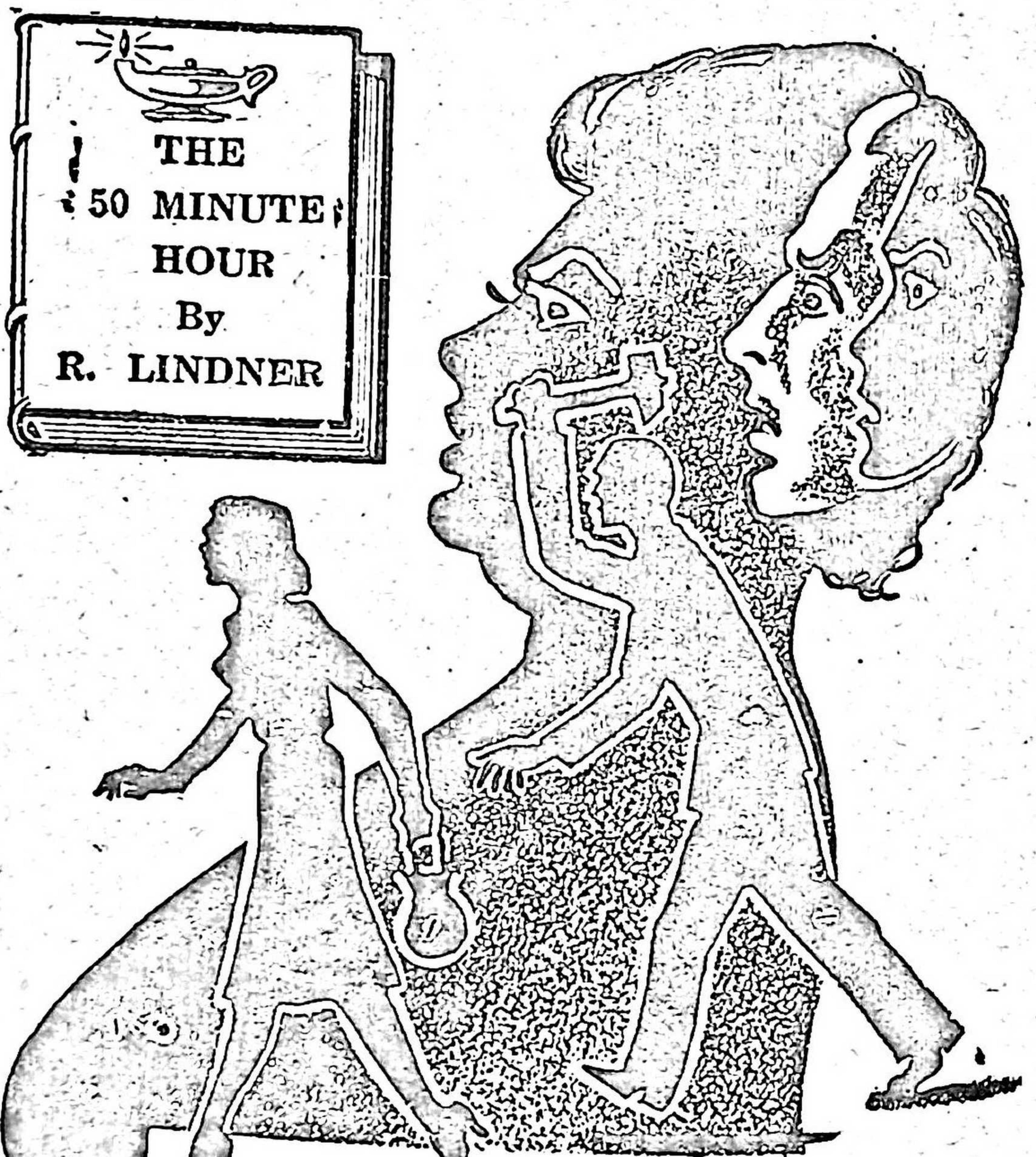

من خفايا النفوس !

المنبوذ !

قصة "حالة" نفسية واقعية

عالجها الأخصائى النفسانى الدكتور "روبرت لندنر"

تلخيص : الدكتور نظمى لوقا

مسئولية الوالدين نحو تربيــة الابناء !

« انا طبيب نفسانى ، التقى بحكم مهنتى بخليط من القتـلة والسفاحين ، والمنحرفين جنسيا ، والمصابين بشـهوة التعذيب ، او جنون العذاب !.. ومنهم من وصـل فى انحرافه الى حد العنف ، ومنهم من تجاوز ذلك الحد حتى حطم سواه ، او امسى هو حطاما !

« وانى لاجد من امانة العلم أن أميط اللثام للبشر عن خفايا هذه النفوس . فليس هؤلاء الجناة الا بضعة منا . وفى طوية كل نفس من نفوسنا بذرة هذه البلايا كلها . اذ اننا بشر ، والبشر ضعاف ..!

« فاليكم قصصهم .. وقد حل علم النفس وطب التحليـل النفسى رموزها ، وغاص فى اغوارها ، فاذا الانحراف مفهوم فى ضوء العلم ، واذا الشذوذ وقد ارتد الى حادثة فى الطفولة ، او نكبـة من نكبات التربية الفاشمة ، أو مرض لا حيلة فيه ! »

بهذه الكلمات يفتتح العلامة العالمى الدكتور « روبرت لندنر » كتابه هذا الذى جمع فيه عصارة تجاربه وخبرته النفسية والانسانية .. وانه ليسر (كتابى) أن يقدم لقرائه هذا الكتاب النافع ، ويبدا فى هذا العدد بنشر اولى المآسى التى احتواها ، والتى اختـارها الطبيب العالمى من سجله الحافل .. وسوف نرى عند قراءتها مدى فداحة مسئولية الوالدين نحو تربية ابنائهم تربية سليمة :

• لو أتيح لـكم ان تروا « شارل » فى شارع من شوارع مدينتكم ، لما دلكم شىء من مظهره على انه قاتل أثيم . ولقد كان ــ عنـدما رايته فى السجن ــ محتفظا بنضارة الفتيـان المتصوفين ، الذين نراهم عادة فى صفوف المنشدين فى الكنائس أيام الآحاد . وآخر عهـدى به وهو فى سن العشرين ، وقـد أوتى عينين زرقاوين تفيضان براءة وتساؤلا ، وكأنه يعجب : هل قدر عليه أن تقوم تلك القضبان الفولاذية بينه وبين العالم الفسيح ، الى آخر الدهر ؟

وكنت قد قرأت عن « شارل » قبل ان يودع ذلك السجن ، لأن فعلته كانت تحتل عناوين الصحف أياما متوالية .. ففى ذات يوم ، وفى مدينة ما ، وقفت فتاة شابة فى مدخل عمارة

سكنية ، وفى احدى يدنيها حقيبة تحتوى على نسخ من الكتاب المقدس واسفار من التوراة ، واقراص عليها تسجيلات مواعظ مشهورة . اما يدها الأخرى ، فكانت تحمل جهازا صغيرا من اجهزة الحاكى (الفونوغراف) . وتطلعت الفتاة المبشرة الى اسماء مستأجرى مساكن العمارة . وجعلت تجرب جرسا بعد جرس فلا تتلقى جوابا .. واجراس المساكن فى المدن الامريكية مثبتة فى صناديق البريد ، فى مدخل العمارة . وفوق كل جرس علامة صغيرة تتحرك حركة خاصة اذا حدثت استجابة من صاحب المسكن .

وادركت المبشرة ان جميع المساكن خالية من اصحابها .. ولكنها حين ضغطت الجرس الأخير تلقت ردا . **وانفتحت بوابة جانبية ، بحبل شدته يد من أعلى فجذب المزلاج .. ودخلت لتجد سلما داخليا ضيقا . ولما شرعت فى الصعود سمعت صوتا يافعا يسأل من أعلى من القادم . وقبل ان تصل الى الطابق الاول ابصرت شابا حديث السن يقف بجوار باب مفتوح ، وينطلع اليها بعينين زرقاوين ، فأدركت من حداثة سنه انه ليس رب الأسرة ، وابتسمت وسألته عن أمه وهل كانت موجودة فى البيت ، فأومأ بالايجاب وأشار بيده اشارة مبهمة نحو داخل المسكن ، فسألته : «هل أستطيع أن أقابلها ؟»**

— بالتأكيد ! .. ادخلى ، فهى فى آخر البيت ، فى حجرة النوم !

ودخلت المبشرة ، فوجدت الدهليز يتجه الى اليسار ، فدارت معه واجتازت مطبخا صغيرا ، لمحت فيه ثلاجة فوقها ادوات نجارة ، ورأت فى الصدر باب حجرة النوم .. وبينما هى تجتاز عتبتها ، سمعت صوتا خلفها . وما ان التفتت ، حتى انهال الشاب على رأسها بمطرقة كانت فوق الثلاجة ، وتحول — بعد ذلك — فطعنها بأزميل مما يستخدم لتقسيم

الواح الثلج ، تسعا وستين طعنة ، ثم القي بنفسه فوق جثتها الدامية وانتهكها !

.. بعد الجريمة ؟ !

• ولما نهض شارل عن الفتاة التى قتلها ، غادر المسكن دون أن يقفل بابه بالمفتاح ، وراح يهيم فى الشوارع .. وكان اليوم من ايام الخريف المشرقة ، التى يحلو فيها التنزه على الاقدام . وما لبث الشاب ان شعر بالجوع ، فجعل يفتش جيوبه بحثا عن نقود . فوجد عملة معدنية صغيرة ، اشترى بها قطعة من « الجيلاتى » ، سار يتحلبها فى بطء وتلذذ . ثم وقف فى الطريق الكبير ، يلوح بيده للسيارات الى ان وقفت احداها فركب . وسأله السائق عن مقصده ، فقال له : « الى نهاية الشارع »

— وما هذه المادة الحمراء التى تلطخك بهذا الشكل ؟ .. على وجهك ويديك .. وعلى ثيابك ايضا !

فرفع شارل كفه وحك بها صفحة وجهه ، فارتدت اليه ملطخة بالدم الجاف . فقال بغير اكتراث : « كنت اطلى شيئا ، ويبدو أن الطلاء انتشر على وجهى ! »

وضحك . وما لبث أن طلب من الرجل أن يقف ، ثم شكره ونزل .. حتى اذا بلغ اقرب محطة للبنزين ، دخل دورة المياه فغسل وجهه ويديه بعناية ، ومشط شعره ، وفرك اللطخ المتجمدة من الدم على قميصه وسرواله ، وغطى بياقة معطفه البقع الظاهرة فى صدر قميصه الأبيض ، ثم انصرف سائرا نحو البيت .

وفى منتصف الطريق ، راى قسم البوليس ، فوقف يتطلع اليه برهة ، ثم عبر الشارع وولج المبنى .. وراى جاويشا مكبا على أوراق فوق مكتبه ، فوقف أمامه صامتا هادئا .. الى ان رفع الشرطى وجهه اليه ، فقال له شارل ببساطة :

((هناك سيدة مقتولة فى المسكن (ب) فى عمارة جايلورد !))
وحك الشرطى مؤخرة رأسه ، وقال ببلاهة : ((ومن ادراك انها مقتولة ؟)) .. فكان جوابه : ((لأنى انا الذى قتلتها !))
وكان عدم الاكتراث الذى أبداه فى ذلك الموقف ، هو الطابع الغالب عليه فى الأيام الأولى من ايداعه السجن . وبعد تلك الأيام بدات تنتابه حالات مغص وآلام فى المعدة وغثيان ورغبة فى القىء . وبعد ثلاثة ايام اجريت له عملية استئصال الزائدة الدودية .

صوت يحرض على القتل

• ولم تفلح وسيلة من تلك الوسائل العادية التى تتبع فى ميادات التحليل النفسى لحمله على الكلام عن طفولته . وكان الوقت ضيقا والمحققون القضائيون يستعجلوننا . فقررت انا وزملائى حقنه بمادة ((نيتوتال)) التى تحل عقدة اللسان ، وتجعل الشخص فى غيبوبة شبيهة بالتنويم المغناطيسى . ثم جلست بجوار راسه ، وبدات الاستجواب بمجرد أن تأكدت من انه كان يسمعنى ، فقلت له :
— ان الذى يكلمك الآن ياشارل ، هو الدكتور ((لندنر)) .. سأسالك بضعة اسئلة ارجو أن تحاول الاجابة عنها . وعليك ان تقول اى كلام يخطر ببالك فى صددها . والآن اسمع جيدا . لماذا انت هنا ؟
— **لأنى .. لأنى .. قتلتها !**
— من هى التى قتلتها ؟ .. ولماذا ؟
— **فتاة .. لأن صوتا ظل يقول : اقتلها ، اقتل .. اقتل**
— من الذى قال لك ان تقتلها ؟
— **صوت .. لا أحد قال لى .. مجرد صوت .. لا ادرى من اين صدر**
— هل كان صوت احد ممن تعرف ؟

– كلا .. لم اسمعه من قبل !

– وهل قال لك الصوت كيف تقتلها ؟

– كلا .. لا شيء ، فقط : اقتل .. اقتل !

– وكيف قتلتها ؟

– بمطرقة .. ضربتها بمطرقة ، ثم بالازميل .. طعنتها مرات كثيرة .. طعنتها ، طعنتها . لم استطع ان اتوقف ثم سقطت المطرقة على الأرض .. تحت الفتاة .. وكانت لزجة من الدم

– وهل قال لك الصوت ان تقتلها بالازميل ؟

– كلا

– وهل كنت تسمع الصوت طول الوقت الذى ضربتها فيه؟

– نعم كان عاليا : اقتل ، اقتل ! ..

– واين كنت تطعنها

– فى كل جسمها!

– أليس هناك موضع معين ؟

– ثدياها !

– ولماذا اخترت ثدييها بالذات ؟

– يصنعان اللبن

– وهل كنت تريد لبنا ؟

– لست ادرى !

ومتى توقف الصوت ؟

– لا ادرى .. توقف فتوقفت

– وماذا فعلت بعد إن توقفت عن طعنها بالازميل ؟

عندئذ تأوه « شارل » ولم يجب . فكررت السؤال ، واذا بوجهه يتصبب عرقا . واخيرا ، تنهد وقال : «**لست ادرى!**». وتأوه ، وتلوى . فالححت عليه كى يتذكر ما أعقب ذلك من هتك لعرض الفتاة . وبعبارات متقطعة ، ناقصة ، راح الشاب يروى كيف كشف عن موضع العفة من الفتاة .. وكان يبكى وكأنه واقع تحت تعذيب .. وتجلى من روايته انه مزق غشاء بكارة الفتاة بأصابعه ! .. وهنا سالته : « ولماذا فعلت هذا ؟ » فأجاب : « **لأننى كنت .. حانقا عليها ! !** »

– ولكنها كانت قد ماتت . أليس كذلك ؟

فقال : « بلى .. كنت قد قتلتها ! » .. وجعل ينشج

بالبكاء ، ويحاول تمزيق وجهه بيديه . فسألته : « وهل كنت حانقا عليها مع علمك بأنهـا ماتت ؟ » .. واذ رد بالايجاب ، سألتـه عن السبب فقـال : « لأنى لم استطع ان أعثر على المكان ! » .. وكان يقصد موطن العفة !

- وهل الصوت هو الذى أمرك ان تفعل ذلك ؟

- كلا .. لا صوت !

- هل سمعت الصوت قبل ذلك اليوم ؟

- كلا مطلقا .. ولا بعده !

حياة عائلية مصدعة

.. • وفى صباح اليوم التـالى قابلت « شارل » فى مكتبى ، فحيانى ببشاشـة والفة .. وسألتـه عمـا علق بذاكرته من استجواب اليوم السابق ، فقال : « أتذكر جانبا يسيرا منـه : الحقنـة ، والتعب ، والتعذيب ! » .. ثم أخـذ يلخص لى الأسئلة ، وانا اساعده .. وما لبثت ان سألته عمـا اذا كان لديه ما يضيفه الى تلك الاقوال ، فأجاب بالنفى .

- ولماذا لم تخبر المحققين بهذه الحقائق يا شارل ؟

- لم تتح لى الفرصة . فلقد أصر المحامى على ان اعترف بجريمتى ، وأترك للمحكمة فرصة الرأفة بى .. واظنه قرر ذلك بعد أن تشاور مع أمى

- وهل كانت أمك تعرف شيئا عن الصوت الذى حدثتنا عنه بالأمس ؟

- نعم .. فلقد اخبرتها بكل شىء فيما عدا الجانب الخاص بانتهاك عرض الفتاة .

- ولماذا لم تسمح لك أمك بان تتعـلل بنوبة الجنون امام المحكمة ؟

- كانت تخشى اثارة الضجة حـول اسمها ، وتخشى ان يقترن بصفة الجنون ، لأنها تعمل بائعة فى أحد المحال الكبرى ،

وقد تفقد عملها بسبب الضجة .

ـ ولكن الصحف ذكرت الجريمة ونشرت اسمك ..

ـ هذا صحيح . ولكن امى غيرت لقبها منذ زمن طويل ، فلم تعد تحمل اسم ابى . وانا شخصيا اعتقد اننى كنت مجنونا حين اقترفت تلك الجريمة . ومع ذلك ، فما كان ينبغى ان يحضرونى الى سجن الاصلاحية . بل كان الأجدر ان يرسلونى الى مستشفى لأعالج ..

ـ اتعتقد ان من الممكن ان تعود الى مثل هذه الجريمة ؟

ـ لا ادرى .. اظن ان هذا محتمل !

ـ أتحب أن نبحث معا عن سبب اقدامك على ذلك العمل ؟

ورحب بالفرصة ، املا فى أن يعصمه ذلك من تكرار ما فعل .. وعلى ضوء البيانات التى ادلى بها ، ادركت ان رابطة الزوجية بين والديه كانت قد اصيبت فعلا بصدع عميق ، قبل مولده . فزهد كل منهما معاشرة الآخر ، وضاق بالطفلين اللذين تمخض عنهما ذلك الزواج فيما بعد . بيد أن النزعة الدينية لدى الام جعلتها تصطنع الرضى املا فى حفظ المظاهر الى النهاية . الا أن الامور استفحلت فى العام الثالث من عمر شارل ـ اى العام الثانى من عمر اخيه الصغير ـ فما لبث الوالد أن اختفى نهائيا من حياة الاسرة !

امه تلقى به ألى الملاجىء !

• **ولجأت** الام الى قسيس كنيستها فاشار عليها بايداع الصبيين فى مؤسستين للفقراء والايتام . وهكذا ظل الاخوان خمس عشرة سنة يعيشان منفصلين تماما ، وهما يتنقلان بين الملاجىء التى كانت ـ رغم ظاهرها ـ مباءات تسودها الفظاظة والقسوة والانحلال ، فكان نزلاؤها الصغار المساكين ينمون كما تنمو الاعشاب فى الصحراء . شوكية الاوراق ، تائهة الجذور تبحث في الارض الضنينة عن ذرات

الفداء هنا وهناك ، فتنمو ملتوية أشد الالتواء .

وكانت الحياة التي عاشها ((شارل)) في الملاجيء التي توالى عليها ، حياة فظيعة مروعة، تكتنفها المخاوف والعذاب . ففي سن الرابعة كان المشرفون يجلدونه لأهون مخالفة للتعليمات ، أو عبث بريء ، مما يصدر عن أبناء تلك السن . فشب وهو ينظر الى أفعاله وسلوكه - بل وكيانه - نظرة التأثم والخزى . حتى اذا اشتد عوده قليلا ، تأصلت فيه الكراهية ، وأصبح يجد لذته في ايلام سواه . وانقلب من الناحية الجنسية . فبعد ان كان هدفا للاعتداء من كبار النزلاء والمشرفين ، صار هو مصدر الاعتداء على من هم أصغر منه وأضعف !

ولم يتح لشارل طيلة هذه السنوات - التى انقلب فيها من طفل بريء الى ضحية ممزقة النفس والجسد ، ثم الى شرس محب للعدوان - ان يرى والدته الا مرات معدودة ، وفى زيارات خاطفة كانت تخلف شعورا بالنقص وعدم الاشباع !.. وكانت الام تحمل اليه الهدايا ، وهى تبدو - على حد قوله - كأميرة من اميرات الاساطير ، فى بهائها واناقتها ! .. ومع أن نفسه كانت تصبو دائما الى زياراتها ، الا أن جانبا من هذه النفس كان يكرهها ، لانها كتبت عليه هذه الحياة الاليمة . فاذا انصرفت ، كان الشعور بالفراغ والضياع يتكالب عليه ، فيشتد شقاؤه ، ويصب جام غضبه على من حوله وما حوله ، فى نوبات جنونية من القسوة والتحطيم ، غير مبال بفداحة العقاب !

وكانت أمه تستدعيه الى بيتها في بعض الاحيان والمناسبات ليقضى فترة وجيزة يتذوق خلالها طعم الحياة .. فكانت هذه الفترات تزيد شقاءه بحياته فيما بعد ، حتى انه هرب من المؤسسة التى كان نزيلا بها - فى سن الحادية عشرة - وهام على وجهه ، الى ان التقى فى الحقول ببعض الشبان المطرودين من المدرسة ، فانضم اليهم ، وانس بصحبتهم طول النهار .

وفى المساء ، عثروا بكوخ مهجور ، فاوقدوا نارا وجلسوا للسمر ، وهو معهم مستمتع بحياة الحرية . واخرج احدهم زجاجة خمر فشربوا منها وسقوه . ولما داعبه أحدهم ، كان فى شبه غيبوبة . فاغتصبوه تباعا - وكانوا ستة - حتى اذا افاق فى الصباح ، لم يجد لهم أثرا الا ماحمله جسده من تمزق الزمه المستشفى اسبوعين !

زعيم عصابة فى المدرسة !

• وخرج من المستشفى الى المؤسسة التى كان نزيلا بها ، وقد تحطمت لديه آخر الآمال فى صلات طبيعية ودية مع الناس . واصبح صعب القياد ، لاتطاق معاشرته ، حتى لقد طردته المؤسسة وهو فى الثالثة عشرة، فاشتغل عاملا فى مزرعة يديرها شيخ قاسى القلب . وقضى هناك ثلاث سنوات ، وهو أشبه مايكون بالدواب فى معيشته ، وعزلته عن الناس ، وارهاق العمل له ! .. ولكنه لم يلبث أن لاذ - وهو فى الخامسةعشرة - بأمه التى استقبلته استقبالا سيئا ،وحاولت أن تعيده الى المزرعة ، وجعلت تسبه وهى تبكى ، ثم تحدثت الى قسيسها الذى وعدها بأن يلحقه بمؤسسة أخرى من مؤسسات الايتام ، تهتم بالتدريب الصناعى للاحداث .

وفى تلك المدرسة الصناعية الداخلية ، عرف « شارل » حياة العصابات الاجرامية على اتمها . فهناك ستة غلمان كبار يحكمون المدرسة ليلا بقوة اليد والسلاح الابيض ، بينما كان سائر التلاميذ بمثابة حريم لهؤلاء الستة ، يتداولونهم فيما بينهم كما يشاؤون . ولقد أظهر شارل - منذ الليلة الاولى - تفوقه فى الشراسة على جميعاعضاء العصابة ، فانقض بمديته على ظهر الزعيم ، بعد أن اوقعه على الارض ، وشق قميصه من قفاه الى مؤخرته ، ثم نقش - بسن المدية - الحرف الاول من اسمه على احد ردفى الزعيم ، والحرف الاول من اسم ابيه

على الردف الآخر . ومنذ تلك اللحظة ، صار شارل هو الزعيم الاوحد . ولكنه مالبث – فى منتصف عامه السابع عشر – أن سئم المدرسة ومن فيها ، ولم يجد فى عمليات السطو الليلية – على المتاجر المجاورة لها – ما يسليه ، فهرب عائدا الى أمه مرة أخرى !

وفى هذه المرة ، لم تستطع امه أن تجبره على العودة الى المدرسة ، فراح يبحث عن عمل ولكن فترات عمله كانت لا تطول بسبب شراسته وانحرافه .. وكان قد قضى ثلاثة ايام متعطلا ، حين طرقت المبشرة بابه .

بيت بلا باب !

• **وتركت** لشارل الحرية فى أن يرسم مايشاء أثناء اجتماعاتنا ، فاذا به يرسم – ذات مرة – صورة كروكية لبناء كبير يعلوه صليب ، ويحيط به سور مرتفع واذ سألته عن ذلك الرسم ، قال انه احد الملاجىء الدينية الخيرية التى نزل بها وهو فى سن التاسعة . وقال وقد تقلصت ملامح وجهه : « لقد كان بيتا كريها ! »

– **ولكن هذا البيت لم يؤت بابا ياشارل ؟**

– كان له باب بالطبع ، ولكنى لم استخدمه مطلقا ، اذ كنت اقفز من فوق السور دائما .. اذهب واعود من غير ان يشعر احد !

– **واين كنت تذهب حين تقفز السور ؟**

– الى بيت امى بالطبع

– **أليس من الغريب انك كنت تعود دائما اليها رغم رفضها اياك ؟**

فاختفت الابتسامة من وجه شارل وتجلت فى نظرته الشراسة ، وهو يقول : « واين تريد أن يذهب غلام فى التاسعة ؟ كنت اتوقع فى كل مرة ان القى نتيجة مختلفة عن المرات

السابقة ! .. كنت احلم بأنها ستتلقانى بين ذراعيها ، وتطلب منى أن ابقى معها دائما .. وربما الحقتنى بمدرسة عادية كسائر من هم فى سنى ! » . وكان يغمض عينيه . ثم ابتسم ابتسامة شاحبة واخذ يكرر جملة مرات قوله : « كسائر من هم فى سنى .. الاولاد الذين يعيشون فى بيوتهم . ولهم امهات ! .. وكنت أصبو الى أن تصحبنى أمى الى متجر اشترى منه أشياء انتقيها واجربها ! »

ـ تجربها ؟ ماأهمية ذلك ؟

فضحك وهو يحملق فى وجهى ، وقال : « طبعا أجربها ، فاننى لم أجرب ـ طيلة عمرى ـ شيئا انتقيته من متجر .. كان كل شىء يفرض علينا ـ فى مؤسسات الايتام ـ بلا انتقاء ولا تجريب . لم أتمكن من الفرح بشىء ، ولم أشعر مطلقا بأن ماألبسه صنع لى أو ابتيع من أجلى . كنت احس دائما أن ثيابى ليست ملكا لى ! »

واستطرد شارل فى ذكريات عامه التاسع ، فروى لى كيف اخذته امه لقضاء عطلة عيد الميلاد عندها فى تلك السنة .. وفى الليل أطعمته امه مبكرا ، وطلبت منه أن ينام فى سريرها ـ بمخدعها الخاص ـ وليس على الاريكة فى حجرة الجلوس ـ كما كان يفعل فى زياراته القليلة السابقة ـ لانها كانت تنتظر ضيوفا أعتزموا السهر الى مطلع الصباح !

وحاول شارل أن ينام ، ولكن الاستطلاع ملك عليه حواسه .. وحمله الضحك وموسيقى الحاكى والاحاديث ، على أن يغادر الفراش لينظر خلال ثقب الباب ، الى أن تثلجت قدماه من شدة البرد ، فعاد فى نحو الثالثة صباحا الى الفراش ، واستغرق فى نوم عميق حافل بالاحلام ! .. ولكنه تنبه ـ فى ضوء الفجر ـ الى يدين قويتين رفعتاه من الفراش ، ورأى وجه رجل غريب ، ضخم الملامح .. ثم غلبه النوم ليستيقظ فى الضحى ، فيجد نفسه نائما على الاريكة فى حجرة الجلوس

ومن حوله بقايا السهرة الصاخبة ! وحدثه شيء فى نفسه ان باب مخدع أمه موصد بالمفتاح ! .. ولم يستطع أن ينسى تلك الليلة .

وتغيرت الاوضاع بعد تلك الزيارة ، فصار يزور بيت أمه بروح من العداء تشوب شوقه .. ووجدت راهبات الملجأ فيه قسوة ونزعة شر ــ من ذلك الحين ــ لم يستطعن لها تفسيرا حتى لقبنه بالشيطان .. وكان يتلذذ بألوان العقاب التى كن يوقعنها عليه ، لانه كان يجد فيها دليلا على غيظهن !

السر فى .. صندوق !

• وتحسنت باسترجاع هذه الذكريات حالة شارل ، فاصبحت اسمح له بالتحول معى داخل بناء مستشفى السجن . وكان يحمل لى بعض أدواتي وانا أتفقد المرضى . ولكنى لم أسمح له مطلقا بحمل صندوق العقاقير برغم الحاحه فى أن اريه محتوياته !

وفيما كنت أصعد الى غرفتى الخاصة بالمستشفى ــ ذات يوم ــ وقد استسلم الجميع للركود الذى يرين فى ساعات الظهيرة ، انتبهت الى خطوات خلفى ، فلما ألتفت وجدت شارل ورائى مباشرة .. وداخلنى خوف شديد ، فقد كنا فى عزلة كاملة ، ولو انه هاجمنى لقضى على قبل أن يشعر بذلك احد ، لاسيما وانه كان مجنونا خطرا قتل وهو تحت تأثير الجنون . وسألته عما كان يريد ، فأجابني بصوت أجش :

« الصندوق . اعطنى الصندوق ! » .. وعدت اساله عن السبب ، فقال : « أريد أن أرى مابداخله ! »

— ولكنك تعرف ان بداخله عقاقير للمرضى .. ومحظور ان اسلمه لاحد !

— **بل أريده .. يجب أن أحصل عليه !**

— لقد رأيتنى أخرج منه العقاقير مرارا ، ورايتها بنفسك

— **لم أر كل شيء . أريد أن أرى القاع . من فضلك ! ؟**

وطمأنتنى كلمة الرجاء فتشجعت وقلت : « انك لست على مايرام ياشارل ، فاذهب الآن ، وسنتحدث فى أمر الصندوق غدا ! »

— **انك لم تفهمنى يادكتور . لابد من أن أرى مافى الصندوق !**

— وهل اذا أريتك كل مافيه ، تعود الى زنزانتك ؟

— **أحقا ستريني كل شيء ؟**

— طبعا . هيا معى الى مكان فيه مزيد من الضوء .

وهبطت السلم وهو يتبعنى مسرورا ، الى ان دخلت على الممرضة صاحبة النوبة ، وجلست الى مكتبها ، وأفرغت محتويات الصندوق كلها ، ثم أعطيته الصندوق فارغا ، فجعل يقلبه بين يديه . ثم وضعه وهو يتنهد بارتياح وشكرنى وانصرف !

وفى اليوم التالى اقبل شارل مشرق الوجه ، هادىء النظرات ، فحيانى بلطف ثم جلس ، ونظر الى الصندوق نظرة استطلاع واستفهام . وأعطيته المفتاح فى هذه المرة ، ففتحه وافرغ مافيه ، واحدا واحدا . وكنت قد وضعت فيه مسدسا مما يلعب به الاطفال ، وسكينا صغيرا قلبها بين يديه ، ثم قال : « ليست هذه .. انني ابحث عن شيء آخر ! » .. وضحك

مردفا : « اقسم انني كنت معتقدا بوجوده فى الصندوق امس ! »

وهنا سألته عن الشيء الذى كان يتحدث عنه ، فكان جوابه : « الخاتم » .. وقال حين استوضحته : « خاتم زواج امي ! » .

يطلع على أسرار أمه !

• وتدفق يحدثني عن ذلك الخاتم . فلقد حدث أثناء زيارته لامه – وهو فى الثالثة عشرة من عمره – أن راح ينقب فى أرجاء المسكن – بعد خروج الام الى عملها فى المتجر – واذا به يعثر على صندوق مقفل فى مخدع نومها ، وقد دس تحت الوسائد والحشايا الزائدة عن الحاجة . فخيل اليه انه مقبل على سر يتعلق بأمه . وأحضر – من المطبخ – الازميل الذى يكسر به الثلج ، ثم رفع الوسائد وعالج قفل الصندوق بالطريقة التى تعلمها من رفقاء السوء . وأخرج محتوياته واحدا بعد واحد ، فاذا فيه رزم من خطابات لم يفقه لها قيمة – وقد ربطت بالحرير – ومجموعات من الصور القديمة الباهتة . وأخيرا عثرت يده بصندوق معدنى جعل يقلبه بين يديه ، الى أن عثر بالطريقة السرية التى يفتح بها . وهناك وجد دبابيس ذات رؤوس من الماس الصناعى ، وعقدا من اللؤلؤ وقلادة من الذهب الثقيل ، وخاتم زواج مرصعا بماسات صغيرة . ووجد تحت هذه مجموعة من أوراق النقد فئة العشرة دولارات ، فدس احداها فى جيبه ، ثم أقفل الصندوق ورد كل شيء الى مكانه بعناية فائقة !

وصار شارل يفتح الصندوق الكبير – فى كل يوم – ويطالع

جانبا من الخطابات ، أو يحل الغاز الصور القديمة . وبهذه الوسيلة عرف كثيرا من الحقائق . عرف مثلا ان والده لم يمت - كما قالت أمه - وانما هو قد تزوج امراة اخرى فى مدينة بعيدة . وكان يحرص - قبل ان يقفل الصندوق الكبير - على ان يفتح الصندوق المعدنى ، ويستبقى خاتم أمه فى يده بعض الوقت !

وقد ظل هذا الخاتم محور أحلامه نائما ويقظانا ، طيلة العامين اللذين قضاهما فى المزرعة . ولم تتجسم اهمية ذلك الخاتم لديه ، الا بعد هربه من المزرعة . **فقد كان اول شىء حرص على التنقيب عنه فى لهفة وتوجس ، بمجرد أن سنحت له الفرصة ووضعه فى جيبه ، كما أخذ ورقة من ذات العشرة دولارات ، وخرج هائما على وجهه** . وكان قد بلغ السادسة عشرة ، طويلا ، مفتول العضل ، لوحته الشمس . وتوجه الى مدينة الملاهى . فراهن على اصابة الهدف . ولكن يده كانت مضطربة ، فخسر !

ثم دخل حانة - فى حارة منزوية - وطلب قدحا من البيرة . وفيما كان يرتشفه ، استلفتت نظره امراة عارية الرأس ، وقد طلت وجهها بالاصباغ الثقيلة . واذ ابتسمت واشارت له بأصبعها ، حمل كوبه وجلس الى مائدتها . فسألته ان يطلب لها كأسا ، فلبى مضطربا . ثم سألته عما كان معه من نقود ، وطلبت ان يسلمها اياها ، ففعل .. وكانت خمسة دولارات صحيحة ، وحوالى دولار من النقود المعدنية . وجمعت المراة الدولارات الصحيحة كلها ، فدستها فى صدرها ، ثم نقدت الساقية ثمن كأسها من النقود المعدنية ، وغادرت الحانة ، فقادت الفتى الى حجرة مظلمة ، فى بناء حقير كريه الرائحة . **ووقف ينظر اليها ببلاهة - وهى تخلع ثيابها بطريقة آلية - فأدركت انها تجربته الاولى مع النساء . وترفقت به ، ولكن**

بغير جدوى ، فرفعته وهمت بارتداء ثيابها ، ولكنه صاح : « تمهلي دقيقة واحدة .. أرجوك ! »

وفتش في جيوبه بسرعة ، الى أن عثر بخاتم زواج أمه ، فوضعه في اصبع المرأة . ولكنها تقبلت الامر بغير مبالاة ، واذا به ينقض عليها انقضاضا أدهشها ، حتى انها قالت وهي ترتدي ثيابها في النهاية : « ما أعجب أطوارك . كنت أظن أني رأيت من عجائب الرجال كل شيء ! »

ضحية غير مقصودة !

• **وبهذه** القصة أميط اللثام الاخير عن عقدة « شارل » المكبوتة ، من جهة أمه ، فصار من الممكن اعادة بناء جريمته على ضوء مكنونات اللاشعور ، بعد أن فهمنا دوافعه كلها .

فلقد ذاق الفتى كل معاني اليتم ، بينما كان أبواه على قيد الحياة .. وذاق النبذ من أمه متكررا ، في قسوة ، مما سبب له كبتا والتواء .. اذ حرم من كل المقومات العاطفية التي يحتاج اليها نمو الطفل نموا سويا !.. وهذا النبذ الكلي — الذي حرمه من ألزم وامس احتياجاته العاطفية — بعث فيه جوعا ضاريا ، من الناحية العاطفية . فلما وصل الى سن المراهقة ، كانت ظروفه الشاذة قد صاغت منه وحشا لا يستطيع ان يرضي غرائزه واحتياجاته الا عن طريق العنف والالتواء والتحطيم .

ومن الواضح ، في ضوء علم النفس ، أن ضحية جريمته — الفتاة المبشرة — لم تكن هي الضحية المقصودة ، وانما كانت مجرد بديل دفعت به يد المصادفة ليحل محل الام . فان شارل بهذه الجريمة المضاعفة لم يقتل ولم يغتصب تلك الفتاة ، وانما كان يقتل ويغتصب أمه . فلقد استيقظ الفتى — في يوم الجريمة — بعد خروج أمه لعملها .. وكان في اليوم ا

السابق قد زار تلك المومس لاول مرة فى حياته ، فشعر انه محتاج الى مزيد من المال ليكرر الزيارة . لهذا انصرف الى فتح الصندوق . ولأمر ما استعصى الصندوق عليه . واحضر المطرقة والازميل وكل أدوات النجارة التى وصلت اليها يده . واذا بجرس الباب يرن . وفتح ليجد امامه امراة تسعى بقدميها نحوه . ولم يعنه شكلها وسنها .. فقد انبعث الصوت من داخل وجدانه يحفزه الى القتل انتقاما من الحرمان الذى اصابته به امه .. فقتل .. وبعد أن قتل اغتصب !

الا ترون الى هذا الفتى كيف انهال على القتيل يطعنها فى ثدييها بوجه خاص .. وما ذلك الا لانها كانت تمثل عنده الام التى حرمته حنانها .. وحنان الامومة ترمز له الاثداء اكثر مما ترمز له سائر أعضاء الجسد !

ولكن هذا الدافع كان لاشعوريا لدى شارل ، كما تفسره الاجابة عن احد الاسئلة الاولى التى وجهتها اليه .. فهو لم يكن يدرى ، اكان يبغى من الثدى لبنا أم لا ! .. ذلك أن الدافع اللاشعورى هو الذى يسبب الجماح والشذوذ النفسى ، ويدفع الى الاجرام . ولو كان واعيا لانحلت عقدته ، ولما أقدم على فعلته .

وما كان تمزيقه عذرة الفتاة المقتولة باصابعه ، الا امعانا لاشعوريا فى الاعتداء عليها . وقد تعلم فى طفولته التى قضاها فى الملاجىء أن الفعل الجنسى هو قمة الاذلال والعدوان .

كذلك لم تكن صورة امه ، وهو يحلم باللجوء الى حضنها ، الا لونا من الرغبة الطفلية ، التى حولها الحرمان والنبذ الى حب محرم كحب أوديب .

أما صندوق العقاقير الذى كان يريد بأى ثمن أن يرى ماكان بقاعه ، فهو شبيه بصندوق ذكريات امه ، الذى كانت تخبىء فيه أسرار حياتها المطوية عنه .. الصندوق الذى عثر فيه

على خاتم زواجها من ابيــه ، وعلى خطاباتها التى كشفت له سر علاقاتها الخاصه ، كما كشفت له عن أن والده حى يرزق، يعيش مع زوجة ثانية

وترجع قيمة خاتم زواج امه ، الى انه رمــز اقترانه بتلك الام اقترانا شاذا ، كما فى عقدة أوديب . ولذا وضع الخاتم فى اصبع المومس لتهييج رغبته فى جماعها ، .. اذ أنها بذلك تأخذ لديه صورة الأم المشتهاة !

وهكذا تجلى السبب الاصلى للجريمة .. وهكذا ــ أيضا ــ حلت عقدة الشاب ، ولكن .. بعد أن تحطم هو ، وحطم سواه، نتيجه جهالة المجتمع ، وقسوة الام !

كتاب البحث الطبى

فى الامراض البولية والتناسلية المستعصية ، وتضخم البروستاتا التى هى سبب العلل فى جسم الانسان .. وطريقــة علاجها بجهاز ((فهجر)) الذى لا يستعمله الا مخترعه مؤلف هذا الــكتاب ، الدكتور فهمى جرس ــ ٧٨ شارع الجمهورية (ابراهيم باشا سابقا) ت٥٦٢٠٤ ويطلب من المؤلف ((٥٠ مليما))

عندما ترفع الستار ..

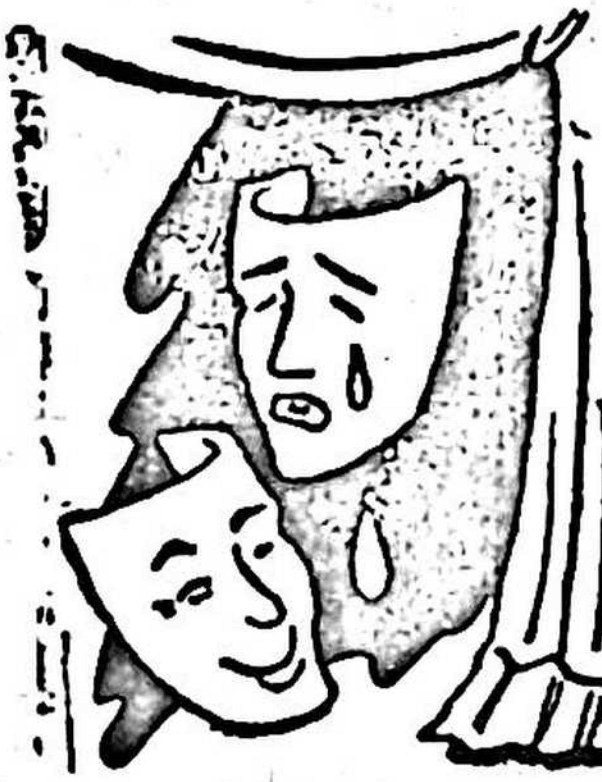

روائع المسرح العالمي
(التمثيلي والغنائي)

عزيزي القارىء ..

قدمت لك في هذا الباب المسرحيات العالمية الآتية :

• خطايا الحب • نزاهة الحكم • سلاح المرأة • فولبون • جيوكندا • كلام الناس • مدرسة الفضائح • سيرانو دى برجراك • لعبة الحب والموت • مروحة الليدى وندرمير • فاوست • فى سبيل الحب • الأم • الملك يلهو • الجنس الآلى • هرنانى • ترويض النمرة • الحياة نفاق • اغلال الحب • المنافق • بيت الليل • علموهم الحب • زوج مثالى • سالومى • مدرسة الأرامل • برهان الحب • لوسيد • كيف نقع فى حبائلهن • حلاق أشبيلية • كاليجولا • هوراس • حوادث سعيدة باجملة • الهاربة من الفضيحة • رجل الأقدار • جوديث • البخيل • لذة الشرف • الانتقام الرهيب • جندى محترف • اندروماك • دماء الضحايا • المقامرون • المريض بالوهم • الشقيقات الثلاث • الخطاب

واليوم نقدم لك احدى روائع المسرح الفرنسى :

تلخيص : ميخائيل بشاي

دعابة ودراسة .. على المسرح !

• امتاز الكاتب الفرنسى الأشهر ((أندرية جيـــد)) بفن مرهف دقيق ، فهو يستـخدم الفكاهة الصافية ، والسـخرية اللطيفة ، المصقولة ، الموجهة ، ليعالج المسائل التى يعرض لها .. فيجعل من الدراسة دعابة – فى آن واحد – وهذا أفعل اسلوب يتخذه صاحب فكره ، لينفذ بفكرته الى عقول قرائه وافكارهم .

كذلك تمثل هذه المسرحية – أو ((الدعابة)) ان شئت – لونا من البراعة الفنية فى كتابة المسرحيات .. فان التمثيلية كلها تدور فى مكان واحد ، تتابع فيه خمسة مناظر . ومع انك تضطر الى ان تلازم أبطال التمثيلية فى هذا المكان ، الا ان الكاتب يتنقل بك فى أكثر من مكان، بحوار مبتكر طريف !.. فتعال نصحب ((جيـــد)) فى دعابتـــه ، اذ أوقع سيدة طيبة ، فى مأزق طريف ، تتجاذبها فيه والتقوى والرغبة فى تثقيف النفس ، والغرائز .. !

المكان : قاعة جلوس فخمة ، انيقة ، فى قصر ((الكونتة)) ، يحف بها – من أحد جوانبها – جدار من الزجـاج ، تتجلى خلفه أشجار الحديقــة ، وفى أقصى القــاعة ، باب يؤدى الى قاعة المائدة

• **فاذا** رفعت الستار عن المنظر الأول ، يرى الفيـكونت – ابن ربة القصر – يوشك ان يغلق الباب الذى بين القاعتين ، وقد انصرف لتوه عن المائدة ، فيلحق به القس فى عجلة ، ليقول له : ((انما اريد – بايجاز – أن أحذرك من هذين المدعوين ، اللذين احضرهما ابن خالك السيد ارمان . فان السيدة والدتك هى الرقة بعينها ، واخشى ان لاتتصور ماقد تسببه أحاديثهما من ايذاء لها . فهما يجلبان الى هـذا المـكان روح التجديف والفوضى ، التى تتغلغل ببطء فى أمك المبجلة !))

ويهون الفيكونت على القس ، ثم يردف قائلا : ((**اننى لأقدر باغتباط – يا سيدى الأب – ما تكلأنا به من رعاية . ولكن ،**

اترى حقا ، مايدعو الى الحذر ؟ .. لقد أثبتت أمي ـ دواما ـ انها قوية الشكيمة . وصحيح انها مسرفة بعض الشيء فى فضولها نحو الآراء الطريفة المستحدثة ، الا انها ـ فيما عدا ذلك ـ قدوة حسنة .. ! »

وما ان ينصرف القس ، حتى يملأ « الفيكونت » لنفسه كأسا من الخمر ، يشربها دفعة واحدة ، ثم ينصرف هو الآخر

* * *

• وترفع ستار المنظر الثانى ، عن الفيكونتة وقد جلست فى قاعة الجلوس مع « أرمان » ـ ابن أخيها ـ وأحد ضيفى «ارمان» ، هو العلامة الخبير بالاديان واللغات القديمة .. وتبدى الكونتة أسفها لأن الأمطار التى لم تنقطع ـ خلال الأيام العشرة الأخيرة ـ حالت دون خروج العلامة للصيد ، ودون خروجه الى الحديقة .. وهنا يسخر « ارمان » من العلامة ، لأنه ليس بالمجدث اللبق الذى تحلو زمالته فى مثل هذه الظروف ، فتصيح الكونتة قائلة : « هل هناك من يضيق بالاستماع الى السيد لافانيت وهو يتحدث عن دراساته ؟.. لقد القى على ـ بالأمس ـ محاضرة فى الديانة الاغريقية »

العلامة : لكم انا سعيد ، يا سيدتى الكونتة ، اذ أراك لا تشاطرين ابن اخيك ـ صديقى السليط ـ آراءه

الكونتة : ان ارمان لم يعرف يوما كيف يوجه اهتمامه الى شيء .. (**لارمان**) انظر الى السيد لافانيت ! .. انه دائما مشغول الذهن . اما أنت ، فانك لا تفعل شيئا ، ولا تقرأ شيئا .. ولا الصحف !

ارمان : وهكذا انت يا عمتى العزيزة !

الكونتة : ذلك لان الصحف الموجودة ، لاتنشر سوى المآسى ، وانا اريد صحيفة لا تتناول سوى الأحداث السعيدة ..

وتأمر الكونتة ابن اخيها بأن يدعو بقية الضيوف الذين كانوا

قد تخلفوا فى قاعة الطعام ليدخنوا . واذ يغادر القاعة ، تبدى للعلامة عجبها من انه لم يستطع ان يؤثر على الشاب فيحوله عن النهج المستهتر الذى ينهجه فى الحياة ، فيذكر لها ان زميله الطبيب النفسانى قد اخفق ، لأن « ارمان » يأبى دائما اى تحليل لنفسيته !

الكونتة : آه يا سيد ! .. وانا الأخرى اخشى كل الخشية ان اكتشف فى نفسى كومة من الخبائث التى أؤثر ان اجهلها .. انما يكفينى من زميلك الدكتور ، أن أتحدث معه ، فان حديثه - كحديثك - مفيد جدا ! .. فانا اشغف بتثقيف نفسى !

* * *

ه وفى المنظر الثالث ، يكون القس والطبيب النفسى وارمان ، قد انضموا الى الكونتة والعلامة ، فى قاعة الجلوس .. وتداعب الكونتة القس ، ثم تقدم له سيجارة وتدعوه لاشعالها

الدكتور : او يعنى هذا يا سيدتى ، انك تدخنين ، انت الأخرى ؟

الكونتة : هذا لا يليق بسنى (تقدم قدح القهوة فارغا للقس) كم قطعة من السكر تريد ؟ .. واحدة ، او اثنتين ؟

القس : بل ثلاثا .. وقدرا قليلا من القهوة

ويعترف القس بأنه شره ، ولكن الكونتة تقول ان هذه رذيلة لا تؤذى احدا . فيقول : « ولكنها قادرة على ان تجمح ، كبقية الرذائل التى يضعف الانسان حيالها ! »

ارمان : ولكن طبيبنا المبجل يقول ان كبحها كفيل بان يضاعف خطرها ، كذلك !

ويدور الحديث عن الرذائل والغرائز ، فيقول الطبيب النفسى : « وكثيرا ما يؤخذ التحليل النفسى على انه يثير فى النفس وحوشا ما كانت لتوجد لولاه ، فى حين ان مهمتنا ليست توليد هذه الوحوش ، وانما هى السيطرة عليها ! ..

فان وجودها ــ سواء بكثرة او بقلة ــ أمر واقع ! »)

الكونتة (للقس) : الا طمئنني ــ يا سيدى الاب ــ الى ان الله لا يحملنا مسئولية ما فى باطننا !

القس : هو ذلك يا سيدتي .. ومن الخطورة ان نخرج الى النور تلك الوحوش المستكنة فيما يدعوه الدكتور « باطننا » واسميه انا .. « جحيما » !

ويرى العلامة ان القوى التي كان الاغريق يعتبرونها « آلهة » تسكن برغمها فى هذا « الباطن » ، وتثور كلما اشتد انكار الانسان لوجودها . فيقول القس ان المسيحية تسميها « قوى الطبيعة » أو « الغرائز » ، وتعلم الناس كيف يصبحون سادة لها ، لا عبيدا . فيعقب الطبيب النفسي مسفها مايزعمه الناس من معرفة بتذليلها ، ويقول : « لقد كان الاغريق ينساقون لوحى عواطفهم ، اما اليوم .. فنحن نكبت ونكظم .. اننا نقاوم هذه الآلهة الاغريقية ، على حساب انفسنا ! »

الكونتة : ما احسبك تشجع مجتمعنا على ان ينتج انماطا من اوريست واوديب ، كما فعل المجتمع الاغريقي

واوريست واوذيب من شخصيات الأساطير الاغريقية ، ويعزى الى اولهما انه قتل امه لتآمرها على ابيه ، فى حين ان الثانى قتل اباه وتزوج امه ، دون ان يدرى علاقته بهما !

العلامة : قد لايكون اشباه اوديب فى ايامنا اقل مما كانوا فى ايام الاغريق ، فان التعلق بالمحارم شائع فى الريف ..

الدكتور : وفى الأحياء الوضيعة من المدن الكبرى .. ولكن «اوديب» ــ فى ايامنا ــ لايتزوج امه، وانما يكتفى باشتهائها.. ان الدراما ــ فى هذه الأيام ــ لا تمثل على المسرح ، او فى الحياة ، وانما .. فى اعماق مجهولة !

الكونتة : ان الذعر ليتملكني .. الا ندع هذه الاعماق ساكنة !

الدكتور : لو انها سكنت لطاب كل شيء ، ولكن مانجهله من هذه الاعماق يعذبنا .. ولا اقل من ان تدس الوحوش الهائجة

فيها انوفها فى كل شيء ، حتى لا تتخذ شكل الجريمة ..

وهنا يستأذن القس فى الانصراف ، مضطربا . فترافقه الكونتة الى الخارج ، ثم تعود ، فيسألها العلامة : « أمستاء هو ؟ »

الكونتة : يا للأب من شجاع مسكين .. انه انسان فاضل! (**للدكتور**) والان ، هلا حدثتنا عن أنوف تلك الوحوش ؟

الدكتور : ان هاتيك الغرائز التى كنا نقرنها بالجريمة — فى الماضى — لاتنى تنم عن نفسها ، ما دامت مغلوبة على امرها ، مكبوتة ، بمجموعة من النزوات ، والارتعاشات ، والتصرفات التى لا تستند الى عقل ، ولا نكاد نحس بها فى الغالب !

الكونتة : انك تثير اهتمامى يا دكتور ، فأنا مشغوفة بأن أعلم نفسى . لكم يكفر ابن أخى عن سيئاته اذ يصطحب الى هنا اصدقاء مثلكما .. (**الى أرمان**) **لقد ألقى السيد لافانيت — بالأمس — على محاضرة عن الأديان البدائية ، وعبادة الاشجار .. وقد اعتدت دواما أن أولع بالاشجار**

العلامة : سأحدثك اذن — يوما — عن رسوم غريبة ، ترجع الى ما قبل التاريخ ، وقد وجدت على الصخور والمغاور

الكونتة : أيمكنك حقا ان ترينى صورها ؟

ويشير العلامة الى ان تلك الرسوم ليست مما يليق بها رؤيتها .. فيقول أرمان : « الا ترى ان عمتى تتوق الى رؤيتها ؟ »

الكونتة : وقح ! .. ارجو ان لا تطلعنى عليها يا سيد لافانيت !

الدكتور : حذار ، فان ماتوشكين ان تفعليه هو الكبت !

وهنا يعود القس مضطربا ، فيسأل الكونتة ان تأذن له فى الحديث على حدة . واذ ذاك ، ينصرف الآخرون

* * *

• ونسمع القس — فى المنظر الرابع — يذكر للكونتة انه راى

على شجرة من اجمل اشجارها واكبرها ـ فى طريق الرائح والغادى ـ رسما بذيئا ، لا سبيل الى ازالته ، لأنه محفور بمدية ، فى لحاء الشجرة ..

ويضيف القس : « ويؤسفنى اننى وجدت حفيديك البريئين، يجلسان تحت الشجرة »

وتسأله الكونتة أن يدعو لها حارس الحديقة ، لتتعرف منه على صاحب هذا الرسم. فاذا هم بالانصراف ، قالت : « **لا تتركنى يا سيدى الأب .. معذرة لاضطرابى .. ليت ولدى كان موجودا !** » .. ولا تلبث ان تغادر القاعة ، تاركة للقس عبء التحقيق .

القس (محدثا نفسه) : كيف لا تكون ثمة علاقة بين هذا العمل الشنيع ، واحتلال هؤلاء السادة قصرنا الهادىء ؟

ويقبل « أرمان » فى صحبة الحارس « بوكاج » . وما ان يتبين الشاب أن القس يتحرى عن رسم بذىء على شجرة ، حتى يهرع لاستدعاء صديقيه لينصتا الى القصة .. بينما يقول بوكاج : « **ان هذا الرسم على الشجرة ١٣ .. انها شجرة دردار ، وليست شجرة دلب .. وهى أضخم اشجارنا ، ويزيد عمرها على مائة عام** »

ويعود أرمان مصطحبا صديقيه ، فيستفهم العلامة عن الرسم ، ويجيبه الحارس : « **انه رسم لرجل بدائى ، فطرى .. ذى لحية كثة . أما الباقى ، فمعذرة .. انه عمل فنى جميل!** » فيسرع أرمان وصاحباه الى الخروج لمشاهدته ، بينما يعود

القس الى سؤال الحارس ، فيعلم ان الرسم يستغرق من فاعله حوالى ساعة ، وانه ولا بد تم فيما بين الساعتين الرابعة والسادسة ، من بعد ظهر اليوم السابق .

القس : الا ترتاب فى أحد ؟

الحارس : لقد كان ثمة كثير من الفجر بالقرب من الحديقة ، ولكن احدا ما كان ليجترىء على دخول الحديقة ..

ويشعر القس بأن الحارس يتحرج من الكلام ، فلا يزال به حتى يقول : ((**لقد كنت أفكر فى ضيفى القصر .. صديقى السيد ارمان . ان السيد أره ان يحب المزاح كثيرا ، ولكنه لم يتلف قط اية شجرة ، مذ كان صغيرا جدا . ولكن الآخرين .. ما الذى نعرفه عنهما ؟ .. انهما بلا عقيدة !))**

وينصرف الحارس ، فتفد الكونتة . ويروى لها القس ما علمه من « بوكاج » ، قائلا ان الفاعل من المقيمين بالقصر ، ولا بد . ويستبعد الخدم مبدئيا أسبابه ، فلا يبقى – فى نطاق الاتهام – سوى أهل القصر ذاتهم ، والغريبين . وهنا يعود « ارمان » وصديقاه

العلامة : الواقع انه عمل فنى دقيق الأداء .. صادر – اذا جاز لى القول – عن رقة مؤكدة ، واحساس بالفن لا شك فيه .. **وهو يذكرنا – من حيث الصنعة والاتجاه – بكثير من رسوم ما قبل التاريخ ، التى تحدثت عنها مع السيدة الكونتة ، ولدى نسخ منها ..**

الكونتة : قلت لك ياسيد لافانيت اننى أربأ بنفسى ان اراها ..

القس : المهم هو أن نعرف من اقترف هذه الرذيلة .. ان الشجرة قد دنست بين الرابعة والسادسة من بعد ظهر البارحة .. ومن المؤلم ان الفاعل واحد ممن يعيشون حاليا تحت هذا السقف !

الكونتة : لعمرى ! .. هناك أوقات يسعد فيها الانسان بعدم المامه بالرسم !

الدكتور : ان كثيرا ممن يعوزهم الحذق فى حياتهم العادية ، يكشفون — فى حالة اللاشعور — عن مواهب غير متوقعة . .

ويبدى ارمان استياءه من أن الامر انقلب الى تحقيق دقيق ، بينما يقترح العلامة ان يفكروا فيما كانوا يفعلون بين الساعتين الرابعة والسادسة من اليوم السابق ، فيتبادلون النظرات فى حيرة . بينما تقترح الكونتة التحول عن الموضوع ، لتدبر وسيلة لطمس الرسم الشنيع . **ويقترح ((ارمان)) تغطيته بطبقة من الطلاء ، ويهم بالانصراف مع العلامة لهذه المهمة . ولكن القس يعترض طريقهما ، مصرا على ان يتذكر كل منهم مافعله بين تلكما الساعتين !**

أرمان (بعد تفكير) : آه . فكرة .. اليس من عاداتك الحسنة ياعمتى ، أن تدونى يومياتك ؟ .. انها قد تفيدنا وتجلو ذاكرتنا

وتحضر الكونتة كراسة ، تقرأ عليهم فقرات مما اثبتته فيها عن اليوم السالف : ((**فى الساعة العاشرة ، ألقى على السيد لافانييت محاضرة صغيرة عن أديان الشعوب البدائية . وكنت أرتشف كلماته! .. ان مايقصه عن عبادة الاشجار يثير اهتمامى بوجه خاص**))

الكونتة : وهذه هى بعض خواطر .. آه ، هاهى ذى : ((**الساعة الرابعة : يبدو أن الجو يستعيد صفاءه .. أرمان يلعب البليارد مع صديقيه .. سأنتهز الفرصة، لاستنشق بعض الهواء ..**))

وهنا تضطرب الكونتة ، ثم يغشى عليها . ويبادر القس الى اسعافها ، بينما يتبادل الاخرون النظرات ، ثم ينسحب الضيفان ، ويساعد « ارمان » القس

* * *

• **وبينما** يكون القس منهمكا فى اسعاف الكونتة — فى المنظر الخامس — يتهكم أرمان على دقته فى التحقيق

القس : وهل كان فى مقدورى أن ارجم بالغيب !

الكونتة (تفيق) : ارمان ، أهذا أنت ؟ .. طمئننى ! .. انت هنا ياسيدى الاب ؟ .. احمنى ! .. هل من الممكن ان يكون هذا حقا ؟

ويحاول القس ان يوحى اليها بأنها واهمة ، ولكنها تقول : « **انك لتعلم تماما اننى الفاعلة ولابد .. اننى أذكر الان ، اننى خرجت الى الحديقة .. وأحسست لفورى باضطراب غريب ، وكأن روحى مخدرة ! » . وتنخرط فى البكاء**

القس : اننى لواثق من انك لم تفعلى شيئا .. لقد ادار هذان السيدان رأسك بترهاتهم .. **(يسمع صوت الفيكونت فى الخارج)** لقد عاد ابنك، فأتوسل اليك ان تستعيدى هدوءك حتى لاينزعج

ويدخل الفيكونت مهتاجا ، فلما يسأله ارمان عما به، يقول: « ان صديقيك لوقحان ياابن خالى .. انهما يطليان الاشجار بالوان صارخة ! »

الكونتة : لو انك علمت ، لادركت انهما يسديان خدمة لنا

ارمان : دعنا نوضح الامر ..

الفيكونت : لا اريد ان اعرف شيئا .. لقد امرتهما ـ بكل بساطة ـ ان يرحلا باول قطار .. أنت وحدك المسئول عن حضور هذين المهرجين ، وحبذا لو غربت معهما !

يعانق ارمان الكونتة ، ليرحل .. ويقول للقس : « سيدى الاب ، اننى اخلى لك الميدان ! » . فيقول القس : « عسى ان يلقنك هذا درسا ، ياعزيزى ارمان . فها أنتذا ترى ان هذه النظريات الحديثة بأكملها ، لاتصمد للتجربة .. ولسوف تعود الينا قريبا وقد انصلح شأنك ! »

مَنْ مِنْ هؤلاء

مؤلف التحفة القادمة لمطبوعات كتابى ؟

عزيزى القارئ ..

منذ أصدرت من أجلك هذه السلسلة الشقيقة لكتابى - سلسلة مطبوعات كتابى - وأنا أحرص على أن تتضمن مجموعتها مختارات منوعة من أدب جميع البلاد ، لأشهر المؤلفين ، فى جميع العصور .. كى تكون هذه السلسلة بمثابة دائرة معارف للأدب العالمى من جميع مصادره .

وجريا على هذه الخطة ، أقدم لك فى العدد القادم من " مطبوعات كتابى " - الذى يصدر بعد أيام - تحفة لأحد هؤلاء المؤلفين الذين ترى صورهم فى أعلى هذه الصفحة [فمن هم ؟ .. وما هو الكتاب الذى اخترته لك من مؤلفاتهم ؟

هذه هى المفاجأة القادمة لسلسلتك المحبوبة

يصدرها حلمى مراد

مَطبُوعات كتابى

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية